تجربة في العشق

تجربة في العشق–رواية

الطاهر وطار-مؤلف

الطاهر وطار

تجربة في العشق

رواية

كلمة لابد منها

قلت في ملتقى الرواية الذي نظمه معهد العالم العربي 1988 معلقًا على ميشال بوتور وعلى فكرة ضرورة الثورة ضد أشكال الرواية القديمة، إنني شخصيًا، وانطلاقا من قاعدة جدلية الشكل والمضمون التي أعمل بها، وأطبقها بصرامة، أثور في كل مرة ينضج موضوع ما في ذهني، ليس فقط، على شكل الرواية العام، وإنما على الأشكال التي صنعتها أنا نفسي، فأحاول ابتداع شكل ينسجم مع المضمون، ولغة تتماشى مع الأجواء. حتى وإن تعددت في صفحة واحدة من فصل واحد من رواية واحدة.

ومحاولة وضع قواعد لرواية جديدة، أو تقنين لكتابة بعناوين مختلفة، دعوة رجعية تقودنا طال الزمن أو قصر إلى المحافظة، وإلى تقديس الشكل.

عدت بيني وبين نفسي إلى رواياتي وإلى قصصي، فلم أجد تشابها بين شكل اللاز وشكل الزلزال، وبين شكل عرس بغل وشكل الحوات والقصر أو العشق والموت في الزمن الحراشي، ولا بين الزنجية والضابط والشهداء يعودون هذا الأسبوع، هناك الطابع العام، الذي تضعه شخصية الكتاب، ولكن ليس هناك قالب جاهز يصب فيه الكاتب مواضيعه ومضامينه، وأتذكر ما قيل حول مجموعة قصصي الأولى "دخان من قلبي" في كتاب أنطولوجيا الأدب العربي المعاصر، أنني كاتب تجريبي ، وأذكر أن الزميل إلياس خوري قال معلقًا في جريدة "السفير" على ما أذكر عن الحوات والقصر. إن لهذا الكتاب طريقته الخاصة به.

فأقول إنني كذلك في كل ما فعلت وما سأفعل ، لكن ليس بمعني التجريب المخبري، وإنما بمعنى إفساح المجال للمضمون ليتشكل، للشكل ليتقو اب مع المضمون، وليتحرر في نفس الوقت، من قالبيته وإن طريقتي الخاصة بي، هي العفوية النابعة من الثقة بالنفس، ومن التعامل النزيه مع مضاميني وأشكالها. وإنني أثناء العملية الإبداعية أضع نفسي موضع الواضع للحن لا المؤدي له.

ومن هذا المنطلق أطلب من قرائي، أن يتعاملوا مع كتاباتي، ومع هذه الرواية بالذات، التي سيجدون فيها مذاقا، لم يتعودوه في باقي رواياتي.

لقد فرض علي المجنون- وهو محور هذه الرواية- جنونه

ولربما لهذا السبب، جاءت الرواية بهذه الطريقة غير المألوفة لدي. الفصول مختلطة، يمكن وضعها كما صادف، كما يمكن قراءتها بالتسلسل التصاعدي مثل التسلسل التنازلي، وبدون أي تسلسل، الشخصية الرئيسية تتفكك بدل أن تنمو، عنصر التشويق، أو بالأحرى الخيط الذي يربط به الكتاب قراءهم إلى العمل، لا يتمثل في نمو الحدث وتشعبه، وإنما في البحث عن وجود حدث ما، يكون موضوع كتابة، وفي نفس الوقت، في التعمق في

حالة الجنون.

تناقض كامل بين تمنطق صارم، وبين تغيب وغياب منطق منطلقين، ربما أنا شخصيًا، لا أرضى كقارئي عن بعض هذا، لكن ككاتب، أجدني مضطرًا لتقمص شخصية المجنون، إن لم أكنه بالفعل، وأجدني مضطرًا للدفاع عن الحالة.

لقد اقتنعت منذ سنوات بأنه ليست هناك قائمة قراء أضعها في حسابي، وأن كافكا كان على حق، حين رفض قائمة تتكون من معاصريه، وهذا ولّد لديّ حرية التعامل مع مخزوني التراثي والحضاري والثقافي دون خشية أي مستوى آخر، وحررني، بشكل خاص من أسر القارئ الجزائري باللغة العربية، حديث العهد بالأشكال الفنية الحديثة. والذي لا يطاح له في مدارسه أن يقرأ الشعر الحديث أو الرواية، ومعاصرته، تتوقف عند ابن المقفع، ومن يسمونهم بأعلام النهضة، وحررني أيضًا من النقاد قصيري النظر، أو المستلبين بحداثة يتنبهون إليها، بعد أن تصير كلاسيكية، خاصة من أولئك الذين لا يتورعون، من تلقين الدروس، للمبدعين باسم قرّاء، وباسم مناهج، وباسم معرفة اطلعوا عليها فاعتبروها حكرًا لهم.

وأصارح قرائي، بأنّ أحقر الكتاب النقاد إليّ، هم أولئك الذين يضعون في ذيل المقال، قائمة أطول من المقال، بأسماء روائيين، ومؤلفين وواضعي نظريات، لا تجد ضمنها عربيًا واحدًا، وكأنهم أعدى أعداء هذه الأمة التي تفوق ثروتها الإبداعية، ثروتها البترولية.

إن الحداثة بالنسبة إلي، هي ما ينبع مني أنا، وأنا منسجم تمام الانسجام، مع كل ما وصلت إليه الإنسانية في جميع المجالات، وفي نفس الوقت مع كل ما يجعلني كاتبًا عربيًا، يسكن إفريقيا، على حافة البحر الأبيض الموسط، مهما كان أمره، فهناك شيء ما يربطه بالناس في حيدر أباد، وفي ألماطها عاصمة كازاخستان، ومهما كان أمره أيضا، يشق عليه، بل يرفض، أن لا تكون له شخصية ويرفض أكثر من ذلك أن تكون شخصية من بلاستيك.

أختم هذه الكلمة - تأشيرة وضع الرواية بين يدي القارئ والناقد معًا- بلفت الانتباه، إلى أن الشخصية المحورية، للرواية حتى وإن تواجدت في تاريخ الجزائر الحديث، لم يوظف منها في الرواية، إلا حالتها التي هي حالة المثقف في هذا البلد، وأن ماعدا ذلك، هو من الضرورات الفنية لبناء الرواية، شأنها في ذلك شأن باقي شخصيات رواياتي، وإلى أني لم أشأ نشر الرواية في مطلع الثمانينات وهي فعلاً- كما أعلنت ذلك سابقًا، من إنتاج الفترة – حتى لا يستغلها الخصوم السياسيون.

أما وقد أصبح كل شيء تاريخًا الآن، فإنني أنشرها، كأحد مشاريعي في السبعينات وكخاتمة، لرصد حركة التحرر الوطني في الجزائر من 1962 إلى 1979

الجزائر 1988

التسمع التاسع و التسعون بعد....

عملية تحد حاسمة في حياتي. دوري.

ميم.. جيم.. نون.. واو.. نون.

ستكون بحق، ضربا من الإدهاش، لا يتفوّق عنه، سوى خيال، غير مسئول، ولا حتى لبق، عملية البحث عن القطرة الأولى التي كانت السبب في نشوء البحر، أي بحر من البحار، وحتى عن الوادي أو النهر، الـذي كـان مصبه، الأصل الأول فيه. البحر.

عملية اختصارية ، وتلخيصية، فيها كثير من التواضع الكاذب، والذكاء الصـبياني، ذكـاء الجهلـة الـذين يعمدون إلى تلفيق المعطيات البدائية، لتصير لديهم أمام محدثهم، قضية، أو مسألة، ذات طابع علمـي، علمـاني، على الأصح.

الكأس، أصغر كأس، عندما تكون ملآى ، أو حتى نصف ممتلئة، هل يمكن التحدث، بخصوصها، في شـأن القطرات. القطرة الأولى التي كانت الأصل في الامتلاء، أو القطرة السبب في الرشوح.

على هذا الأساس، يمكن أن تبلغ الحذلقة، حد الحديث عن الذرة –الرمل الأولـى، بالنسـبة للصـحراء، أو الكوكب الأول، بالنسبة للمجرة، والمجرة الأولى بالنسبة للمجموعة الشمسية، ثم بالنسبة للكون كله، كمـا يمكـن الحديث عن الشعاع الأول، في ضوء الشمس من صباح يوم صيف ما. تختصر الفكرة كلها، لتصير، في سـؤال خبيث، عن ذرة الملح الأولى، التي كانت القاعدة في تغيير طعم طبق ما لذيذ. ثم تتشعب إلى الشعب الذي اخترع الملح، والمطبخ الأول، الذي حصل له الشرف، والمرأة الأولى التي كانت لها هذه الجرأة.

إنها لعملية سهلة، لابتداع موضوع حديث، ممتع ومثير ومشوق ومعجز حتى.

طبعا، هذا في حالة وجود تصور عام، عن ذهنيات موجودة في الحياة اليومية، لربما صادفها المرء مـرات متكررة، وأُخذ في الأول فوقع فريسة الإعجاب بها، ثم لم يلبث أن اكتشف خطأه، عندما راح يضيق بها، شـيئا فشيئا، ويُضطر في كل مرة، إلى تكوين مبرر منطقي، لعاطفته تجاهها.

هذا جائز جدًا، ويحدث يوميًا لكل واحدة منا، وكم من واحد، أوقفك عن قص حادثة وقعت لك، ليقـول لـك ولمن حولك: لا. ليس كذلك، انتظر، فإنني أعرف الحكاية، من أصلها، يعني... ويسكتك، وتخصيص الوسط هنا، أيضًا، عملية حذلقة، تشبه عملية قطرة الماء وذرة الملح.

ميم.. جيم.. نون.. واو.. جيم.. نون. الذين وقعوا في البئر، ثم وجدوا منفذا من هنالك، يصب في كأس. لا. توقف.

دوري.. دوري. التسلسل يتواصل. دوري. دونها، دون حكاية البئر والكأس...

المؤرخون، قد يلخص أحدهم، مسار التاريخ العربي كله في غير مجراه، بحادثة السقيفة، ومنا أمير ومنكم أمير، حتى دون الانتباه إلى هول عبارة "منا ومنكم"، بالنسبة للحظة الزمنية، ولمصدرها، وقد يلخصه، في حادثة "هذا كتاب الله، نحكمه بيننا"، أو حتى في خلية ما، نابضة فوق اللزوم في مخ ابن العاص، ولربما يلخصه في مقولة "من دخل البيت ودار سفيان".

السياسيون، بمعنى بعضهم، طبعًا- فالتعميم في هذا المجال بالذات وعلى الخصوص، بالإضافة إلى أنه غير علمي، محرج في غالب الأحيان، لكثير من الناس، الموضوعيين، الذين يتحاشون بكل الوسائل، تأليب رجال الأمن والسلطة، والأجهزة المختصة، ضدهم. فاسحين المجال لأنفسهم، ليقولوا لأصدقائهم، ولخصومهم، على السواء، أنتم، لستم، في هذا البعض الحقير البغيض، الذي ينبغي أن نتضامن كلنا للقضاء عليه - يلخص التبعية للاستعمار والإمبريالية، بجودة الخدمات التي تقدمها شركات الطيران الغربية، أو بتخفيف رجال الجمارك لإجراءات تفتيش المسافرين، خاصة، المغادرون، لغير بلدان الشرق الأوسط. أما الهزيمة المزمنة، فتعليلها بسيط ووارد، ولا يقبل النقاش، أو حتى التداول: التجزئة وليس غير التجزئة، موضوع افتتاحيات كل الصحف والمجلات والدوريات العربية، وموضوع الإرسال من الصباح إلى المساء، وفي جميع الاتجاهات لكثير من الإذاعات، والأصوات، كثير هنا، لها نفس الدلالة المدققة، لعبارة بعض، ولسبب ما، ربما لغوي محض، وردت دون غيرها. والتجزئة في أول وآخر الأمر، لا تعني سوى الوحدة، وهذه تعني، عدم استغراب أو استبعاد أو حتى التضايق منها، الهزيمة هذا الشيء الكائن لحمًا وجسدًا، العادي الذي لا يحدث سوى مرات متواترة، في منطقة مرضية، معروفة محددة، ولأسباب أمكن حصرها واحدًا فواحدًا، وبأعراض، تمّ ضبطها من الألف إلى الهمزة في السطر.

ماذا لو بترت هذه الساق، أو هذه الذراع، أو هذا الثدي؟

الورم يمكن، دائمًا، أن يُستأصل، وعمليات الاستئصال واردة، ومتكررة، من قبل ابن سينا، وقد أثبتت نجاعتها باستمرار، وهي، وبالرأس المرفوع، عربية، دمًا وحضارة، والمثل، من عهد العاربة، ولربما البائدة، يؤكد *"قص الرأس تنشف العروق"*...

مسألة رأس، وبالتالي، مسألة القطرة أو الذرة، أو الشعاع الأصل، وكل إضافة أو محاولة استزادة، أو حتى تدقيق، تدخل في إطار، هذا هو أصل الداء، لا تجلب في الأخير سوى مزعجات الليالي، وما أبشعها ، وما أكثر أنواعها، وما أكثر مصادرها، فإذا ما هجم جيش النمل، على المخ، وراح ينقل الخلايا إلى الأوكار، وفاضت الكأس، وضاعت رأس الحسين بن علي....

ميم...جيم...نون...واو.. واو...واو..

الأسلم أن تبقى المعادلة كما هي، التجزئة مع التجزئة، تساوي الهزيمة، والوحدة مع الوحدة، تساوي

التجزئة، وعليهم، المهتمين، بشؤون الرياضيات، والجبر بصفة خاصة، أن يعدلوا الباقي.

رجال الأدب والفن، والثقافة، والنظرية الجمالية، وما يلخص بالاستيتيقية، هم أيضًا، وهم هنا أيضًا، ينبغـي أن لا تتعدى، حدود بعضهم. أو أكثرهم، تعني وتستثني، تعني مثلا الأساتذة في الجامعات.. أهاه ! أولئك تـأهلوا بإجازة قيادة الطائرات، وهم في العرف الدولي، يمكنهم أن ينزلوا أو يطيروا، في السوربون، أو كامبريـدج، أو الإسكندرية أو- ويا حبذا ذلك – شبه الجزيرة والخليج عمومًا. لقد عدّلوا، وعادلوا، وهم فوق كل ذلك، يحسنون، بمعنى، يمكن أن يستعملوا عبارات إحدى اللغات العالمية، وعددها، ليس ستا، بالعد الخاطئ للأمم المتحدة، وإنما اثنتان لا غير، والترتيب في هذا المجال ليس أبدأ تفضيليًا، إنما حسب الأبجدية: انقليزية ، فرنسية. أنا في غنى، كل الغنى، عن ذكر أسماء، تبدأ بالألف أو بالفاء، أو بالدال، أو بالياء لا عل سـبيل المثـال، ولا علـى سـبيل الحصر.

الاستثناء يشمل، وهذا أمر لا بد منه، أولئك الأقزام الذين يشغلون المطابع، بهـرائهم ، ويضـيعون، وقـت المواطن العربي، الذي قد يكون، من وقت لآخر، ثمينًا، في حالة قلب المعادلة، والتفهم الواقعي، لجدليـة الـورم والاستئصال، ويضيعون، وهذا له أهمية خاصة، وقت الذين يحاولون، تأكيد بطلان مقولة، أن الكائن، معبر.

الحمار. الجمل. الصرصور. اللقلق. الكلب. الحصان.

جي.. جي.. ميمي.. دوري.. دوري.. ولقد داهم القطار النملة التي تحمل مخي في كفها، وتزغرد، حيث لم يبق من الجثة أمام الكلب الأجرب، إلا مخها، وكان...

دوري. لا عليك. أنا متماسك، مازلت أتحدى، وما يزال في جراب بني عمك، بعض الرماح. كـل كـائن، وبقطع النظر عن مستواه، بقطع النظر عن محيطه وبيئته، بقطع النظر، عن الظروف الخاصة، المتعلقة بتواجده، وعما إذا كان في ربعه، بترول أو ثورة ملكية، أو جمهورية امبرطورية ، معبر. وأن التعبير في هذا العصـر، وحسب آخر اصطلاحات الإقلاع والنزول العالمية، لا بد أن يكون أولا غير طبيعي، وثانيا غير إنساني، وخامسا غير اجتماعي، ورابعًا وهذا ليس محل نقاش، أصلاً، غير خاضع لمفاهيم الهيكلية الثقافية والقومية التي تحـدث عنها ستالين، بدقة، والتي ما يزال الغربيون يوظفونها، عندما يتعلق الأمـر بالتجزئـة وتفكيـك المجتمعـات، والشعوب، وما شابه ذلك من المصطلحات المحفوظة، في ثلاجة التحنيط، وتاسعًا، وهذا بكل تأكيد، من الإتيكات الأولية، الدارجة إنجليزيا وفرنسيا، والمؤهلة، بصفة التفتح، التي لا يمكن إلا أن تكتسب بكل مـا أضـفته مـن تأكيدات، على هذه الصفة إبداعات أو ترجمات أو إيماءات، اللغتان العالميتان، المرفوعتـان، حسـب متطلبـات العالمية والعجمى.

اللغة، هل وصلت إلى سابعًا أو ثامنًا؟ لا يهم.

ما قيمة، أن تقرأ في الهند، أو في الصين، أو في الاتحاد السوفياتي بطبعات ملايينية، إذا لم يرد اسمك فـي قائمة منشورات إحدى الدور الفرنسية أو الانقليزية ؟ معنى ذلك، أنك لست سوى، المشاغب، تعـاكس الاتجـاه

العام، وتتوجه، وهذا مرض ملفت للانتباه أيضًا. نحو المشاغبين المعادي، نحو المفهوم العالمي الجديـد للأخـذ بعين الاعتبار، بنظرية وجود عالم جائع، يستهلك من الأسلحة. أكثر مما يستهلك من البروتينات.

ج. ج. ج. ج. ج

التعبير، قضية، لم تعد خاضعة إلا لذات العصر، ذات القوانين المتبعة، فـي المطـارات العالميـة، أصـلا وفصلا.

الكناريات والبلابل، والشحارير، صارت الآن تخضع للتهجينات التي توصل إليها علماء وهـواة الطيـور. ومربوها في ألمانيا الغربية، ومن المستهجن جدا، أن تستمع في غابة ما، بكر، إن لم تكن أمريكية، لتغريدة طائر ما، ومن العار، كل العار أن لا يكون في إمكانك، تصور مسبق، لنشوء وتطور صـوت الطـائر، والعمليـات الاستهجانية، التي خضع لها، وسلالته من ناحية الأم. ومن ناحية الأب، والخال والعـم والأخـت، والحـذاء والصابون وو.. الهر فاينخ. الذي أجرى عملية جراحية للنملة التي أكلت المخ.. مج.. مج.. ججججج...دوري يا عزيزتي . دوري...آه.

يشمل الاستثناء أيضًا، كل من سبق وأعجب بالقزم، قبل أن ينال تأشيرة النقابة الملاحيـة الدوليـة، وهـو استثناء تاريخي، في هذا الإطار لأنه يتجاوز المناضلين الغرقى المتلهفين حقًا. لكل قشة نجاة، تصادفهم في عملية الغرق، ولأنه كذلك يتجاوز كل المفاهيم التي ما تزال، بأي شكل من الأشكال، لا تستوعب معنى الأوروكومينيزم ، وآخر نظريات مؤلف كتاب "البنيوية فلسفة موت الإنسان" وضرورات الوحدة الوطنية في لبنـان، والـبطلان المسلم به لمبادئ الواقعية الاشتراكية، وبعض التسميات للحركة الوطنية والسياسـية، مثـل الحـزب الشـيوعي السعودي أو في السعودية، أو تواجد شيوعيين فلسطينيين، خارج إحدى الجبهتين. أو حتى معارضـة شـيوعيين سجناء للنظام. في حين يزور فيدال كاسترو، بلد الرشيد.

الاستثناء يطول ويطول، وقد يكون في الأخير، من ضمن العمليات الحذلقية، لكن وبكل تأكيد، رجال الأدب، المبدعون أحدهم، بعضهم، يوجز المسألة في أن الأدب في هذا العصر. دخيل على العرب، وهو بالتالي تقليـد، الأصالة فيه تكمن في مدى مطابقة النسخة للأصل، ثم إن المسألة أولا وأخيرًا، ذات صـلة كبيـرة، بـالاقتراب والابتعاد، من قمة الدراما، تلك التي لم يلامسها أبدًا، صاحب زفرة، " أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلـى قوم سواكم لأميل" كما أن صاحب دمعة: "أيا جارتا إنّا مقيما ها هنا ما أقام عسيب" كان رومنسيًا جدًا، ولا يمكن أن يكون لامسها أو اقترب منها، إلا من عبر بحق، بجناحي إحدى اللغتين المعهودتين، أو تأثر بهما ويلعن فـي ذات الوقت، ايتماتوف وتشيخوف، وكل هاته الأسماء التي لا تتواجد إلا في السوق.. في عـدن، و.. بالترتيـب التفضيلي، في الأردن والأرض المحتلة والجزائر ودمشق وليبيا وبغداد ومدن الخليج والسعودية، أثناء المعارض التجارية للكتاب العربي، أتحدى، كل واحد، إن كان هناك من اقترب من جبال الهملايا، لا ليصعدها، ولكن على الأقل، ليتأملها، من جنس العاربة، والمستعربة.

يلعن.. ميم.. جيم.. ميم.. نون. دوري.. دوري الخيط ضاع. رأس الخيط ضاع. فات . أين كنت؟ دوري.

اللعنة على الخيط، وعلى رأسه...آهاه، وعلى كل من خاط سروالاً لعربي، أو حجابًا لعربية.

المواطن العادي، العنصر غير الفعال، في الحساب، والقيمة المتدنية في العملية التقييمية، اللاز، ولد العاهر مريانة، الفلس المفلس، في عملية قياصرة الروم، الذرة الأولى، والقطرة الأصل، هي في نظره.. هم هآههه.هه. كائنة.

هو كائن بقطع النظر، عن لونه، وعن دينه، ومهما كان القمقم، الذي خبأه فيه، سيدنا سليمان، كلا. سـيدنا، هذه نشاز، ولتحذف، إذن.

حتى وإن صاح الديك دون موعد، أو ولدت النملة فأرًا، مج.. واو.. نون..

هم، بالتالي، ذرة، مجموعة منهم، لا أول ولا آخر لها.

تبدأ في فترة، غير محددة، تاريخيًا، بصفة كلية شاملة، تشبه صفة امتلاء البحر، أو انطلاق ضوء الشـمس، أو انبعاث النبات في حقل من الحقول.

ومهما كانت نيتك حسنة.

ميم...جيم...المهرة تركب فوق دمية القط الأسود، وعينا الغراب الأحمر. مشحونتان بالشر والخبث، والنملة وقفت في طريقه.

لا. لا. لا تتوقفي. دوري. دوري. فإني أعرف ما أقول.

ومهما كان مظهرك، معبرًا، أو تقمصك، لدور المضطهد متقنًا، فإن قناعتك، وقناعته، بأنك جزء، لا يتجزأ من هُم، يظل راسخًا، غير قابل، للتزحزح، أو حتى للنقاش.

هُم الأصل.

أنت واحد من الـ"هم".

وأنا ؟!

هذا الأجنبي تمامًا، عن هُم، لا هم لي غير أن أنأى بشكل نهائي عنهم.

هم أيضًا لا بداية، ولا نهاية لهم، وهم في أول وآخر الأمر، عملية تشكيلية، كلية، في الأصـل، تعنـي، أن الاهتمام بالموجود، أفضل من الاهتمام، بالجزء الأول الموجود منه.

لم يصعد، أو حتى يحاول، واحد منهم، إلى قمم الهملايا.. وإذا ما سكن أحد؟

نون...واو.. جيم.. جيم.. دوري .لا عليك. قل أعوذ برب الفلق.

المعزي. العزاء بالتعبير الألطف. أن علماء النفس على عكس الجميع، بما في ذلك، رجـال التكنولوجيـة، وفرسان خيول السباق، يعرفون أن أصل الحركة، واحد. يعرفون ذلك، قطعًا، بصـفة غيـر أحاديـة، وعامـة وشمولية.

يمكنهم، وفي الحقيقة، لا يمكنهم، إطلاقا، ومهما كانت الأعذار، أن يستندوا، إلا على القطرة الأصل، والذرة الأساس، والمصب الجوهر، و الرشفة المسكرة، والبسمة الميتة.

دوري، وإلا قذفت بك في حوض الحمام.

من قال أنني كذلك؟

المصدق أيضا للحقائق العلمية، الأولية، في أن الكون الفضائي، الرحب، يتكون من مجموعـات شمسـية، تتركب عمومًا من الهيدروجيات ومن الغازات ، -إذا ثبت ذلك- تعرض ومنذ ملايين السنين، لتفاعلات، تنتهـي إلى انفجارات ، ثم تجزؤات، ثم تشكلات أخرى، وأن أقصى معلوماتنا، أن الحياة، لم تثبت بعد، في غير كوكـب الأرض، هذا الذي ندوس عليه، صباح مساء، وأن الضوء -كثيرًا من الضوء الذي نراه في الليل، حـدث منـذ ملايين السنين، وانطفأ، وكابد وكابد كي يمكننا من رؤيته.

وليكن في الأمر مليون جيم.

لا يهمك. دوري.

طبعًا الحياة، كما نعرف، وعلى ما نعرف، والنسبية معقولة جدًا جدًا، في هذا المضمار، كما هـو معقـول المستوى المعرفي للبشرية، الذي فيما عدا الشؤون السياسية - شؤون النفط، والمواد الخـام، وتفضـيل عـرق سامي، على عرق سامي آخر في قضية الشرق الأوسط، وتحديد الموقـف الصـحيح مـن الولايـات المتحـدة الأمريكية، أهو موقف عرقي، من أجداد أوروبيين، كانت لهم الشجاعة الكافية، في زمـن الخمـول، أن يخلقـوا أوربا خيالية، مبنية على الدم والذهب، معمدة بدم الذبيح، وخنجر الذباح، في نفس الوقت، أم هو موقف مبـدئي، تجاه قوة إمبريالية، تستعمل اللغة الإنقليزية ، والدولار، والصواريخ ذات الرؤوس النووية، وأفـلام الواسـترن، والشوينغوم، والجين، والويسكي، ومرض السيدا.

الدخان النافث من القاطرة، وتصميم النملة، وهروب المخ، وتعاطف الريح مع النار المتأججة فـي القلـب، وتعنت الجان.

لا.

مع ذلك ففي الجراب رماح. وكل غريب للغريب نسيب.

تفوه. تفوه.

لا يكون المستوى المعرفي للبشرية، أحادي النظرة إلى الحد المزعج، فالأفلام الخيالية مسموح بها، وبعض المخابر السرية الخاصة بالبحث، عن الذات الكهربية للكون، تنشأ هنا وهنالك. كما وأن عمليـة التسـمع، لأيـة حركة أو صوت أو ذبذبة، أو نبض منتظم، آت من الخارج، متواصلة، والأمل باختصار، غير معدوم، في شكل حياتي ما في كوكب ما، في نظام شمسي ما.

وافتراض الموت. الموت الموت. فيما عدا هذه العمـارة الصـغيرة التـي نحـن بهـا، الأرض. حبيبتـي

ومعشوقتي. أختي وأمي. ابنتي الأرض. مزيلتي الأمينة، لا يؤدي إلا، إلى اليأس الجنوني.

رغم التحايل الطويل، هاهي الميم والجيم والنون والواو، تتشكل، وتفرض الموضوع من جديد.

لابد لمجنون.لا بد ماذا؟

ولابد له. هكذا. لي.

وإنني لأقف على قدمي، وبين يدي آلة تسجيل، أنا أشغلتها، وأنا أديرها، وأنا آمرها وأتصرف فيها، وأعيـد الاستماع إلى ما فيها، من حين لآخر، ومستعد في أية لحظة لقذفها على الحائط، أو للتغوط فوقها.

ميم...ميم..جي..جيم.

بالعبارة التعميمية الضاربة أطنابها في أعماق وجدان الشعب والمشكلة، لأحد عناصر كينونته، هذا الذي يجد بين لحظة وأخرى، فرصة تقرير، أن الجنون مسألة نسبية، تقرير من الداخل ذي صلات موضوعية بالعمليـة، ويعرف النسبة في العرف والأخلاق والمثل والقيم، كما يعرف، السوي من غير السـوي، والطبيعـي والشـاذ، المؤمن بأن سقوط نجم ما، أو جزء منه، لا يعني سوى رجم شيطان متسمع في مكان ما، إلى كلام، لا ينبغي له التطفل عليه. وقد كان للنملة رأس فيه تسعة وتسعون عينًا، وفم واحدة، وألف ذراع، ومليون أذن.. أما المخ الذي كانت تمتصه، فلا يزن سوى عدة غرامات، رغم أنه من فولاذ.

ميم..ميم..مج..مج...

انقطع خيط تفكري. تحايلت على قطعة. هل تقطع، قبل الآن. ليكن. فلا بد من العودة إلى الجنون.

الكثيرون في حالة الضيق واليأس، من حل المسألة الاقتصادية - الاجتماعية، وعدم التلاؤم مـع المحـيط، والجازمون، بالثواب والجزاء، والحياة الأخرى، وبانتصاب ملكي الحسنات والسيئات، واحد عن اليمـين، وثـان عن الشمال، يجدون في حياة الطفل، وفي حياة الكائن الأبكم، بصفة عامة، وفي وضـعية المجـانين، الطريـق الميسر، نحو جنة الخلد، ورضوان الله.

لكن، "*لا من عاد من القبر، وجاب الخبر*". لا مجنونا، قال الحقيقة عن نفسه.

أهو مجنون طوال الوقت. الأربع والعشرين في الأربع والعشرين، أم هو مجنون سـاعات معـدودات فـي اليوم، ومورط في الجنون، باقي الوقت. يعيش، دائرة في الظلمة، دائرة في الضوء، دائرة في الصح ، دائرة في الكذب، دائرة في الملح، دائرة في الماء، دائرة في الوعي بالقيم والمثل والأخلاق، ودائرة في التحال النهائي مـن كل قيمة مكتسبة، أو واردة، من خارج الجهاز العصبي، المعمل الضخم، للحقائق والصور والخيالات والأوهـام، وكل ما يحقق الذات، تجاه النور والظلمة، والجوع والعطش والخوف والجنس والجاذبية.

قاهقاه. قفا. قاقاه.

برجوازيتنا الوطنية، الثورية الاشتراكية الدليل القائد، سليلة جيش وجبهة التحرير الوطني.

خسئتم. خسئتم. تستعملون في حقي عبارة مجنون. أيها المجانين. يا من تخافون من النملة، وأنتم تعرفون أن

المخ من فولاذ، لا يمكن أبدًا أن يأكله أحد... ثم لماذا تنسون القطار الذي لابد وأن يفاجئ النملـة فـي الوقـت المناسب؟

استمري أيتها المجنونة في شغلك.

إنه لتنازل كبير أن تستعمل معايير غيرك، في الحكم على حالة من الحالات، التي وجدت نفسك، بصفة من الصفات، تعيشها، بملء اختيارك.

توقف...

عبارة الاختيار ، يبدو أنها غير ملائمة ، وقد تعوضها الجوارح، كما قد تعوضها ، كلمة الفهم ، أو التذوق ، أو الرضا ، أو على الأقل، الحماسة. ولم لا ، النملة أو القطار؟

كلمة التنازل بدورها ، عندما يتعلق الأمر بالعشق ، بتوحد ذات في ذات آخر ، لا يمكن أن تلغى أو تموطأ ، أو تتجسد ، حتى وإن مزقتها إربا إربا. قليلة ، بدورها ، عبارة التنازل. تصبح قليلة ، إلا إذ كانت تعني الخيانة.

لتكن الخيانة الكلمة المناسبة.

مسألتي أنني عاشق. مسألتي أنني عاشق ، حتى الجنون. نو نو. جنون. عاشق. عاشق. هذه مسـألتي. ولا نملة ، ولا قطار ، وليؤكل المخ الفولاذي ، ولينفث القطار الدخان ، فعمّا قريب ، لن يكون هنالـك قطـار ، أو حاجة إلى قطار. سيسافر العاشق على ظهر العشق، ولن يحتاج إلى وصول.

مجنون. مجنون.

ليرجع الجيم والميم والنون. لتعد ، كل الحروف المخفية. فمما لا شك فيه أن حالة الجنـون ، هـي الحالـة الأقرب إلى التصور ، إلى الفهم ، وإلى الأذهان في جميع المستويات ، وهي لعلها ، الحالة الطريفة ، المنسجمة مع الذوق العام.

م..ج..ن..و..ن. اتفقوا كلهم ، على أنها الكلمة الصالحة لي ، في حالتي. استعملوها بتواتر صارم. ليكن.

ليكن.

رأوني في حالة العشق ، فاستعملوها ، كل من شاهدني ، بعضهم ، استعملها بلا مبـالاة ، لمجـرد تحديـد العطب الذي أصاب الآلة التي هي أنا ، البعض ، لأنها الكلمة الأقرب في معارف ذاكرته القاموسـية ، الـبعض للتدليل على تضلعه في علم تناسق السلوك البشري ، الأطفال ، برروا بها غزواتهم ، ضدي ، ليـدموا جسـدي بالحجارة ، وبالأغصان الرطبة والجافة ، وبالمهاميز من كل نوع ، مستغلين صبري الصـموت ، أو انشـغالي الروحي ، بمن أهوى ، أو رضاي ، التام ، أو بعبارة أدق ، غيابي عنهم. أما أنا ، فأنني استعملها ، على سـبيل المجاز لا غير ، لأنني حتى في حالة اقتناعي، بصحة العبارة ، لا أتصور الجنون ، نصف الجنون ، أو الجنون ربع الجنون ، أو الجنون ، بعض الجنون ، وإلا ما معنى أن أعود في الليل ، إذا ما عدت ، فقد يحدث كثيـرا ، أن أبيت عنده ، هنالك فأناقش حالتي ، جزئية فجزئية ، وحركة فحركة أسجلها ، وأعيد التسمع إليها ، وأعيـد ،

باحثا ، يا لهول ما أقوم به ، عن الأصل الأول لها. القطرة التي أوجدت البحر ، والذرة التي أوجدت الصحراء ، وحبة الملح التي غيرت الطعم والمذاق.

آه آه. تفكيري منطقي ، عقلاني ، متسلسل ، ومتماسك. يفوق تفكير أعقل عاقل عروبي ، وحتـى إذا مـا تسببت النملة في انقلاب القطار ، *وقالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم. لا يحطمنكم سـليمان وجنـوده وهـم لا يشعرون*.. ويشعرون.

الحظ. أنني مازلت وطنيا وعروبيا. وأسجل أنها ، عروبيا ، لم ترد جزافا ولا اعتباطا. بل أتى بها الوعي. في أقصى درجات تيقظه وخبثه ، مقابل *قوميا*.

ألا يكفي كل هذا للتدليل على أنني لسته.. المج.. على الأقل ، لسته ، كله ، كل ما هنالـك ، أنهـم ، هُـم. قالوها ، دون أن يدروا ، بما يكابد العاشق.

لتتكرر ، فأتأكد منها: عاشق. عاشق. عاشق إلى يوم الدين والقيامة ، عاشق ، حتى وإن مرت فترات صحو مثل هذه ، أراجع فيها ، محتويات جيوب الروح.

في النهار وهي ساطعة ، تزهر الدنيا ، وعلى مرأى العباد وربهم ، تتأجج النار ، لتعود إلى الخمـود فـي الليل ، في بعض الليالي، في بعض اللحظات من بعض الليالي.

أصرح جازما ، بأن العروبية ، هي الحد الأقصى الممكن ، والمطلوب ، وأن القومية ومترادفاتها ، استلاب من نوع خاص. يؤجل كل أشكال الالتزام إلى يوم العثور على النقطة والذرة والقبيلة والفخذ والإمارة والمملكـة الجمهورية الأصل ، إلى صدرها ، وإلى حلمة ثديها.

الحظ ، أيضا ، أنني أممي في كل ما سلف من تفكيري لم يأت ذلك نصا ، ولكن هنالك من التلميحات ، مـا يكفي.

مازلت مثقفا ، أهتم بشؤون الإبداع ، والعطاء ، وألمس الخلل في منهج نقابة الملاحية البئيس ، تحضـرني فوق كل ذلك أسماء وأسماء.

أنا ، ما زلت أنا ، الصلب المتماسك. وليلعقوها حروفهم المثيرة.

ميم. جيم. نون. واو.

إذا كان يتعذر علي التفكير في النهار ، فلن أتوانى عن ذلك ، في الليل. وابتداء من الليلة ، والليالي القادمة ، سأفكر.

رغما عنهم ، سأفكر ، سأقول لها ، كل ما يبدر بذهني لن أخشى أحدا ، لن يكون هناك أحد. يلغيهم العشـق في النهار ، وتلغينهم أنت في الليل.

أطرح تفاصيل هذا الشخص الذي هو أنا ، المتهم بالجنون..نون..جون..نوو.. وإذا ما الديك سـال دمـه ، ولعقه القط الأسود ، وظل المخ الفولاذي ، يصارع النملة ، واضطراب الجان في موقفه ، فما يهـم إن انقلـب

القطار أو خرج عن القضيبين الأمردين، وإذا ما أكل الصرصور البني ، ذو العينين النوويتين ، آلة التسجيل هذه ، ابنة عمي ، ألم يقل العرب « *ملس من طينك إذا ما جاء برمه يجي كسكاس*» ثم إن النملة تكبر وتكبر ، بقـدر ما تكبر يتبدى القطار أصغر ، عندما يدهمها ، يمر بين رجليها ، وتظل هي تلوك المخ الفولاذي وتقهقه ، يظـن القطار أن قضيبيه اللئيمين لن ينتهيا ، ناسيا أنهما ، ليسا سوى ساقي النملة ، وأنها حين تلتفـت إلـى الخلـف ، يكشط لسانها الجزء الأكبر من المخ ، وأناقشها كل التفاصيل ، بقطع النظر ، عن القطرة الأولـى ، أناقشـها ، واحدة ، فواحدة ، بكل ما تقت إليه من صراحة في حياتي ، بكل ما حرمت منه من شجاعة وجرأة. أقول للصح ، أنت الصح ، وللخطأ أنت الخطأ ، للملح أنت الملح ، وللماء أنت الماء.

التفكير غير الحلم ، غير الخيال المتقن ، الذي ألجأ إليه عادة ، كل ليلة ، لأنيم به نفسي ، بـدل الإذاعـة الليبية، حين أعجز عن مد يدي للمذياع ، فأشعله ، وبدل المخدرات ، وحبوب التنويم التي أكرهها ، أنا لا أبـذل جهدا بدنيا ، أي جهد بدني إطلاقا ، وعندما أجد نفسي في الفراش تكون عضلاتي على نفس التوتر الذي اعتراها في الصباح ، وتأبى أعصابي الإفلات مني ، لإعادة عملية التـوازن.. إصـبعي هنـا ، يلعـب لعبـة معـاداة البرجوازية. هذا جيد. اللاوعي لم يستطع أن يفلت من الوعي ، اللص ، مسكت به في حالة تلبس صريحة.

ربما يتوجب علي أن أكون أكثر تواضعا ، فأكتفي بـدل اسـتعمال عبـارة التفكيـر ، بـالقول ، بعمليـة الاستعراض المنسق لحالتي ، حالتي المسكينة ، في نظرهم ، حالتي العزيزة.. رغم أني أعجـز ، عـن تـذكر التفاصيل كلها. خاصة ، تلك النهارية.

في النهار أنا لا أعرف كيف أفكر. إنني أعيش لا غير ، كل جوارحي ، كل خلايا جسدي وروحـي ، كـل ذرات دمي تعيش.

جيي.. جيم نون. لا. كلا. أعيشها ، الجيمات والنونات بكل جيماتها ونونيتها بكل تلك الرخاوة المشحونة في الجيم ، وبكل ذلكم التوالد ، المختزن في النون.

قد يأتي اليوم الذي أسجل فيه ، كل هذا ، في مذكرات مكتوبة أو في روايات ، أو مسرحيات ، أو في شـبه شهادات أدبية عن عصر العبقرية ، ليس هذا وعدا ، فقد ينقطع العشق فجأة ، وقد يتواصل بالليل أيضـا ، مـن يدري؟ لكن هذا أمل ، وقد تساعدني " فجرية" على تحقيقه.

التفكير بالصوت العالي! قد يكون رائقا ، أفتح قوسا لأسفههم ، مرة أخرى ، أثبت خطأ لغويـا شـاع فـي العربية ، بسبب استناد ملاحيها ، إلى اللغتين العالميتين في كل شيء.

التفكير بالصوت العالي ، أو الصوت المرتفع ، الحظ أنني شخصيا ، استعملت التفكير بالصوت دون نعـت آخر.

ويحهم . التفكير في الأساس ليس سوى فيض داخلي للمخ ، قد يتحول إلى حروف وكلمات في حالة الكتابة ، وقد يتحول إلى أصوات في حالة الكلام ، لكن عندها يتحول إلى هذيان ، جنوني ، ج . ج . جن . ووون ييي.

المجانين ، الكلاب. كأنما أنا الذي يمتلك الإذاعات والتلفازات ، وحق تنظيم المهرجانات ، وبيـع وشـراء حليب النمل والقطط السوداء، والديكة ، ولو لم يكن النسق العام لجلستي هذه يستوجب استعمال عبارة التفكير ، لما لجأت إلى ذلك ، ففي قناعتي أن التفكير لا يكون بالصوت إطلاقا ، لا العالي أو المرتفع ، قد يجوز أن يكون بالكلام ، وبقطع النظر عما يجب أن يسمى به حينذاك ، وأن الأوروبيين الذين ترجمنا عنهم المعنى ، كانوا ومـا زالوا يقصدون بذلك ، الاحتجاج تدليل آخر على أن ذاكرتي قوية ، وعلى أنني أحسن لغة أخرى غير العربيـة ، وقد أمتحن في الليالي القادمة ، يونانيتي ، بإعادة قراءة اسخيلوس: بروميثيوس في الأغلال. بروميثيوس طليقا ، سأعيد قراءتها ، ألا يكفي هذا دليلا على أنني ، أبعد ما أكون عن الج. ن. ووو..

ليذهبوا إلى الجحيم ، هم ووقارهم المصطنع ، وبذلاتهم المكوية وربطات أعنـاقهم ذات العقـد الصـغيرة وأحذيتهم اللماعة ، وبسماتهم الملفوفة في السيلوفان ، وأرواح جداتهم الشريرة التي تسكن جزر الواق واق مـع الديك الأحمر والقط الأسود حالبات القمر في القصاع.

لا. دوري.. لا تتوقفي. الكلام الكلام. التفكير بالكلام بالصوت. أين كنت ، آه. إلى الـ وراء قلـيلا. قلـيلا. أيضا.

آها ! عنده بروميثيوس . هذا الإنسان الإله ، أو هذا الإله الإنسان ، لا شك أنه بدوره كان عاشقا ، وإلا لما فعلوا به ، ما فعلوا، لا شك أنه ليس سوى أنا ، كيف لا يكون ذلك ، وكبده ينهش في النهار ، ويعاد إليه في الليل ، حينما كنت في وضع الطفل ، يرحمك الله يا زمن نهش الأكباد المتخاف ، أمام زمن نهش الأمخاخ، ما كنـت أيام بروميثيوس أسمح للنملة العاهرة ، أن تسرقه مني ، وتتمدد بين القضيبين الأمردين ، تتحـدى القطـار ذي العينين المسحورتين.

دوري. دوري. نعم. لم اللف والدوران ، فأنا لم أؤمن ، قط ، بوجود بروميثيوس ، ولا وجود زيوس ، ولا بمزمار الشمع الذي أنامت أنغامه «آرغيس» وأغلقت عينيه المائتين ، ولا بالابن حامـل الاسـم البريـري «أب أفوس». هذا تدليل آخر ، على أن لغاتي ، وبالتالي ، ثقافتي متنوعة ، وهي راسخة في ذهنـي لا تغيـب عـن ذاكرتي ، حتى في أحرج اللحظات. وأقسم بما هو غالٍ عندي. بمعشوقي ، أنني لست أتبجح ، مثل تورغينيف ، بمعارفي. إنما مجرد تدليل ، كما قلت على تفاهتهم ، وعلى أنني لست.. ويجيء القطار في سرعة البرق ، لكـن النملة الوقحة تظل تتحدى ، وتركب جدة أحدهم أثافي من شمع ، فتثب إلى القمر ، تخطف حفنـة مـن ترابـه، وتذروها في عينيه ، فلا يدري أهو منهوش الكبد ، أم هو منهوش المخ؟

ويجن جنونه. قاه. قهقه.

تجري البقرة ، وتجري ، تقطع البحار والوهاد والشعاب ، تبلغ مصر. يكون قد مرر يده علـى ظهرهـا ، فحبلت منه ، وعندها ، عند النيل ، تلده ، فيسقط معاوية ، مؤسسة الدولة الفاضلة على يد يزيد ، فيختطف سلمى من بركة الماء ، ويفوز الجسور باللذة.

عندما يقتل أب أفوس أباه ، يتحرر بروميثيوس الإله - الإنسان، والإنسان - الإله. ويبقى وجـه ربـك ذو الجلال والإكرام ، ويمر القطار ، ولا يذكر الناس من الآلام ، سوى آلام بروميثيوس ، وينسـون آلام البقـرة "فيرة" المسكينة ، وآرغيس؟ ألم يكن بدوره مسكينا ، أليس حمل مائتي عين أهون من حمل مخ فـولاذي ، بـين أسنان نملة لئيمة. كانت جدة أحدهم ، ما أرجلها سوى أثافي تطوف بها المجرات؟

من يدري؟ فمن الجائز جدا ، أن يكون تاريخ البشرية ، قد عرف أو شهد بالتدقيق ، وجودهم جميعا ، فيرا ، وزيوس ، وبروميثيوس ، وأب أفوس ، لكنه أسخيلوس ، في العملية، عملية تسجيل اذاكرة البشـرية ، تصـرف كثيرا.. لخص من جهة ، وأطنب من جهة ثانية ، فوق الحد المطلوب. استعملت المطلوب ، بـدل المسـموح ، ربما ، هذا فاصل وهمي ، فقط ، بين القمع والرقابة الذاتية ، لا غير.

ويليام جيمس ، الفيلسوف الذرائعي ، يا لها من ذاكرة قوية ، لم.. ج.. لا. لا. واصلي الدوران ، لا يهم. لن أقع. لن يغمى علي ، الآن. على الأقل ، جيمس ، كنت أقول ، أثّر فيّ ، بمقولتـه المعترفـة بـأن للخرافـات والأساطير ، والميثيولوجيات ، أصلا واقعيا ما ، علينا أن نبحث عن جذوره ، أو على الأقل أن لا نستهين به ، وأن نرتبه في ركن ما ، من الذاكرة ، حتى يأتي العلم ، فيكشف عن مكنوناته وخفاياه.

ربما ، هذا ما جعلني أذكر قبل الآن. الذات الكهربية للكون. هل فعلت ذلك حقا؟

سأتأكد في التسمع التالي، الليلة ، إن ظللت واعيا.. فمسألة الجن والشياطين والأرواح التي تسكن الكهـوف والمغاوير والقبور ، ومقولات ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، بالتأكيد ، لم ترد ، هكذا ، جزافا ، ولمجرد سعة الخيال البشري. حتى عملية التناسخ هذه ، التي تقول بها الهندوكية ، وكل الفلسفات والديانات ، بشـكل أو بآخر ، لا شك أنها تدخل فيما أسميه ، بالذات الكهربية للكون. ولقد شاهد علماء الحاسة السادسة ، هالـة مـا ، نورانية ، تغادر الموتى بعد دقائق من موتهم. ست دقائق على ما أذكر.

لماذا لا تكون هذه الهالة ، هي الروح؟ ولماذا لا تكون الروح ، هي الذات الكهربية ، للكون.

هذه الهالة لا تستطيع أن تتحلل ، أو أن تتلاشى وتتبعثر. حتى هذا التلاشي والتحلل والتبعثر ، لا يدل أبدا ، على استحالة عملية التشكل ، أو التهيكل الجزئي ، لكل خاصية من خاصيات الهالة ، في كائنات أخرى ، حتـى نباتية ، تعيد اتصالها بالإنسان ، عند الاستهلاك، أو تسكن النور الشمسي ، وتعود إلى مسام الجسم ، فـي حالـة كلوروفيلات وفوسفورات ، وما إلى ذلك.. حتى إذا ما حاولت الإفلات من الفضاء الجوي للأرض ، وقد يفلـت بعضها ، فإنها لا محالة باقية في محيطنا ، تهجر الكائنات. وتسكن الكائنات، والعملية في جوهرها ، كليـة ، لا ذرة أو قطرة أولى ، ولا جديد تحت الشمس.. ثم من قال إن عيني القططة ، خاصة السـوداء ، ليسـت سـوى مكثفات للأرواح ، أو منارات تهتدي بها الهالات في الليل ، ولعلها محطات سفر أرضية للجن.. جج.. الـنـ.. وون. خلية في مخ ، توصل لاسلكيا ، بخلايا هالات ، في رأس ديك أحمر ، عبر أمواج ، متمركزة بـين فكـي النملة..؟

آه. آه. وصل.. اقطع. اقطع. آه. آه.

دو.. دو.. دوري.. ها أنني عدت.

البحث جار ، متواصل ، وإنني لطليعي. وأجيء إلى المسألة من باب العلم ، وليس من باب الميتافيزيقيـا ، والخرافة. هو كذلك. هو كذلك ، ولا شك أبدا في مسألة التناسخ ، والذات الكهربية للكون ، والقضـية ، قضـية آلات قياس ، وقضية وقت ، ليس غير.

يا لها من عملية مخادعة ، جندت لها، كل مخزوناتي ، قبل أن أصل إلى الحادثة المعينة ، والـواردة قبـل لحظات طويلة ، في خاطري ، كأنني أبحث لها عن تبرير ، أو أمهد لتبرير معقول.

عملية إحاطة استراتيجية مدبرة ، لا يمكن أن تصدر عن غير عاقل. أهاه. وجدتها نقيضه. العاقل. لكـن ، كما أن هناك ، نصفه ، وبعضه ، وهذا أمر أعرفه جيد المعرفة. لا بد أن هناك عاقلا كـاملا، وهنـاك نصـف العاقل ، وبعض العاقل.

يا لها من حدود ومسافات ومساحات في جغرافية الأخلاق ، مع أن العقل لا يعني أبدا التوازن. لأن هنـاك فرقا كبيرا بين الامتثال والافتعال.

ما زالت أحوط.

سخريتي مثارة فعلا ، الآن. لا شك أن بسمة ساخرة ، ترتسم اللحظة على شفتي، بل إنها بالفعـل لكـذلك.. حالة هدوء واستقرار ، ووعي ، أنا في مسيس الحاجة إلى تأملها ، وهي بكل تأكيد ، ثمرة جهدي الفكري الواعي ، منذ جلست. النور مسلط على كل حركات اللاص المتلبس ، وليس في وسعه ، سوى توريط نفسه.

أي نعم.

المسألة المتخوف منها ، والمرغوب عنها ، أن حروف الجيم ، والنونات ، وردت أيضا عل لسان الـوزير. وزيري أنا. الوزير على المديرية التي أرأسها ، والتي لا وجود لها في هيكلية الوزارة. ولا شخصية مالية لهـا. لكن مع ذلك هي مديرية.. لم يأت ذلك جزافا أو صدفة ، أو عرضا ، بل ، لقد جاء نتيجة إيمان راسخ، فيّ. بأن بروميثيوس، ليس سوى أنا ، عبر الزمن المطلق ، وكان ذلك الشيء الذي لا بد منه.

مجنون. مجنون. مجنون. م. مجن.. م. ج. نووو.. ن.

وانزلق القطار ، وخرج عن القضيبين الأمردين ، فابتلعته ضفدعة في بركة مجاورة ، مرسوم على رأسـها حرف لام ألف ، فتحول إلى غاز لا لون له ، تسري فيه تيارات كهربية فاترة النشاط. لكن فـي الـواق واق ، استولت اللعينة جدته على الوضع ، وأجبرته على الزواج منها ، فلم يكن هنالك في الواقع أي فرق بـين النمـلـة والقطار والمخ والأثافي ، ولا بيني وبين بروميثيوس.

مجنون.

قالها ، سعادة الوزير.

لم أفكر ، لا بالصوت ، ولا بالكلمات ، لأجعله يتفهم الوضع. لم تكن الحالة يوم ذاك ، تتصـل أو تـرتبط بالعشق.

آه. عليّ أن أدخل الفراش ، وأن أبدأ في التفكير المتخيل ، فالواقعة ، هنا ، إنما كانت فـي النهـار ، وأنـا التزمت ، ألتزم ، بأن لا أتعرض إطلاقا ، في محاولاتي التفكيرية - إذا سمحت اللغة العربية بذلك- في النهار.

ليلزم ، كل ، حده. ولتكن الحدود بين الإهانة والاحترام واضحة ، على الأقل في هذا البيت. والموعد الليلة القادمة. وكل الليالي القادمة.. الليالي طويلة ، طويلة والمجال فسيح ، ويكفيني الآن جزاء ، قهقهة عالية ، حادة ، طويلة.. من الحادثة مع الوزير ، عندما فوجئ ببروميثيوس ينتصب أمامه ، واثقا ، مكابرا.

طرراق.

إلى الغد يا مسجلتي العزيزة ، يا ذاكرتي العجيبة ، علي الآن أن أنام ، أؤهل نفسي ، ليوم عشـق قـادم ، عنيف صاخب.

حبيبي ، ينتصب هناك ، يوهم الغفل ، بأنه مجرد ظاهر يسهم في التوازن.

باطنه لي ، وباطني له ، والذات الكهربية تسكننا ، والعشق يتواصل.

ميم. . جيم.. واو.. نن.

على أية حال أنا أسعد من الديك ، وأقوى من القط ، وأعظم من النملة.

الأغلال توجع بروميثوس

حادثة بروميثيوس مع الوزير ، تعود إلى أسباب شتى ، تفرعت كلها على ما يبدو ، من سبب رئيس ، هـو ضرورة أن يُخرج المرء ذات يوم ، ذات مرة ، في حياته ، لسانه للعالم كله ، مجسدا في شخص أو هيـأة ، أو جماعة ، قائلا والزبد يتطاير من فمه:

- في هذا القدر كفاية. في هذا القدر من الامتثالية المغتصبة والجدية الكاذبة والوقار المصطنع كفاية.

لم يستعمل معاليه ، سوى عبارة واحدة. " هاه يمكنك ، الحضور حالا".

استبعد صباح الخير ، والسلام عليكم ، والسؤال الحالي ، حتى النبرة العالمية التـي تبعـث الحيـاة ، فـي

الأسلاك الميتة " آلو" ألغاها.

لم يسأل مع من يتحدث ، من هو الطرف الذي تفتحت كل مسام روحه ، وهو يرفع السماعة ، في الطـرف الأخر من الخط الهاتفي ، ليتلقى أنباء وأخباراً وحالات ، الله وحده أدرى بكنهها ، وبدرجة وطبيعة تأثيرها على الإنسان ، أهو حضرة المستشار ، المكلف بالتنشيط الثقافي؟ أهي كاتبته؟ أهو أحد أعوانه ، أهو احـد العـابرين تفضل برفع السماعة ، أثناء تواجد حضرة المستشار ، بالكنيف يقضي حاجته.

لم يتح الفرصة لنفسه ، ليسمع صوت محدثه!

يقينا أنه درس الخطة ، طوال الليلة الماضية ، لعله بذل جهدا أكثر من ذلك ، فعـاد إلـى مراجعـة أميـر "ميكيافيلي" أو سيرة هتلر، بل ربما لم يفعل سوى أن أعاد تمثيل دور ، يمثل عليه. من حين لآخر.

خطة جهنمية فعلا ، لا يمكن أبدا ، أن تكون عفوية أو غريزية، حتى لو وضـعها هتلـر نفسـه: ضـاربة خارقة. ماحقة ، ذات آثار آنية وموقوتة ، بل ، مزمنة ، تفتح ثلما ، في حصن الروح ، لن تتماسك بعده شخصية المرء.

" هاه. يمكنك الحضور حالا" جملة مفيدة جدا مع قصرها. في الوقت الذي تضع حدا لعلاقة عريقة ، تعـود إلى سني الكفاح الوطني، حيث كان معاليه ، ممثلا عاديا ، في الفرقة التي يرأسها ويقودها ، حضرة المستشـار تجوب العالم لتقدم صورا عن بطولات الشعب الجزائري ، وعن عاداته وفنونه ، وألبسته المميزة كلها للشخصية الوطنية ، عن الشخصية الاستعمارية.

معاليه ، يومها ، كان أكثر من صديق ، كان ابنا روحيا ، يتلقن الوطنية ، وفن الإلقاء والملامـح. والتمثـل الكامل للدور ، وتقمص الشخصية ، والتلقائية في الأداء.

اختارها ، جملة ، تشعرك بأن على حدبتك ، سرجا أو بردعة ، وبأنك مروض ، تجد لـذة فـي أن يكـون صاحبك أو بالأحرى فارسك على ظهرك ، ينكزك بين حين وآخر ، أو يداعبك بكلمات ناهرة ، في الحين الـذي تقوم سدود بل جبال من العداوة ، والوحشة ، بينك وبينه ، توحي إليك بقليل من الألفة العائلية.

العائلية ، بمعنى الزوجية.

جملة ، أقرب ما تكون إلى غزل محتشم بين زوج وزوجة ، بينهما ذرية صالحة ، وماض أجوف.

" هاه. بإمكانك الحضور حالا".

تقمص تماما. تماما ، معاليه دور المسئول الأعلى عضو القيادة الثورية تجاه حضرة المستشـار ، صـديقه القديم ، ومرؤوسه الحالي ، واستطاع بهذه الأشعة الثورية المباركة ، أن يلخص التقرير الذي رفعه الكاتب العام بتدخل من مدير الإدارة الآمر بالصرف.

هذا التقرير الذي بلغت حضرة المستشار فحواه ، قبل يومين ، من طرف عناصـر ، مهتمـة ، بمجريـات الأمور الداخلية ، دؤوبة في إبداء استعدادها لكسب أصدقاء جدد ، بالتعبير الإنساني ، وأنصار جـدد ، بـالتعبير

السياسي- النقابي ، أو النقابي- السياسي.

ومن يدري ، فلله باستمرار ، جنود من العسل ، فلعل أحدهم ، ولن يكون سوى معاليـه ، أراد أن يكـون حضرة المستشار موضوعا في الإطار اللائق وفي الصورة.

نعم. لن يعدم الله ، أبدا جنودا من العسل.

" كيف يمكن استدعاء شخصية ثقافية أو علمية ، بهذا الزعم ، وتقديمها إلى جمهور المثقفين والمثقفات ، من الطلبة والطالبات في مختلف المراكز الجامعية ، إحدى ثمرات السياسة الرشيدة ، واللامركزية الثورية ، النابعـة من دمقرطة التعليم ، وإنزالها بفندق "الأوراسي" العظيم بدل " الآليتي" أو " ألبير الأول" أو حتى " سان جـورج" في أحسن حالات وأكرمها ، والسماح لها بتناول المشروبات الروحية في المطعم ، وفي الغرفة ، على حسـاب الثورة.

في حين ، ويا للمأزق الذي وقعت فيه الأمة ، في شخص حضرة المستشار المجنون ، ذي الماضي السياسي المعروف ، أن هذه الشخصية المزعومة ، دائما، ليست سوى ، يماني ، فوق أنه ، بسيط ، متخلف ، مثل بلده ، ومثل كل العرب ، كفيف.

هاه ، يماني كفيف.

تصوروا ، يا معالي الوزير ، أن يمانيا كفيفا ، يدعى عبد الله البرد وني ، همم ، هكذا! عبد الله ويردونـي أيضا ، يرتدي جبة بيضاء بدون سروال ، أو حتى تبان ، عليها سترة رمادية ، ولربما يحتزم بسيف ، أو خنجر ، في قدميه اللذين يشبهان حوافر أية دابة أو جمل ، بلغة أكلتها ، وفي قدميه الرمال ، يكون ضيفا على وزارتنا ، التي تجسد ، وتمثل الجزائر ، بجميع ثوراتها الثقافية والصناعية والزراعية، والتي ترفع لواء عـدم الانحيـاز الحقيقي ، لا إلى هذه الكتلة أو تلك ، ولواء النظام الاقتصادي العالمي الجديد ، والجنـوب للجنـوب ، وأفريقيـا للإفريقيين ، والبحر الأبيض المتوسط لسكانه الدوليين.

شهادة الله - قال مصدر حضرة المستشار ، النعت لم يرد في التقرير ، ولكن أنا واثق ، أن قلوبهم تهفو إلى سادات جزائري ، متعقل وأن أعينهم ، تحول إلى إسرائيل ، وهم اليوم ، يخجلون من الجامعة العربيـة ، ومـن لجنة المقاطعة، ومن جبهة الصمود والتصدي، رغم أن هذه الأخيرة ، لا ترد أصلا في أي تقرير جزائري ، مـا عدا تلك التقارير ، التي يكتبها ، العائدون من اجتماعاتها ، والتي لا يقرؤها أحـد ، لكـنهم سيسـتعملون فـي المستقبل. عبارة الدوليين ، ما في ذلك شك ، أبدا. يا معاليك ، جزائر الثورات، التي آلت علـى نفسـها عـدم تصدير أية ثورة ، خاصة تجاه الدول العربية ، ذات النظام الملكي. الجزائر المؤمنة ، الإيمان الراسخ الـذي لا تزعزعه السياسة ، والنابع من تجربتها الفذة ، في تاريخ الأمة والبشرية ، بما في ذلك الفيتنام ، بالحرب الشعبية ، وبأن البناء القومي ،لا يمر إلا عبر سبيل واحد ، هو السبيل الوطني ، هنا ، ليس بالمعنى العربي الرجراج ، إنما بالمعنى الفرنسي ، وبالتدقيق "باتريوتيك" وهو المعنى المضاد ، طولا وعرضا ، شكلا ومحتـوى ، لحـزب

البعث العربي الاشتراكي الذي هو كما ثبت ، ابتداع أمبريالي استعماري ، شأنه في ذلك ، شأن النظرية العالمية الثالثة، الهدف منه أولا واستراتيجيا، مقاومة الزحف الروسي ، أو ما اصطلح عليه عالميا ، بالزحف الأحمـر ، وثانيا واستراتجيا كذلك ، إلهاء شعوب المنطقة ، عن البناء الذاتي ، ومهام التشييد الوطني.

لقد توصل علماء الإمبريالية ، إلى تكوين نظرية كاملة ، عن الإنسان العربي ، تـتلخص فـي أن أقصـى طموح هذا الفصيل من البشر ، أن يعيش خارج الدولة ، وبمعنى أدق ، بعيدا عن كل قانون وانضباط ، ما عـدا الولاء الرمزي للقبيلة.

تكفيه بعض المثل والأحلام. أن ينتسب إلى العروبة مثلا ، فيقال له ، إن العرب أشرف جنس على الأرض ، حتى وهو ضابط سام في جيش أعدائها ، يعمل السيف في بني عمومته.

وحدة "الرقة" مثلا مع "نواق الشط" ، أو وحدة تكريت ، مع تيزي وزو ، تغني النظام في كلا البلدين ، عـن ربط الرقة بخط هاتفي مباشر مع دمشق ، وربط تكريت مع بغداد ، أو حتى بتوسيع البث التلفزيوني الوطني إلى هذه الأقاليم ، رغم أن مسألة التلفزيون هذه ، تتطلب دراسة أخرى. تراعي معطيات ، مجتمع القبيلة والزعامة.

الحمد لله الذي جعل بلادنا ، في منأى عن أن يتهمها بالعروبة عالم أمريكي أو إنكليزي ، أو إسرائيلي. أمـا الفرنسيون ، فإنهم يعرفوننا جيدا ، وهم لا ينعتوننا بهذا النعت ، إلا في حالة السب والتحقير ، وهـم يقتصـرون على عبارة "بيكو" فقط ، ولعلهم لا يقصدون بذلك أصلا العروبة أو ما شابه.

نعم في عهدكم يا معالي الوزير ، الجزائر بكل ثقلها التاريخي ، وبكل مطامح جماهيرها نحو الخروج مـن العالم الثالث ، تستضيف عبد الله البرد وني ، كفيفا عربيا من اليمن ، ومن صنعاء بالذات ، حيث مازال النـاس يرعون ، مثل الحيوانات ، أوراق الشجر ، يسمى القات ، ويبيعون الأسلحة الحربية ، في الساحات ، والأسـواق كما تباع اللعب والأواني البلاستيكية ، والأنعام. تستضيفه ، لينير ويثقف ويحضّر أبناءها. حتـى لكـأن المثـل الشعبي ، *"من قلة الوالي نقول للكلب يا خالي"* يتجدد دفعة واحدة ، أو كما لو أن القدر ، يسخر من استقلالنا.

سماحتكم. تسامحتم في التنوع الثقافي والحضاري ، تمشيا مع الخطة الثورية للجزائر ، وقبلتم باقتران اسـم "جاك بيرك" وغيره من أعلام الفكر والثقافة ، بأسماء محمود درويش ، ونزار قباني ، والأسـتاذ فيـروز ، ذي الشهرة العالمية ، لكن ، وهذا مؤكد ، لم ولن تتنازلوا ، وحاشى أن يحدث ذلك ، أو حتى أن تُظن بكم الظنون ، لمستوى حضرة المستشار ، الذي أسكن بردونا ، بفندق الأوراسي ، أحد مفاخر ثورة المليون ونصف المليـون شهيد ، وسمح له ، بإطفاء غليله الصحراوي ، بالويسكي.

تعلمون ، يا سعادة الوزير ، أن لوائحنا للصرف ، لا ينفذ منها أمثال هذا الشخص ، وأننا بالفعـل ، لنقـف عاجزين ، أمام المأزق الذي وضعنا فيه حضرة المستشار ، بتصرفه هذا الذي لا يمكن أن ينسب لعاقل. إننا نجد أنفسنا مضطرين إلى لفت انتباهكم ، وانتباه القيادة الثورية إلى أنه بالإضافة إلى تهمة جريمـة سـوء التسـيير والتصرف في أموال الثورة ومكتسبات الشعب الجزائري، لا يمكن أن نتحمل مسؤوليتها ، والتي يمكن أن توجه

، في أية لحظة ، فعين الثورة الساهرة لا تغفل ، والحمد لله. بالإضافة إلى ذلك ، فإن سمعة وزارتنا التـي هـي سمعة الجزائر ، في الميزان ، وقد عرضها حضرة المستشار للإهانة والخدش ولتقولات أعداء الثورة ، الذين لا يفوتون مثل هذه الفرص الذهبية ، ولولا الصداقة الشخصية التي تربطنا ، مع السيدة مونيك ، مـديرة المركـز الثقافي الفرنسي ، لبادر مراسلو وكالات الأنباء العالمية ، والصحف المتواجدون ببلادنا ، إلى نشر الفضـيحة ، في الصفحات الأولى ، رابطين إياها ، بالتعريب واعتبرته إحدى نتائجه الحتمية.

أقسم بالله العلي العظيم ، يا حضرة المستشار ، وإنك لتعلم ، مدى ، محبتنا وعزتنا لك ، وأننا إلى جانبك في السراء والضراء ، أن التقرير أطول من هذا بكثير ، وأنه ختم بالتوقيع الصريح ، للكاتب العام ، وبعبارة ثوريا ، أو أخويا ، وهذه الأخيرة أقرب إلى الاحتمال ، فبالإضافة إلى أن الكاتب العام ، يتفادى كل ما من شأنه أن يذكّر ، بماضيه إبان الثورة التحريرية ، فإنه لن يفوت هذه الفرصة الهامة ، دون أن يعمل على إزالة بعض الحـواجز ، وإشاعة أواصر عائلية ، مشحونة في نفس الوقت ، بالتهديدات المختلفة ، أقلها ، إلقاء التبعية على الوزير.

ووالله العلي العظيم ، لا بد أن يكون استنسخ التقرير ، في نظائر متعددة ، وأن بعضها الآن ، بـين أيـدي المهتمين في جميع الأوساط ، والأماكن والأجهزة ، وأن السيدة "مونيك" بصدد كتابة مذكرة في هذا الشـأن ، لا إلى بلدها فحسب ، وإنما إلى قيادة الحلف الأطلسي ، وأن المعارضات تنكب حاليـا ، علـى دراسـة الجوانـب الإيجابية والسلبية ، في إثارة مثل هذا الموضوع في مثل هذا الظرف. كما أن مراسل "لوموند" ، يطلع أصـدقاءه في القمة ، على فحوى مقاله حول...

- لا. أطمئن ، من ناحية مراسل لوموند" فهو مثقف ، ويعرف مكانة هذا الشاعر ، في العالم العربي كله.

قاطعه حضرة المستشار ، ثم توقع على نفسه ، ساهيا ، عن المصدر الودود ، الذي كـان يحـاول قـدر الإمكان ، إنارته.

معاليه ، بدوره ، قدر أن هاتفه بيت من زجاج ، لذا صاغ أمر الحضور ، بهذه الصيغة ، المحتملة وغيـر المحتملة ، الطالبة الآمرة، المتوسلة الزاجرة.

يحار المرء ، فيما إذا كان هؤلاء الناس ، يتصرفون بالذكاء أم بالغريزة أم بالتـدريب مثـل الفئـران فـي الأقفاص.

"هاه. في إمكانك الحضور حالا".

لقد كان حضرة المستشار، يتوقع المثول، أمام مجلس إداري، لتقديم التوضيحات كما كـان لا يسـتبعد، أن يكون الوزير، معاليه، يتتبع بصفة من الصفات، خاصة العلمية الحديثة، مداولات المجلس.

لكن الدعوة الشخصية بهذه الصفة، بهذه الجملة التي لا يمكن أن تصاغ، إلا من طـرف ابـن خلـدون، أو تيمورلنك، أو ستالين أو دوغول، في مفاوضات مصيرية، يتمسك كل طرف فيها، بكـل مـا أوتـي بسـيادته، ومصلحته، وحياديته ، ووعيه وتوازنه، ويحرص كل الحرص، في الوقت نفسه على أن لا تنقطع شعرة معاوية،

أو على الأقل، أن لا يتحمل مسؤولية قطعها، هذه الدعوة، لم تكن متوقعة.

آه، لو أن المرء يتمكن مرة في حياته، وفي الوقت المناسب، من إخراج لسانه... مـن أن يقـول لمـن لا يتوقعون ذلك أبدا منه: ألزموا حدودكم أيها الحقراء. كفى. كفى.

يكون ذلك، بمثابة إطلاق يد مرفوعة إلى فوق، لكأس من الزجاج الفاخر، لتسقط على الأرض، نكايـة فـي الذين يتلذذون مشروبا لا قيمة له.

آه...

كان حضرة المستشار، ما يفتأ يتنهد، ويحاول مع ذلك، التظاهر بالهدوء، رغم أن جمعه يلوح بالتهديد، إلـى اللوحة الزجاجية التي تغطي المكتب.

كان واضحا أنه سيرفع يده أقصى ما يمكن ، ويطلق الكأس ، أنه سيفعل ذلك ، لا محالـة وفـي القريـب العاجل.

لكنه مع ذلك ، لم يفته إعداد نص بليغ ، عن دور العمي في تاريخ المشرق ، خاصة العربي ، حيث تتـوفر أمثلة وأدلة ، وقرائن كثيرة ، بعضها يعود إلى التاريخ القديم ، الذي أضحى ، في حيز التراث ، وبعضه يرجـع إلى التاريخ المعاصر ، الذي لم يهمله ، لا قاموس "لاروس" ولا كتابات *بلانشير* ولا دائرة المعارف الإسلامية ، ولا رجال الاستشراق ، من *كارل بروكلمان إلى جاك بيرك* ، صديق الجزائر الحميم ، والذي لا شك فـي أنـه يعرف عبد الله البردوني ، معرفة شخصية، وأنه يطرب لشعره.

إذا كان تاريخ الثقافة والآداب الغربية ، لم يؤثر فيه ، العمي ، أو بالأصح ، وحتى يكون المرء موضوعيا ، فيما يتعلق بتاريخ الآخرين ، لم يهتم فيه بدور العمي ، فإن ذلك لا يصح أن يكون مبررا للحكم على العمـي ، في جميع أنحاء العالم ، وفي كامل الحقب التاريخية.

على الجزائري بالذات ، إذا كان وطنيا حقا ، أن يعرف أنه كان للعمي في تاريخ بلاده ، دور كبير ، فطوال عدة قرون ، وفي حين كان الغرب كله ، بدءا من مالطة إلى الولايات المتحدة الأمريكيـة ، يـدفع الضـرائب والغرامات ، والتعويضات والهبات ، والفدي ، للجزائر المحروسة، كانت القلعة العظيمة ، توضع في الليل بين أيدي العمي البساكرة ، يغلقون ويفتحون أبوابها ، للداخل والخارج بدءا من المغرب حتى الصباح.

عاد حضرة المستشار إلى كل المراجع التي بين يديه بما في ذلك اللزوميات ، ورسالة الغفـران ، ورسـالة الملائكة ، أو الرسالة النحوية ، قرأ الديوان ، وتوقف مليا ، عند "*خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد" و"صاح...*" وما إلى ذلك ، وجمع استشهادات كثيرة على أن "نيتشه" الفيلسوف الألماني ، الذي كما قال حضرة المستشار ، لن يفهم العرب فكر كارل ماركس إلا من خلاله، ومن خلال الفهم الصحيح لفلسـفته ، هـذا الفهم الذي لن تسمح به الترجمات العربية المقتصرة على شذرات من "*هكذا تكلم زرادشت*" ، والحمد لله ، فـإن شابا جزائريا ، يعكف في باريس على دراسة هذا الموضوع منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، نيتشه هذا العبقري

الفذ ، ليس في الحقيقة ، سوى بعض إعادات ألمانية ، ما في ذلك ريب ، لفكر وأراء أبـي العـلاء المعـري ، سيؤكد الطالب الجزائري ذلك ، طال الزم أو قصر.

البروتيستانية ، في المسيحية ، بكل صيغها ، وجنسياتها ، ما قيمتها وأهميتها ، أمام صيحات عملاق المعرة الأعمى؟ الوجودية. وقبلها الديكارتية ، وكل ما له صلة بتحكيم العقل ، متأثرا بالواقع الثابت ، للحظة الآنيـة أو بتشكل الأنا ، في ظروف جد مبهمة ، وكونفيزيونية ، كما يقال.

"الكوجيتو"! ما قيمته ، إذا لم يدخل رهين المحبسين؟

من خلال إعراب أسماء الملائكة الممنوع منها من الصرف لكل الأسباب ، راح عمـلاق المعـرة يصـول ويجول ، في عالم مازال ، حتى اليوم ، محرما على جميع مفكرينا ، ويناقش ليس فحسب ، الفهم السني السـاذج للملائكة ، وإنما خالق الجنة والنار ، ورضوان وإسرافيل وعزرائيل ، والأسماء أجمعها.

طه حسين ، وتاريخ الفكر العربي الحديث!

من استطاع قبله أن يكون بروتستانيا ، في عرب المشرق والمغرب؟

حديث الأربعاء يا حضرات ، لا يلخص وليس مجرد موقف من تراث تعتز الأمة ، ولا تعمل بـه ، إنـه عملية أخراج لسان طويل، لكل مثقفي العصر .

بدأ بالمعلقات ، بما هو مكتوب بماء الذهب ، ومعلق في صومعة معبدهم ، شعر العرب ، ديوانهم كما يُقال.

وانتهى إلى الكتاب. كتابهم الوحيد ، فراح يفصل في أحرفه السبعة ، وفي رواته وحفاظه ، وكما لو أن ذلك لم يكفه ، راح إلى التاريخ ، يعمل فيه بالمبضع ، الفتنة الكبرى ، عثمان علي وبنـوه ، أقـام ميزانـا طبقيـا ، واستغرق يكيل به بالأوقية ، والدرهم ، ممتلكات طلحة والزبير ، وباقي الصحابة ويعرّي عن الخلفيات الحقيقية ، لموقف كل واحد منهم، سواء في السقيفة أو بعدها.

طه حسين أيضا. كان أعمى كفيفا من مصر.

إن كان فيلسوف المعرة ، مات أعزب ، وكتب على قبره "*هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحـدا*" فـإن فيلسوف القاهرة ، قد أراد أن يتحدى الجميع ، فيقفز على العوائق الحضارية ، يثقب التاريخ ، وينطلق يسـبح ، في فضاء القرون ، لم تكن زوجته فرنسية ، فحسب، وإنما باريسية!

طه حسين ، بقطع النظر عن أصل وفصال زوجته ، خريج فرنسا.

سوربونيا ، من السربون بالذات ، الذي لا تقل أهميته عن الأكاديمية ، العسكرية "السانسـير" ذات التـأثير القوي في نهضة الجزائر الحديثة ، بكل ثوريتها ، وأفقها العالمي الإنساني ، وفي مستقبلها الزاهر ، كم يتنبأ بذلك العلامة "جاك بيرك".

لا شك أن الكثير منكم ، لم يطفئ تلفزيونه ، كما هي العادة ، أثناء عرض أي فيلم عربي ، عنـد عـرض مسلسل الأيام.. ذلكم البصير يا حضرات هو الدكتور طه حسين.

الدكتور الوزير ، مؤسس الجامعة المصرية الحديثة ، الملقب عن كـل جـدارة ، بعميـد الأدب العربـي ، وصدقوني لو كان في العالم العربي ، فكر، وفلسفة للُقب بعميد الفلاسفة أو المفكرين العرب.

ثم إن عبد الله البردوني ، وإنني قد قفزت بكم على عباقرة آخرين ، في مقدمتهم شاعر"البرنو" و"السـكيس" بشار بن برد ، الذي لم يتوان فضيلة شيخ جامع الزيتونة الأعظم وفروعه ، عن تحقيق ديوانه ، وإثبات كل مـا فيه ، بكل حماسة وروح تحضر ، هذا الرجل، لا أحد فكر حين دعاه ، في أنه سيرسم لوحات زيتية للجزائـر، كانت أمامنا مجموعات دواوينه ومؤلفاته ، والمكانة التي يضعها فيه النقاد. فدعوناه. هذا كل ما في الأمر.

إليكم يا حضرات ، كومة المؤلفات هذه لتتأكدوا من أن الدعوة أو التقدير ، والحجز في فندق الأوراسـي ، إنما كان لها ، وليس لشخصه ، رغم أننا قدرنا مناسبة السنة الدولية للمعوقين فحاولنا ، أن يكون هذا التكـريم ، ضمن مساهمات بلادنا ، كما قدرنا ، أن شخصية الأعمى ، تعمل على تعميقه الآية الكريمة *عـبس وتـولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزّكى أو يذّكر فتنفعه الذكرى* إن كانت بقيـت فـيكم ذرة ، مـن روح شـعبكم وشرقيتكم ، فاعلموا ، أن الأعمى يتساوى في المكانة ، مع المبصر ، عندنا ، على عكس ، ما هو عند غيرنا من الأمم الأخرى ، بقيت نقطة بسيطة ، أضيفها إليكم ، بالمناسبة ، هي أن السيدة مونيك ، تعلم أن صـنعاء ليسـت بادية ، وأنها من أقدم المدن في العالم ، وأن الحضارة لم تنقطع فيها يوما.

كلا. ينبغي أن لا يكون الخطاب طويلا. وإلا تظاهر التماسيح بالنوم ، أو أوقفوني ، بـدعوى أن محتـوى كلامي خارج عن الموضوع. الحل الوحيد ، أن أخرج لساني ، لحضرة مجلس الإدارة، لجميع الناس. أن أقـول لهم: ألف طز في طز. فيكم. في وقاركم الكاذب ، في لوائحكم ، في أسيادكم ، في جاك بيرك ، وكارل بروكلمان و"لوساي" و"ماسبيرو" في الصهيونية العالمية ، في السيدة مونيك ، التي تسيركم جميعا. يا خونة ، يا من تحفرون في ذاكرة هذا الشعب ، لتنسوه بشاعة أمسه ، وفظاعة مستعمريه ، ولتجعلوه ينـدم علـى تضـحياته ، وعلـى استقلاله.

"هاه. بإمكانك الحضور حالا".

سيرون طول لساني. سيري.

كان ذاك ، القرار النهائي ، لحضرة المستشار ، ليلة الأمس ، وقد قرر بعد مكالمة السيد الـوزير أن ينفـذه حالا.

أرغيس يخيب أمل بروميثوس

بدأ حضرة المستشار يغلي منذ الصباح الباكر ، وحالما استيقظ من نوم مضطرب ، لا يشبه في الحقيقة ، لا النوم ولا اليقظة ، الأحلام فيه تختلط بالكوابيس ، بـالخواطر بالأفكـار والآراء ، والمشـاريع والمخطط ـات ، بالخطب الحماسية ، بتصفيقات جمهور يرتدي السواد ، بهتافات حماسية ، مشحونة بالإعجاب. لم يغسل أسـنانه بالفرشاة والمعجون كما تعود ، ولم يبادر إلى حلق لحيته ، قبل تناول قهوة الصباح ، حتى أن القهـوة أهملهـا ، حل محلها كأس ماء صبه من الحنفية مباشرة.

نظر إلى ساعته ، وقرر أن يسابق السائق فيما عزم عليه. فتح حقيبته اليدوية ، وحملها إلى الفوق ، ثم قلبها ، لينسكب ما فيها ، دفعة واحدة. شكسبير والملك لير. بريخت ، ودائرة القوقاز الطبشورية. سـعد الله ونـوس ، والملك هو الملك. ألفريد فرج. وحلاق اشبيلية. اليخندرو كاستونا ، ومركب بلا صياد. تذكرتا سفر واحدة باسـم سهيل إدريس وأخرى باسم غالي شكري. أوراق حسنة التنسيق في غلاف بلاسـتيكي شـفاف ، لفـت انتباهـه العنوان: التقرير السنوي عن نشاط المديرية ، فاستغرق لحظات يتأمله.

"يرجع الفضل إليهم ، المساعدين. لولاهم لما كان هناك كل هذا النشاط. نجاة المسكينة ، على سبيل المثـال كانت في المستوى ، كل مرة ، تكون في المستوى. آخر مرة ، مثلت أحسن تمثيـل ، الثمانيـة عشـر مليـون جزائري ، بباقة الورد التي حملتها في المطار ، وهي تتقدم مختالة بلباسها العصري الأنيق ، نحو الشاعر الـذي أطلق الجمهور عليه ، اسم ، صاحب قارئة الفنجان ، والذي لازمته حتى في المائدة التي لم يبخل ، لأول مـرة وآخر مرة ، في تاريخ الجزائر الثقافي ، ستة وزراء ، بإقامتها وبحضورها. كان تسامحا كبيرا ، حتـى أنهـا ، ربما ، تسامحت فارتفعت إلى المستوى الوطني والقومي والأممي ، والحضاري ، فسكنت طوال الفترة ، بالغرفة رقم410 ، ولعلها حركت مشاعر كانت ماتت بفعل اضطرا بات الوضع اللبناني، وبفعل عامل آخـر ، حسـب مزاعم البياتي.

كانت كلما نظر إليها ، خفضت بصرها ، في خيبة واضحة ، وراحت تتأمل أصابعه ، فيبتسم معلّقا:

- ما راء كمن سمعا. كاد التونسيون – هداهم الله - أن يقنعوني، بأن الجزائر ، تضاهي اليمن في تأخرها. في الحقيقة ، الحدود المصطنعة بيننا ، وانعدام الزيارات ، تحجبنا عن بعضنا.

مثلت المسكينة ، ومسكينة فقط لأنها ، لم تعثر بعد ، على زوج، يليق ، حتى دب اليأس إلى قلبها ، وتخلت تماما ، عن هذا الأمل ، على ما يبدو، فهي في الفترة الأخيرة لم تعد تتحفظ ، لا في لباسها ، ولا في تبرجهـا ، أو في علاقاتها.. مثلت نجاة. الوجه المتحضر للجزائر ، وللمرأة الجزائرية أحسن تمثيل.

المساعدون. الشعراء منهم على الخصوص ، يقينا منهم ، بأنه لا نبي في قومه ، وبأن المواهـب التـي لا تستطيع البروز ، على المستوى الوطني ، يجب أن تبرز على المستوى القومي أولا والـدولي ثانيـا ، راحـوا

يستغفلون الجميع ، ويصطادون رجال الأعلام ، وأصحاب المجلات الأدبية ، وبعض الأعضـاء العـاملين فـي اتحادات الكتاب العربية ، الذين يمكنهم أن يردوا الجميل ، فيرتفعوا بدورهم إلى المستوى القومي بكـل نفطيتـه وقاريته وغازيته.

ثمرات هذا التوجه القومي للجزائر ، المتمنعة ، عادة وهي تجاهد لإثبات التشابه بين *الخيـار والفقـوس* ، واستحالة التمييز بينهما ، في ظروف خاصة ، مرغوبة ، كانت هذه الثمرات ، عددا خاصا بـالأدب الجزائـري الحديث لكل من مجلتي "الآداب"التي يمتيكها سهيل إدريس، وتصدر لظروف معروفـة فـي العـراق، وأقـلام العراقية ، التي يرأس تحريرها "طراد الكبيسي" رغم أن العددين ، وفي إطار سياسة *الخيـار والفقـوس* ، لـم يدخلا الجزائر ، لربما بقيا في أقطار أخرى.

أكثر أعراض المجتمع *البترودولاري* ، تتجلى لدى الأدباء الجزائريين ، فقبل أن يصدر أحـدهم ديوانـا أو مجموعة قصصية، يكون قد وفر مرافق الحياة العصرية كلها ، من صالون فخم إلى تلفزة ملونة ، إلـى جهـاز فيديو ذي أنظمة متعددة ، وأحيانا كثيرة ، مفكك القطع ، ومتنقل ، إلى ما هو أهم من كل ذلك ، السيارة ، وقـد استفادت المديرية أيما استفادة من هذه السيارات ، والحق يقال.

كان في ذلك ، تعويض بل إعفاء ثمين ، للوزارة من التزاماتها ، وقد جاء عن طواعية وطيـب خـاطر ، ويشهد الله أنهم يتسابقون إلى هذا التطوع ، نجاة بدورها ، ومنذ زيارة صاحب قارئة الفنجان ، صارت تتطـوع بـ"مرافقة" الوفود كما تقول.

لا نجاة ، ولا شعراؤنا ، ساوموا أو فاوضوا ، أو حتى ذكروا التعويضات عن الأتعاب ، وهلاك السـيارة ، وما إلى ذلك ولربما شهد يوما ، بعض أصحاب المجلات ، وبعض النقاد ، خاصة منهم ، متعـددو الجنسـيات والديانات والخدمات ، لصالح الأدب الجزائري الحديث...

عندما تواجد في المكتب ، أدرك حضرة المستشار ، أنه كل ما في الجبة ، وكل ما في الحقيبـة اليدويـة ، وكل ما في المكتب. وكل ما في الوزارة ، وكل ما في العزيمة:

بروميثوس.

-هذا لساني ، وفي القدر كفاية. ويا أيتها الروح المنهكة ، فيضي مرة واحدة ، واستريحي.

كان المفروض ، أن يطلب سعادة الوزير ،أو بالأصح كاتبة الديوان ، ويلتمس موعدا ، وحسب العادة ، فإن الموعد لا يتأخر كثيرا بالنسبة للمستشارين الأصدقاء ، المستجلبين ، باقتراح شخصي ملح من معاليه ، خاصـة في الظروف التي تكثر فيها الإشاعات ، عن التحوير الوزاري ، وتبدأ الأسهم في البورصة ، ترتفع وتنخفض ، في غير ما تواتر أو نظام ، يكون أول سؤال ، ينطرح ، والبسمة المتذللة ، تتراقص:

- هاه. ماذا يقولون؟ أين وصلت المزايدة. تعرف أن شعبنا يعلم كل خفايا الأمور.. مع ذلـك ، لا يخجـل بعضهم من رفع أصواتهم ، معلنين أن البلد تنقصه ديمقراطية الإعلام. ها أن الشعب ، يعلم ما لا يعلـم وزراؤه

في كثير من الأحيان.

بعض المستشارين اللؤماء ، يبادرون رؤسائهم بالتأكيد على أن ما بلغهم أخبار من أجهزة معلومة ، وليس بإشاعات.

- هكذا إذن؟!

يقول سعادة الوزير ، ثم يتدارك فزعه وضعفه معلنا:

- لا. لا أظن ذلك. أعتقد أن المثقفين في العالم الثالث ، مصابون بمرض الشعور الحاد بالأجهزة.

- يتعلق بسيادتك ، هناك إجماع كامل ، على أنك الرجل المناسب في المكان المناسب ، بفضلك استقرت الأوضاع في الجامعات ، وما عاد الطلبة...

- لكن بلغني أنهم يتحدثون ، عن وزارة الخارجية ، فيما يتعلق بي؟ أفاتك ذلك؟ والله قد استنفذت الثورة قوانا ، وأصبح الواحد منا في حاجة إلى نشفات راحة ، ستأتي معي ، ما في ذلك شك. لن أتخلى عنك.

المستشارون الآخرون ، أو بالأصح ، الذين تكون أوضاعهم على غير ما يرام. ونظرة معاليه إليهم ، لا تخفي التضايق والعتاب ، وربما الانزعاج ، يوهمون كاتبة الديوان ، أن المكالمة ، هذه من أجلها ، هي، يحيونها بحرارة ، يسألون عن أحوالها الشخصية ، عن صحة الوالدة بعد الحجة الأخيرة ، عن جهاز التلفيزون الأخير، وهل هو مضبط لقراءة إشارات سيكام والخطوط الفرنسية ، أم هو –كالعادة- خدعة يابانية تغري بتعددية أنظمة اللون ، وتهمل نظام الخطوط الفرنسي ، يقال إن الشركة الوطنية ، ستستورد من ألمانيا ، علامة ممتازة جدا، مديرها الجديد ، صديق قديم. يسأل أيضا عن السائق الأخير، وتفهم الدولة ، لوضعه السكني.

عندما تنطلق في الحديث ، عن مشاكل السائق المسكين ، وقبل أن تنهمك كلية ، يتحول مجرى الحديث بلطف بالغ ، عن أحوال معاليه النفسية اليوم ، وهل في الإمكان ، إزعاجه بطلب مقابلة؟

تنسى المسكينة ، رد فعل معاليه. في آخر طلب من هذا النوع ، من هذا المستشار بالذات ، فتعلن أنها ستشعره بذلك حالا ، أحيانا يشعر المرء ، أن قلبه ألين ما يكون هذه المرة ، وأنها ، رغم ما تعرف عن مشاعر معاليه في الفترة الأخيرة ، ستجعله يستقبله.

قرر ليلة البارحة أن يطلب مقابلته، اليوم. أن يستبق الأحداث على الأقل ، قبل المثول أمام مجلس يرأسه الكاتب العام. في الحقيقة لم يقرر ، لم يكن قرر بأتمّ معنى الكلمة ، إنما فكر ، فكر فقط ، وكأنما معاليه ، على صلة بما يجري في خواطره ، ها هو يواصل حديثا ، لم يبدأ بعد.

"هاه. بإمكانك الحضور حالا"

انطفأت جذوة الشوق بالآخرين التي أثارها رنين جرس الهاتف، لم تكن هناك أية فرصة ، ليمارس المرء غريزته ككائن اجتماعي ، بإعلانه للآخرين عن وجوده ، عن حاجته إليهم، عن استعداده ، لمد يد العون لهم..

أحس بأطنان من القمع ، تقع عليه ، ازرورق وجهه، اختلط النهار بالليل. تواصلت الكوابيس.

- لم يبق سوى التنفيذ. اغلقي الباب بالمفتاح يا نجاة.

فتح الحقيبة اليدوية. عرفت نجاة محتوياتها ، أدركت بعض الشيء ، خطورة حاله. تألّمت ، وسعدت في نفس الوقت.

كان لون وجهه يوحي بأنه يختنق، وبأنه سيقع على أرضية المكتب، مغمى عليه أو ميتا، بين لحظة وأخرى، فراحت تتألم خائفة، لكن عندما تتذكر أنه لأول مرة، منذ ترك المسرح، وجاء إلى هنا تراه يغضب. شعرت بنوع من السعادة والسرور.

هاهو الصدأ يزول عن حضرة المستشار. إنه يغضب.

هاهي البسمة المملة التي أضحت تشبه معطفا جلديا، يأبى أن يفنى. هاهي تنمحي.

ستفرح فجرية، عندما تعلم بذلك أيما فرح.

انتزع السترة، فك بعصبية ربطة العنق البغيضة، فك أزرار القميص، ألقى أيضا بالمريول القطني، قذف بالحذاء بعيدا، فعل كذلك بالسروال.

-هيا ساعديني يا نجاة. هاهي علب الألوان. هاهو المرقاش. أريد سلسلة تحيط بقدمي، وبخصري، وبمعصمي. لا ضرورة للعنق، تعرفين العلب، ذاك هو اللون البني. اجعلي آثار السلسلة، تتبدى أيضا. بعض جراحات دامية، هنا وهناك. نعم نعم. هو كذلك.

جسده بارد على غير عادته، ورغم أن الطقس دافئ، هاهي بطنه تخرج قليلا، إن واصل الجلوس على هذا المقعد كثيرا، برزت أكثر، وفقد آخر بقايا رشاقته. الترهل بدأه في الشفتين والرقبة، وفي الذراعين، والكتفين، وراح يكتسح كامل جسده. ينبغي أن يعود حضرته إلى الحركة.

هنا. في الجنب الأيمن. دعي النسور، تحدث فتحة، وتخرج الكبد. أسيلي الدماء يا نجاة. دعيها تنزل مع كامل الجنب. جاطي الدم، في الفخذين. افتحي الصرة أيضا. إن النسور، يأتي بعضها من الأسفل، وبعضها من الجنب. من الخلف لا يمكن، فالسلسلة التي تربطني بالصخرة، تشدني، ولا تسمح لي بالانحناء. لن نعطي لها تلكم الفرصة. لكن، لا يعني ذلك أن تتركي الظهر كما هو. أرقشي أوراما وجراحات، وندوبا. لا تتركي مكانا واحدا من الجسد المسكين، دون أن تصبغيه.

- جسدك بارد.

- مع أنني أحس بفوران في دمي يا نجاة.

- في دمك أم في مخك؟

- ربما صدقت، فكفاك يبدوان في منتهى الحرارة ومع ذلك لا أشعر بهما بتاتا. سيزورنا في الشهر القادم شاعر فحل.

- والله. الشعراء، فحولتهم في ألسنتهم، فقط.

- لن أكون معكم يومها.
- هل تعود إلى المسرح. لن أتخلى عنك.
- أنت أرحب الجزائريين صدرا يا نجاة.
- ماذا تفعل يداك، في تلك المنطقة، يا نجاة؟.
- أسوي التبان.
- أتفكرين أن الوضع مناسب، لتلك الحركة. أوه...! رائع. جميل. من أصبحت؟ أنظري مليا؟ من أكـون؟ ألست بروميثوس، بعينه؟ إنني هو يا نجاة. وهذا هو الوضع البشري بالـذات. سـجلي أن البشـرية، أدق مـن الإنسانية، وأن على المفكرين والمترجمين العرب أن يهتموا بذلك. لقد قيل "ما أنا إلا بشر مثلكم". العبارة، أكثـر حسية، وأكثر ارتباطا بالأرض والتراب من غيرها.
- ما رأيك، لو تناولينني، تلك العصا؟ لا شك أن بروميثيوس، حمل عصا ما. وهـو داخـل علـى الإلـه، ليجاهره بالحقيقة. ليهدده، بالحقيقة. نعم، مثلما قلت يا نجاة، فالحقيقة مخيفة، يا نجاة.

أفضّل، الحقيبة يا نجاة، كرمز للأسرار وللمعرفة. هات. متى لم تكن النار، غير أوراق.

افتحي الباب يا نجاة.

ما أن فتحت نجاة الباب، وما أن غادرت المكتب إلى الرواق الطويل، المطلي باللون الرمادي الداكن، وقبل أن يشرع في قطع سلم الطابقين، ليغادر عمارة المستشارين، وبعض المديريات التي تصنف، لسـبب أو لآخـر، بأنها هامشية، ويتجه نحو العمارة المجللة بالأبهة، حتى كانت جميع عمارات الوزارة، بجميع مكاتبهـا، بجميـع موظفيها، وحتى بزوارها وضيوفها، تتناول الحالة.

لقد تعدى الخبر، حجم الخبر، ومع ذلك لم يصل إلى مستوى القضية، أو حتى المسألة، وبالتالي، ليس هناك، تسمية أخرى أليق وأدق وأكثر إثارة من الحالة.

- إنها فعلا حالة بدأت منذ مدة. حالة المستشار الذي استدعى أعمى يمانيا.

كانت جميع الخطوط الهاتفية الداخلية، مشغولة، في لحظة واحدة، بالحديث في نقطة واحدة، هي الحالة، كما كانت جميع النوافذ المطلة على الباحة، وجميع المنافذ المؤدية إليها مكتظة.

حالة، على هامش ما اصطلح عليه بالحالة، لن تحدثها بمثل هذه السرعة، وهذه الدقة، وهذا الإجماع صفارة إنذار بحريق، أو بغارة جوية، أو زلزال من الدرجة التاسعة.

من أسمى الحالة، حالة؟

من أين عرفوا؟ كيف تمكنوا من جمع كل التفاصيل وصاغوها بهذه الصيغة المثيرة ؟ كيف اسـتوى المـاء والخشبة، الكاتب العام والفراش، والراقنة المهملة في قسم الحسابات؟ أية نفحة من الديمقراطية والمساواة، هبـت اليوم على البلد.؟

هل هناك أحد مكلف بمراقبة حضرة المستشار، له مهمة واحدة، هي التبليغ عـن حالتـه، فكـان أول مـن استعمل هذا التشخيص العبقري؟

إنه، وهو يغادر المكتب، أو وهو ينزل السلم، أو حتى وهو يركـب السـيارة أو ينـزل منهـا، رغـم أن بروميثيوس، كان يسكنه، بعد، لم يتفوه بالشيء الكثير، الذي يمكن أن يعطي هذه الصيغة الموحدة للحالة، حتـى وإن كانت وسائل الرصد الحديثة، مسلطة عليه.

حيى السائق، كما كما تعود أن يحييه، صباح كل يوم، صحيح أنه لم يسمح له أن يشعل المذياع، لتتبع أخبار الصباح، كما كان يفعل كل يوم، لكن هذا ليس بالشيء المهم.

ذكر النار. ذكر ديمقراطية المعرفة. قال بالحرف الواحد، الألوهية، بالصيغ والصفات البشرية، ما هي فـي آخر الأمر، سوى بشرية مثالية، صقيلة، وهذا ما أدركه بروميثيوس. بصق على الجدران هاتفا: زيوسك، لـيس سوى ممثل ثانوي في فرقة الثورة.

تحدث أيضا عن الأغلال والعذاب، وورد على لسانه، نفس هذا التعبير: بروميثيوس في عهـد الإغريـق، عرفها، عقابا، وأنه في هذا العهد، ليعرفها، جزاء، آرغيس، لم يستطع السيطرة على اللحظـة، بـين انغماضـة أعين، وبين انفتاحة أخرى. تكون اللحظة، يقضي زيوس حاجته، مع أيو، حتى وإن كانت بقرة.

هذه اللحظة الآن. الآن. هي ملك يدي، ولن تستطيع يا زيوس أن تقتل البشرية، حتى فيك أنت، ولن تستطيع يا آرغيس أيها الخائن، أيها الذليل، أيها الامتثالي النذل، أن تمنع وجود اللحظة، حدوثها، بمائة أو بألف، أو حتى بمليون عين. بين الحركة والحركة، توجد لحظة ما سانحة لحدوث حركة أخرى.

- لقد كانت آلهة الإغريق والرومان، أكثر ألوهية بالنسبة لآلهة مصر. مع أن اعتزاز بروميثيوسها ببشريته، يفوق اعتزاز، كل بروميثيوسات اليوم، لم يعلن بشريته فحسب، إنما مارسها، أتاها، وعمل علـى رفعهـا إلـى مستوى الربوبية، حيث فرض ديمقراطية المعرفة. قال للجميع إن زمن العذاب موقوت، وعهود الاغتمام في حياة الشعوب، مهما طالت، ليست سوى سحابات صيف قاري.

عندما تعلق الأمر، بالظلمة والنور، قال حضرته، الظلمة هي أصل الأصل، وما كان يمكن إطلاقـا، تقـدير قيمة النور، لو لم تكن هناك ظلمة. صحيح أن الماء لا يعود إلى نبعه بطريقة مباشرة، لكن هل فـي اسـتطاعة أحد، حتى وإن كان، زيوس نفسه، أن يزعم تصور نقل النبع نفسه من مكانه. بروميثيوس في الحقيقة مـا كـان سوى نبع.

أنا هنا، في الأصفاد، والقسوة، تلاطم روحي، ليل نهار، ولكن هل ورد الحديث، عن عملية قتل حقيقي؟

الأولون أنفسهم، كانوا يدركون استحالة ذلك، أخطر ما فاه به، أن معاليه لا يمكن أن يكون، سوى ممثل في فرقة، أما بروميثيوس، فقد كان، وسيظل الفرقة كلها. هذا هو الفرق بيني، وبين معاليه، وهو يعرف ذلك. وكـل واحد في الوزارة، وخارج الوزارة، يعرف ذلك تمام المعرفة، ذلك أن التمثيل في الماضي، على عكسه اليـوم،

كان فعلا حقيقيا، يقدم ويؤخر. لم يكن، أبدا الظل يستطيع تعذيب مصدره.

اعلموا جميعا، أن بروميثيوس، يعرف سر ميلاد، أب أفوس وأحفاده، وأنه يحفظ عن ظهر قلـب، نغمـات مزمار "هيرميس"، بل إنني أنا بروميثيوس، من وضع تلكم النغمات، وما هيرميس، سوى عازف.

هذا كل ما فاه به حضرة المستشار في هذا الصباح، وهو ليس بالكثير، لا يمكن أبدا أن يكون قاعدة، ترتكز عليها الحالة، كما هي معروضة في سماعات الهاتف تفصيلا.

من يستطيع أن يضبط، من كان وراء رصد الحالة، فالمسألة، مهما كان الأمر، تتعلق ، بأربع سنوات كاملة ، وليس بفترة زمنية ، تنحصر في مسافة بين البيت ، والوزارة والسيارة ، وبين أسـفل البنايـة إلـى الطـابق الثاني...لا شك أن زيوس ، صنع عددا مهولا من الآرغيسيات، بعضها مختص ببروميثيوس ، وبعضها ، مهتم ببعضها. لم تعد المسألة تتعلق بعدد أعين آرغيس ما ، بل بعدد الآرغيسيات نفسها. حتـى تحاصـر اللحظـة ، فتكون حالة حدوثها مستحيلة ، أو على الأقل ، نادرة ، أو على الأقل مرصودة.

مَن جَمَع هاته الأقوال ، وفك هذه الرموز ، واستطاع أن يخلق مادة مكتملة للحالـة ، تسـتطيع سـماعات الهاتف ، جميعها ، أن تتناقلها، بصيغة موحدة؟

الأتان نجاة؟ لا شيء ينفي أو يمنع أن تكون إحدى ساكنات ، رأس آرغيس. يا لها مـن رأس تـوفر فيهـا المجال ، لاحتواء مائتي عين! أحد هذه الأورام الأدبية؟ لم لا ؟ مثلهم الأعلى اكتساب أسماء ، تمكن مـن جمـع أقصى ما يمكن من النقود ، بأسرع ما يمكن ، وبأقل جهد ممكن. والله العلي العظيم. لن يتـورع بعضـهم مـن اعتبار "تكريت" مسقط رأسه ، مقابل أن تنشر مجلة "أقلام" أي كلام تحت توقيعه ، ولن يتوانى بعضهم عـن أن يظل يوما كاملا ، يضغط على زناد رشاش ، في قلب حشد ما ، مقابل أن يقال ، إنه وطني ، يعـادي بالتـالي الشيوعية والشيوعيين ، أو عن منح جيراننا ، كل صفات الموضوعية ، وكل معاصر النبيذ الجزائـري ، إلـى جانب كل أخواته، وبنات أعمامه وعماته ، مقابل أن تنشر الدار الليبية - التونسية مجموعة قصصه الأولى ، أو حتى مقابل رسالة واعدة بذلك.

تفوه. أتفوه. أورام سرطانية خبيثة ، تتأصل يوما بعد يوم.

الكاتب العام ، سيادة المراهق الذي قمعت مراهقته ، يزورني ، مرة في الأسبوع. يشـرب قهـوة ، يـدخن سيغارة أمريكية. يلهس سيغارا ، هافانيا غليظا يتبجح بإبداء معرفة متضلعة ، بكل ما يسيء للسينما والمسرح ، والغناء في الوطن. يذكر أن *جورج مارشي* ، أو *موريس توريز* ، قبله ، أحدهما على كل حـال ، أبـدى هـذه الملاحظة أو تلك ، في موضوع صلة الفن بالثورة ، وأن "غارودي" أشبه ما يكون بجزائري متطور. لكن النقابة عندنا ، والتسيير الاشتراكي للمؤسسات ، وما يسمى باليسار بصفة عامة ، طفيلي ، مستلب ، جاهـل تقريبـي ، تعميمي ، لا يتوانى في أغلب الأحيان عن الخيانة ، ولقد تأكد لنا ، للدولـة الجزائريـة ، أن "أرديـا" ، ألمانيـا الشرقية بالذات، وراء الشيوعيين الجزائريين. هاه. مهما تكن الحقيقة ، فلا بديل من أن يحب الجزائري الجزائر

، وأن يدرك ، أن الأممية ، مرحلة متأخرة جدا من تاريخ الشعوب.

هاه. ألا يزال لدينا حنين للمسرح؟ لقد كلمت معاليه ، عن ضرورة اغتنام فرصة ، السماح لك بالعمل معنا ، لتوسيع المسرح الجامعي. ما يدهشني حقا ، هو هذا الإلمام الواسع لدى معاليه بالرياضة الجماهيرية ، في البلدان الاشتراكية ، وإعجابه الشديد بك ، خاصة في دائرة الطباشير القوقازية ، التي لفتت الانتباه إليك ، كواحد ممـن يمكن أن يقال إنهم يمتلكون الوجدان الوطني. أنا أيضا معجب بهذه المسرحية ، رغـم أننـي شـاهدتها ، هـذه سنوات. كنت أيامها ، أستعد لامتحان الباكالوريا.

ألا تشعر يا حضرة المستشار ، بان الأيام تهرب منا ، وأن بعضنا ، أشبه ما يكون بمحبوس في هذه الدنيا ، ينتظر. حتى ينسى ، ماذا ينتظر.

يخرج سيادته ، تاركا وراءه الرائحة الكريهة للسيغار ، مهما كان المرء متسامحا فإنه لا يسـعه سـوى أن يتقزز منها ، وإيحاءات لا تصدر عن غير هيئة ، متينة ، دقيقة التنظيم ، تهدف إلى خلق ، أو إيجـاد أو تـوفير نسق ما ، وحاملا معه ، ما لا يقال عن السبع صفحات من المعلومات القيمة ، عن الوضع في البلد.

الباب المفتوح -كما يقال- يدخل الريح ، وفي هذا الزمن ، لا يمكن للباب إلا أن يكـون مفتوحـا ، وكـل أحباب ، أو أصدقاء ، أو أنصار ، أو معارف بروميثيوس ، كانوا يعرفون السر.

ماعدا ه ، زيوس كان الوحيد الذي يلهث وراء السر.

والبحث عمن يكون مخبرا ، في هذا الوضع ، أشبه ما يكون بحذلقة القطرة الأولى ، في الأبيض المتوسط ، أو في الأطلسي ، أو في بحيرة طبرية.

الحالة ، كانت ، وما زالت ، وهي الآن متبلورة ، للجميع ، وما على الجميع بما في ذلـك بروميثيـوس ، سوى مواجهتها ، والاستمتاع، إن أمكن ذلك ، ولمن شاء ذلك ، بكل معطياتها ، ومعايشتها ، من الأعماق.

امتلأت الباحة الكبيرة بهم. خلت النوافذ منهم. يا لها من سرعة عجيبة ، حركتهم. المعركة المتكافئة بـدأت. هم من هناك ، وأنا من هنا. كتفاي منهكتان بالفعل. ظهري تقوسه الأيام ، الجراحات توجعني ، السلاسل تثقلني. مع ذلك ، فلا تقدم. لا تقدم. الجبناء ، سيهزمون لا محالة. لن يصمدوا أكثر.

الكاتبة الخاصة. رئيس الديوان. الكاتب العام. مدير التشريفات. فراش الطابق الرابع. فراش الطابق الثالث. فراش الطابق الثاني ، الأول ، الأرضي. جميعهم أعلنوا في الوقت الواحد ، بالحرف الواحد، بـالنبرة الواحـدة: معاليه مطلوب في الرئاسة لدراسة ملف اللامركزية.

الوغد. معاليه ، احتاط إذن للمؤامرة ، وواجه الحالة ، بما يستدعي. هو بدوره ، استجاب لرنـة جـرس الهاتف الداخلي واطلع ، على كل تفاصيل الحالة ، واستعد لها.

في هذه الوزارة. في مثلها ، يعني. كل الظواهر ، والفينومينات، بدءا من ظهور المهدي والمسيح ، ونزول ماركس ولينين ، إلى شن إضراب عام ، كلها محتملة جدا ، وآرغيس في هذه الوزارة ، في مثلها ، دائما ، يمكن

أن يتغلب ، على اللحظة ، ذاك لأنه يبتدع بين اللحظة واللحظة ، لحظة أخرى ، لكنها كاذبة ، سـرابية ، يـأتي فيها زيوس ، ولا يأتي.

الوغد! أمر بإيقاف السيارة ، ارتدى ضحكة ضخمة ، ونزل. نزل ، فوق ذاك. ربت على كتف بروميثيوس ،وسخر قائلا:

- ما يزال جنون التمثيل يسكنك. وزارتي فخورة ، بتوفرها على أمثالك.

لا يمكن لأي عامل في وزارة العلم -لم يستعمل عبارة موظف- إلا أن يبتهج بإحياء أسبوع العلـم ، بهـاذ الجنون.

الوغد! عثر عن المناسبة ، 16 افريل ، يوم ابن باديس ، في دائرة الطباشـير الجزائريـة. اسـتعمل... استعان بلزوجة ، ورخاوة الجيم ، وعطائية وتمططية وتوالدية النون.

إنه يعرف ما يقول. يتقن دوره ، يتقمص الشخصية ، سعادة الوزير ، لا شك أنه يمتثل لأوامر مدير فرقـة أقوى وأشد عظمة مني.

انهزم حضرة المستشار. تفرق جمهوره العزيز ، ما إن عرف المناسبة. ما أبغض المناسبات لديهم ، خاصة عندما تكون مبتذلة ، بئيسة مركبة تركيبا مفتعلا. هبت ريح الأوامر العلية ، نسفتهم كلهم ، مع أنه كان بإمكـان بعضهم ، أن يواصل الفرجة.

الممثلون هم ، ولست أنا.

ج. ن. و. ن.

استعملها ، ترددت على لسانه مرة أخرى ، بصيغة تواطؤ واضح ، قبل أن ترد على لسان الغوغاء ، فـي حالة العشق المكتمل ، لعمود الهاتف العزيز. إن البشرية كلها تميعت ، في هذه اللحظة ، شأنها شـأن الحالـة ، وشأن القضية.

سر الجزاء المتجزئ

لتتأجل مهمات العشق المتنوعة ، بدءا من الرصد ، إلى عمليات التحويم ، إلـى الاقتـراب ، فالالتحـام ، فالتوحد ، إلى ما بعد الاستيقاظ، بكل تأكيد ، أما الآن فقد حان وقت النوم.

ناقوس الساعة الحائطية الروسية ، يعلن عن الثانية بعد المنتصف ، وعلي أن أنام. التسجيلات في المتناول ، والليالي طويلة، وأنا والزمن وراء الذرة.

لا أشعر بالحاجة إلى النوم ، ككل ليلة. يأبى الفنان فيّ أن ينام. لكن سأنيمه رغم أنفه ، بأسلوبي المعهـود. أكلفه بأداء دور قومي ، فينام.

الفراش بارد ، لو أن واحدة ، منهن ها هنا ، للطفته ، وأزالت الرطبوة. لكن ، وكأنهن أضـربن ، تغيـبن كلهن. نسينني الليلة. فجرية، انمحى أثرها كامل اليوم ، والأتون ، ربما وجدت برسيما طريا في مربض ما.

لن يطول الوقت وأنام.

ليس من السهل ، في هذا العصر ، أداء دور قومي ، فلا صقرية صقر قريش ، ولا دخول عبد الـرحمن ، ولا حتى إحراق السفن من طرف بربري أهوج ، ممكن الآن ، أو حتى ملفت النظر. كان ذلك ممكنا في زمن لم يكن فيه الآخرون يمتلكون المقومات البشرية. في عصر التكنولوجيا هذا ، لا بد لأي دور قومي ، من أن يعبـر قناة الإضافة.

جميعهم. جميعهم. لم يروا في التكنولوجيا ، سوى السلاح الذي يقهر المواطن ، والمـذياع الـذي يصـدع رأسه. حتى هذه ، لم يتعاملوا معها إلا كمستهلكين.

جزائري واحد ، هو أنا. العبد الفقير هذا. الوحيد المتوحد ، في فراش بارد ، يسكنه العشق ، حتى النخاع ، حتى درجته الحقيقية. الجنون. تغالبه رياح التاريخ ، تذكر أجداده ، وإن قالوا رومانيين أو فانداليين ، أو عربا ، قال أنا منهم ، وإن ذُكر البربر ، حن إلى دم لا يجزم أنه دمه. انتصر على جميعها ، فتمكن من استنباط الـذات الكهربية للكون.

عثر على سر الجزء المتجزئ من هذه الذات ، واستطاع أن يحصره ، كالمارد ، في قمقم صغير ، بإمكانه في أية لحظة تحريره، وربطه بالذات ، لتنطلق قوة دافعة ، جاذبة ، ترتكز على أي جرم مادي خلفها ، ولو على بعد ملايين السنين الضوئية ، وإن عدمته ، بحثت بقرنيات استشعار ، ذات مدى بعيد ، عـن أي جـرم مـادي أمامها ، فجعلته ، قوة جاذبة ، وكثيرا ، في حالات السرعة القصوى، المسماة بسرعة الحلم ، والتي تفوق سرعة الضوء ، ملايين المرات ، تستعملهما معا ، قوة الدفع ، وقوة الجذب. وهي في كل الحالات متناغمـة متجانسـة ،مع الحرة الكونية.

جعلها طاقة محركة ، لأطباق طائرة في مختلف الأحجام ، صنع منها الكثير ، كما اشتق منها أشعة عازلة ، لحركة المادة المصنعة ، هي بمثابة سلاح فتاك ، يمكن بواسطته ، تجميد كل آلة ، وكل أداة ، وكل إليكترون ، أو مغناطيس. مدينة مثل نيويورك أو طوكيو ، يمكن شل أجهزتها وماكيناتها ، وأبوابها ونوافـذها ، بشـعاعين اثنين لا غير ، وفي مدة لا تستغرق أكثر من خمس ثوان،

بالإمكان بلوغ أي كوكب أو نجم ، في جميع المجالات الضوئية الرحبة ، بما في ذلك مـا وراء الكـون ، والاتصال مباشر بالخزان الكهربي ، للذات الكونية، والحصول منه على المد اللازم في مجال التناسل ، والخلود وتحسين النوعية ، واستيعاب مداول الكلمات قبل صدورها ، وهو ما يعبر عنه اللاهوتيـون ، بالقـدرة والعلـم والبقاء ، وبالتالي ، الإمساك التام بخيوط وأشعة وأسرار النبض الكهربي ، في كل الكائنات المكهربـة ، وفهـم النبض الصح ، من النبض الخطأ. السليم من المريض ، في الذات البشرية ، وبالتدقيق ، في جهازها التنسيقي ، الذي هو المخ. ما أتاح القضاء على عنصر الشر ، والجنون ، والعدوان ، والنسيان ، والتشوه الخلقـي ، وفنـاء الخلية الحية ، والقصور في جمع المجالات ، وأتاح أيضا ، تطوير النوعية البشرية ، فيسيولوجيا بصفة خاصة ، والقضاء على عنصر الطبيعة في غذائها ، ونموها . باختصار ، بعث الإلوهية ، في كائن بشري ، بفتح الأبواب التي أغلقتها كائنات طبيعية ، كهربية أخرى ، سبقت البشر في الوجود ، حسدا له مـن الصـفة التـي تجعلـه يتجاوزها ويستغني عنها ، وخوفا منه ، أن لا يسمو في جميع الحالات إلى ما فوق البشرية ، فيعبث بالكون.

إيقاظ الخلايا النائمة في المخ ، ذلك كل ما يتطلبه الأمر.

ما زيوس سوى ذلك؟ ما الإنسان إذا ما صار بإمكانه توظيف الأربعة عشر مليار خلية ، في مخـه ، بـدل السبعة آلاف التي يوظفها الآن؟

وشجرة التفاح في الحقيقة ، لم تفتح منافذ ، لم تكن موجودة ، إنما سدت قنـوات كانـت مفتوحـة. كانـت مسحورة. مفعولها لا يزول بأية عقاقير ، من خارج الإمكانيات.

هذا ما فعله الأخ الجزائري العظيم ، الذي هو أنا ، عندما اكتشف سر الجزء المتجزئ .

بروميثيوس ، سرق النار ، والجزائري الشهم ، سرق القدرة.

بدل أن يمنحها ، جرعة واحدة للبشر أشفق عليه ، من الصدمة ، فكثيرون هم أولئك الذين يعتزون بضعفهم ، وبشيء يسمونه أحيانا ، الحيوانية ، وأحيانا الإنسية ، ولكي لا تطمس الذاكرة ، نهائيا ، ويضيع كل ما فيهـا ، من مشاعر ، هي ضرورية للمقارنة ، بالتالي ، لكي لا يبدأ كل شيء من الصفر ، وحتى لا تحدث آثار عكسية ، أُعدّ لها بعد ، في التفاحة يومها ، لا بد من خطة جذرية.

يتمكن الجزائري ، العبد الفقير ، أنا الولهان ، منها ، القدرة ، ويروح يزرعها شيئا فشيئا فـي الأجيـال ، بواسطة أرحام آلاف النساء.

الطريقة زيوسية محضة. لمسة يد.

بدل أب أفوس واحد ، أربعة أجنة ، أنثيان ، وذكران. يغادرون الأرحام في أربعة أشهر ، عـوض تسـعة أشهر. يخرجون واعين ، ملمين بجميع أسرار الكون ، ينطقون بكل لغات العالم ، وثيقي الاتصال الكهربـائي ، بواسطة جميع أنواع الأشعة الموصلة ، سالبة وموجبة ، بالأب الجزائري ، وبالذات الكهربية الكونية. يمشون من أول نزولهم ، ويتناسلون بعد سنتين.

يفنى البشر المسحورون بالتدرج ، وتمتلئ الدنيا أرضا وكواكب ونجوما ، بالجنس الجزائري الخالد.

ذالكم هو المخطط ، على المدى البعيد. المدى الشامل. أما على المدى القريب الآني ، فلا بد من مجابهـة ، المشاكل أيضا. والقضاء على كل مصادر التوتر ، حسب تعبير السياسيين. بيت القصيد هنا.

كل ما سبق ، إن هو إلا تصورات ليلية متنوعة ، عن الإمكانيات المخزونة في الـذات الكهربيـة للكـون. بالإمكان التنوع فيها، وتغيير تفاصيلها ، وتجزيء جزئياتها ، ليس في كل ليلة فحسب ، وإنما في كل لحظة من لحظات الليل ، عسير النوم.

الاختراع تم. الخيط الكهربي المخفي في اليد ، التحسين في الإمكانية ، عملية روتينية. إنمـا المهـم. الآن. الليلية. كل ليلة. هو الشروع في القضاء ، على مصدر الأرق.

يبدأ أحد الأطباق الطائرة في عزل الأجرام الفضائية الأمريكية ، عن الرؤية ، وعن كـل اتصـال آخـر. العملية سهلة ، مع هذه اللعب ، بدائية الصنع ، لفحها بإشعاع مقتضب ، يكفيها ، تعطيل أجهزتها ، وتركها تسبح عمياء ، صماء ، وأصحابها من تحت يلحون عليها في طلب العون، ويستنجدونها معطيات عـن الوضـع، لـن تأتيهم، بدل تحطيمها. في الإمكان تكثيف الإشعاع قليلا، فتذوب، وتضيع هباء في الكون. لكن أنـا فـي حاجـة أخرى إليها ، فيما بعد.

العملية التالية، هي اختطافهم. أبي عمار، جورج حبش، نايف حواتمة ، أبي نضال، وجميع آباء الحركـات والفصائل المسلحة. العملية أسهل ما تكون، التسمع، إلى خيوط وأمواج الهاتف، ساعة واحـدة، تكفـي لرصـد أمكنتهم، وحتى تسليط الأشعة عليهم، وتصويرهم بالألوان، فالعقل البدوي فيهم، لا يزال يصور لهم أن الهـاتف جند في خدمتهم وحدهم، وأن ما يقولونه فيه، لا يبلغ أعداءهم، وإن وصلهم، فهم لن يفهمـوه، وإن كـان جليـا واضحا. وفي الشرق قيل ويقال *في البدء كانت الكلمة.*

أتفرد بهم، في فضاء الزهرة أو الجوزاء، أو الحمل، وأتفق معهم على الأمر الجوهري.

- اضمنوا لي تجريد اللاجئين من السلاح، أضمن لكم عودتهم، إلى الأرض ، وتحريرها مباشرة.

- هذه مؤامرة على الثورة. أيلول أبيض.

قال أحدهم فأضاف الثاني:

- ولماذا استعمال عبارة اللاجئين ، بالذات ، تجاه شعبنا العربي الفلسطيني؟

قاطعه أحدهم:

- إن المقصود على ما نفهم من هذا العرض ، هو حل الحركات ، والتنظيمات والفصـائل. المسـألة أيهـا الرفاق ، واضحة وضوح الشمس ، في رابعة النهار.

- المسألة أيها السادة ، لا تعني ، أكثر من محاولة لتهدئة الأعصاب. إن مشروعنا ، يعني ، إحداث تغييـر جذري ، لمجرى التاريخ في المنطقة.

- والله العظيم ، ثلاثة ، أنا من طبعي...

- لم يتمم أبو عمار الجملة ، التي بدأها ، ثم ابتلعها.

- من طبعك مسالم. قلها يا أبا عمار. *مهما تكن عندي امرىء من خليقة ، وإن خالها تخفى علـى النـاس تعلم.*

علق أبو نضال ، فرد فورا عليه:

- أنا لم أقل ذلك ، إنما أنتم دائما ، سيئو الظن في شخصي ، وتزايدون ، علـي الوطنيـة ، والثوريـة ، والعمل المسلح. إنما في الحقيقة أردت أن أقول ، وليشهد أخي الجزائري ، المجاهد ، على ذلـك. إننـي ضـد اختطاف الطائرات ، وضد الإرهاب. ولقد أرسلت إلى صديقي العزيز ، جيمي...

- نحن لسنا في ضيافة أمريكا ، على ما أفهم!

- المعذرة. زلة لسان.

- ومتى يتم هذا التحرير؟

كان السؤال لجورج حبش ، فصادق عليه أبو عمار ، بإيماءة مستحثة ، من كامل نصف جسـده العلـوي ، جعلته ، لولا الضحكة الكبرى من عينيه ، التي تفقده كل مرة وقاره ، يبدو ، كما لو أنه صيني أو ياباني.

- بعد أربع وعشرين ساعة.

- هل بالإمكان معرفة بعض التفاصيل ، حتى تسهم جميع وحداتنا ، في هذه المعركة الحاسمة؟ لابـد مـن دمقرطة المعركة ، وفلسطنتها ، ما دامت ، تعربنت.

تساءل نايف ، فلم يأته أي جواب.

ها أنني من جديد في الأرض. الزعماء ركبوا الأشعة ، وعاد كل منهم إلى موقعه ، لا أحد منهم ، باستثناء ، أبي عمار ، يميز بين الحقيقة والحلم ، في كل ما سبق أن سمعه ، ورآه ، وقاله.

- سأصدق ، وإن كانت أضغاث أحلام ، ظل أبو عمار يؤكد لنفسه.

كان ذلك في النصف ساعة الأولى ، من العودة. وبعد تبادل الاتصالات بين القيادات ، راحت ، كمـا كـان مقدرا ، ومبيتا ، تماما ، أجهزة الهاتف والاتصالات بجميع أنواعها ، تتبادل المواعيد ، بعد أربع وعشرين ساعة ، في القدس ، وحيفا ، وتل أبيب ، وتتبادل التهاني بالنصر الموعود.

وبالمقابل ، عادت الأجرام الفضائية الأمريكية ، إلى العمل ، وراحت أعينها ، تحدق فـي منطقـة الشـرق

الأوسط ، شبرا فشبرا ، تبحث عن جحافل الجيوش العربية ، والسوفياتية ، والهندية ، والباكستانية ، وكل الدول الإسلامية والاشتراكية ، التي تزحف على فلسطين ، الأمر الذي جعل الفلسطينيين ، يتحدثون بهذه الثقة ، وبهـذه الاستهانة ، بميزان القوى ، الإقليمي والدولي.

في ذات الوقت ، تنعقد ندوة صحفية ، فريدة من نوعها ، في تاريخ السياسة والحروب.

البيان الصحفي كان في غاية من الإيجاز... ابتداء من الغد ، ولمدى أسبوع ، يتم القضاء ، علـى الكيـان الصهيوني ، وتوحيد فلسطين والأردن ، ولبنان من جهة ، وسورية والعراق والأقاليم المجـاورة ، مـن جهـة أخرى ، كأساس أولي ، للكونفيدرالية العربية ، التي ستنجز في آخر الأسبوع.

يا جماهير الأرض المحتلة ، يستطرد البيان ، عليكم ، بدءا من الساعة الثامنة والنصف ، من صباح نهـار الغد ، أن تتوجهوا إلى جميع الثكنات والوحدات ، والمطارات ، لتجمعوا العتاد والعباد.

العدو الآن ، أعزل مثله مثلكم ، والعملية ، ينبغي أن تتم في تمام منتصف النهار. التوقيت الوارد في هـذا البيان ، غرينيتشي ، كما لا يخفى عنكم ، فعدلوا ساعاتكم ، منذ اللحظة.

- نحن نريدها ، وحدة شاملة ، كاملة ، اندماجية ، من المحيط إلى الخليج ، فلماذا هذا التخاذل ، وإعـلان الكونفيدرالية؟ هذه خيانة. أنا صحفي من...

- أنت صحفي عربي ، وهذا يكفي. لا ضرورة للتفاصيل. سيكون المجال ، أرحب ، بعد أسـبوع. ألـيس كذلك؟

- هو كذلك ، إنما ، وللتاريخ والحقيقة ، فإن...

- الولايات المتحدة الأمريكية وال. أ. س. أي هل قرأتم لها حسابا في هذا المشروع العربي الضـخم ، أم أن هذا الإنجاز موكل في مناقصة دولية إليها...؟!

كانت صيغة السؤال مثل اللهجة الملقى بها ، في غاية السخرية، حتى أنه أثار ابتسام الجميع ، بما في ذلـك الصحفيون العرب. غير أن الجواب ، كان في منتهى الهدوء والحسم.

- ستكون كل الأسلحة الغربية ، التي تدخل المعركة ، هدية لمتحف الأسلحة الكلاسيكية ، الكونفيدرالي.

انتظروا أيها السادة ، البلاغ الحربي ، رقم اثنين ، في منتصف نهار الغد.

- وهل هذا هو البلاغ رقم واحد؟

ها هنا يداهم النوم أحيان كثيرة ، حضرة المستشار ، فيظل في المرحلة الأولى ، بين مستيقظ ونائم ، بـين مخترع عبقري ، يمارس الإضافة ، وبين نائم ، على عتبات الاستغراق ، إن لم يوقظه شخص ما ، أو أمر مـا. كما أنه من الجائز أن يكون ، نام قبل ذلك ، عند النظرة المُمتنّة ، لأبي عمار ، وهو يعانق مودعـا ، وكأنمـا يستصفح ، عما يكون قد بدر منه من إساءة ، أو خطأ ، في حق الغير ، أو على الأقل ، ما يمكن أن يفهم ، على أنه ، كذلك.

مهما يكن من أمر ، فإن الحلم كامل ، بكل تفاصيله ، وجزئياته، ودقائقه ، بما في ذلك استدراج الولايات المتحدة الأمريكية ، بالإعلان عن التوقيت المضبوط لبدء المعركة ، إلى جانب التكليف غير المباشر ، للفلسطينيين ، بإذاعة الخبر ، ما يتيح لها الوقت الكافي ، لجمع أقصى ما يمكن ، من البوارج وحاملات الطائرات ، وغواصات، وقاذفات صواريخ نووية ، ومشوشات على الردارات ، والراديوهات ، والأقمار ، إلى غير ذلك ، مما يمكن أن يستنفر ، من القواعد المنتشرة في كل مكان. خاصة بالمنطقة العربية.

يطوف طبق طائر أبيض شفاف، ليس في إمكان أية آلة، تصويره، أو ضبطه، حتى العين المجردة، لا تستطيع التحديق فيه أكثر من بعض ثوان، ذاك أن نوره، مبهر، وأن الأشعة التي يرسلها، مخدرة. يرسل أشعة، عبر أمواج سرعة الحلم، فيتمغنط كل شيء، ويلتصق ببعضه البعض، عائدا إلى حالة المادة الأولية، تأتي بعد لحظات قصيرة، الأطباق العملاقة، لتحمل الجنود والضباط إلى مخابر العلاج، حيث تثار في أمخاخهم، خلايا الإنسانية، فتتغلب عن خلايا حيوانية، ليتخذ الموت والقتل والدم والظلم والقهر، معانيه الحقيقية في أذهانهم، ويلتحقوا بمستوى الإنسان المتحضر. الإنسان الإنسان، المتدرج باستمرار، نحو الألوهية.

يطلق سراحهم، فيقترحون من تلقاء أنفسهم، القيام بعمليات نقل أدوات الدمار التي كانوا يقودونها إلى المتحف الكونفيدرالي، وأن يظلوا هناك أدلاء للسواح والزوار، من مختلف العالم.

مسألة الرؤساء والملوك، ومسألة اليهود، غالبا ما تكونان، اللمسة الأخيرة، التي قد تتأجل من ليلة لأخرى، نظرا إلى مفعولها القوي في التعجيل بالنوم.

يراها، حضرة المستشار، ماثلة، كاملة بين عينيه، في الظلمة. يبتسم لها، ولكن يحلو له أن لا يدخل في تفاصيلها، إلا إذا كان فعلا مؤرقا.

التفاصيل باختصار شديد، هي، بعد أن يقطع سعد حداد، كامل تراب الكونفدارلية ، من المحيط إلى الخليج، حبوا، تكفيرا عن ذنب كل الخونة العرب، وتطهيرا لهم، ليعودوا إلى الحظيرة... يتم تنصيب كل الرؤساء والملوك والأمراء، حجابا في قصر الكونفدرالية العظيم، بعضهم أمام حظيرة السيارات، ينظمون توقفها ويحرسونها من أي اشتعال محتمل، ويزيلون الأغبرة عن بعضها. آخرون، في مدخل المقر العام، وفي مدخل كل طابق، الأرضي، فالأول فالثاني إلى منتهى الطوابق. غيرهم، رسل بين الطوابق. أما من يحسن القراءة والكتابة منهم، فيكلف بملء الاستمارات للزوار، أو بتوزيع الصحف وقطع برقيات التيليكسات، والفاكسات، أو حتى بتوزيع القهوة العربية والشاي، وصيانة مخزونات الثلاجات في هذا الطابق أو ذاك.

المهم أن يظلوا على السطح، في متناول نظر الجميع، فالصينيون قالوا قديما، *من يغب عن الأنظار ينسه الناس*.

تكون العملية الأخرى قد تمت أو على الوشك ، طبق ركاب أو اثنان، وعدة أطباق متاع، يكفي لنقل جميع اليهود غير العرب، إلى جزيرة ما، في محيط من المحيطات، لإنشاء دولة هنالك، تمون يوميا، وحتى تستقيم

مقوماتها، من طرف الكونفدرالية.

طبعا. ليس بمثل هذه السهولة، فما المسألة، إلا مسألة اختصار وتلخيص.

لابد من محاكمة، ولو رمزية لبيغن ، ودايان. تنقل ألأطباق تفاصيل المحاكمة التي لابد وأن تستغرق عـدة أشهر، إلى جميع أنحاء العالم، في بث مباشر. التهم والمناقشات، والحيثيات، والأسئلة، تستغرق بدورها، ليـالي كاملة، وتساوي في مجموعها، عدة كيلوغرامات من الحبوب المنومة. لكن لابد من إيراد السؤال المهم الموجـه للمتهم الرئيسي بيغن ، كرمز للصهيونية: هل أنت إنسان حقا أم لا؟ هل الناس الآخرون جزء من الإنسـانية، أم لا؟ يدرك اللعين سر السؤال، ويطلب مهلة تفكير، تطول المهلة أسابيع، ثم يعلـن إثرهـا المـتهم الرئيسـي أن الجواب، يتعداه، وأنه من اختصاص الأنبياء وحدهم، وإن هو إلا واحد من شعب الله المختار.

بعد مداولات هيئة المحكمة، يعلن الرئيس، القرار التالي: حكم على الصهيونية في شخص المتهمين بـيغن ، وموشي دايان، بالحياة، في أية بقعة من العالم، يختارانها، ماعدا الجزيرة، وبالوقوف، عند جدار المبكـى، سـبع مرات في السنة. تكاليف النقل والإقامة، تتحملها الكونفدرالية. وحكم على اليهود الوافدين من خـارج فلسـطين، بمغادرة جميع مدن العالم، والإقامة، في جزيرتهم، وتحمل مسؤولياتهم، كقوم يزعمون أنهم شعب. أمـا اليهـود العرب، وبقطع النظر عن الماضي السياسي، القريب والبعيد، لكل واحـد مـنهم، وعـن الخـدمات العسـكرية التطوعية، والقسرية التي أدوها، فيما كان يسمى بدولة إسرائيل، وفي انتظار إيقاظ خلايا الإنسان في أمخـاخهم، فالحكم في حقهم، هو هذا: المنع البات من ممارسة أي نوع من التجارة، ومن امتلاك الحمام الزاجل، والترغلة ، والقطاة ، ومن إعطاء المهور، عند تزويج بناتهم، وكذا بحضور محاضرات يومية يلقيها الأستاذ نايف حواتمـة. التوقيت واختيار القاعات، يتفق فيه الأستاذ المحاضر مع الأحبار، بكل ديمقراطية.

جزئية، عملية إخضاع أمريكيا الشمالية، إلى ظروف أمريكا الجنوبية، وتصحيح النظرة البشرية، للـدولار، بحد ذاتها، حكاية، تستغرق ليالي برمتها، وتزن قناطير من حبوب النوم. فما عملية الشرق ألأوسط، سوى تمهيد أولي، لتطبيع بشرية البشر، وتحقيق الذات الكهربية للكون، وباختصار مراحلها.

الإنسان واصل، لا محالة، إلى هذا المستوى، لكن، بعد حقب وحقب، تجف البحار، تموت النباتات، تتوقـف بعض الحواس والأعضاء، كالأيدي، والأصابع، والأقدام، والأجهزة الهضمية عن العمل، ينقرض الحيـوان مـن كل نوع. أما الكائن البشري، فيضطر إلى تركيز تفكيره في مصيره.

يومذاك ، تجف الغشاوات اللزجة، في الدماغ. تزول مواد السحر التفاحية العازلة، وتنبض ملايين الخلايا.

يتوحد الإنسان مع الكون أو بالتدقيق يكتسب كينونته، ويتأله. يتم وضع حد نهائي، لما أسماه الأولون، بالمثل أو عالم المثل، أو ما شابه ذلك. وتتجلى الجبة، وما فيها.

بفضل كارل ماكس، وويليام جيمس، والجزائري، حضرة المستشار، وبعـض الإشـارات الـواردة، فـي الاتصالات الإنسانية البدائية، بالسماء، وكذا بعض تخمينات تروتسكي، حول الثورة الدائمة، أمكن اختصار كثير

من الأشواط والمراحل، بل واستباق أحداث التغييرات الجيولوجية، والتحكم فيها.

فيما يخص أمريكا بالذات، تنتصب الأطباق الجزائرية، بالعدد الضروري، فوق كل المدن والقرى والمصانع المنعزلة.

تنقطع أجهزة البث بمختلف أنواعها، ينطلق الإنذار الأول:

"أيها الأمريكيون، ليس أمامكم، سوى ساعة واحدة لمغادرة المصاعد، وتـرك الأبـواب، جميـع الأبـواب مفتوحة، ومغادرة البوارج والطائرات والسيارات، وكل ملجأ، له طابع ميكانيكي، وكل ما هو معدني، متحـرك. أسرعوا لمواجهة التجربة".

تستثار العنهجية الأمريكية. تتحرك آلاف الطائرات. تطير. تنطلق ملايين الصواريخ. ينتشر سواد غمـامي. تنتهي المهلة.

يتأكد الجميع من لا جدوى وسائل الهجوم والدفاع البدائية، ذات الطابع التدميري ، ومن أن كل الملاييـر ، من الأموال المنفقة فيها ، كانت عبث أطفال بخبز الإنسان.

تتعطل السيارات. الدرجات. البواخر. المصاعد. الدرج الكهربائي. البـواب. النوافـذ المحركـات بجميـع طاقاتها. الأقفال الحديدية. تنطفئ الأنوار.

تنقضي سبع ساعات على هذا المنوال. يتجدد النداء مرة ثانية.

" أيها الأمريكيون. العلم الأبيض الذي يتوجب ، أن ينتصب فوق جميع البنايات ، وفـي جميـع الشـرفات والنوافذ ، معناه:

تسليم كل ما لديكم من مخزونات حربية ، لتلقى في الفضاء الخارجي ، للمجموعة الشمسية التاسعة ، استباقا للكارثة.

إغلاق جميع مصانع السلاح ، بجميع أنواعه ، ومصانع الشوينقوم ، والويسكي ونظارات رايبان.

إعلان استقلال جميع الولايات.

تغيير علاقات الإنتاج ، حسب المبدأ المعروف ، من كل حسب عمله ، ولكل حسب مقدرته وكفاءته.

أيها الأمريكيون ، أمامكم ساعة واحدة ".

يتعنت البانتاغون والبيت الأبيض ، فلا يرتفع العلم الأبيض ، فوقهما ، لكن باقي الأمـريكيين ، يسـتجيبون للنداء ، وأكثر من ذلك يتطوعون ، ليسهموا بحماس ، في شحن القاذورات المدمرة ، داخل الأطباق العملاقـة ، لتنطلق الحركة الطباقية السريعة ، بين الأرض وفضاء المجموعة الشمسية التاسعة.

في تلكم اللحظات الخالدة ، تكون جميع البورصات في العالم ، تسجل السقوط السـريع للـدولار ، وتعلـن المكاتب السياسية ، للأحزاب الشيوعية في العالم الاشتراكي ، عن قرارها بإغلاق " البريوسـكات "، ومحـلات البيع بالعملة الصعبة ، ويقذف جميع الناس في العالم الثالث، ما في أفواههم من شوينغوم ، أو ويسكي ، وتعلـن

الجزائر عاصمة الكونفيديرالية ، عن سقوط النفط والغاز ، كطاقة محركة ، أمام الطاقة الجديـدة ، المجانيـة ، المتوفرة في الكون ، والإمكانيات السهلة والمجانية ، لتحويل كل محرك جرار أو دافع ، مهما كان نوعـه إلـى الاشتغال بهذه الطاقة.

يظل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، السابقة ، حبيسا في المصعد بين الطوابق ، مستنجدا بكل العبارات ، الأمريكية الوضيعة.

يفك الحصار ، يوجه إنذار جديد. يعاد الحصار. يتقدم المواطنون الأمريكيون إلى البيت الأبيض وإلى جميع مؤسساته ، ويرفعون أعلاما بيضاء ضخمة. تحل الطمأنينة ، ترتخي العضلات. تهدأ الأعصاب. ينـام حضـرة المستشار بسلام ، متغلبا على وجد العشق ، لعمود الهاتف ، بكل حماسته ، وعظمته ، ورنين الخيوط المعلقة به ، وعلى جراحات النفي من المسرح ، بأنواره وستائره ، وحباله ، وعماله ، وممثليه ، وإخفاقـاتهم الصـغيرة ، ونجاحاتهم المؤجلة من ليلة لأخرى ، واصطخابات الأكف التي تبدو في كل مرة، أقوى وأصـدق بكثيـر مـن المرات السابقة ، وعذابات الضمير من الموقف النذل من الشيوعيين ، وسياط الزبانية كل يوم ، فـي الـوزارة، وبكل إيجاز ، ما تشكل في الختام ، في جيم رخوة ، لزجة ، ونون أخطبوطية ، عنيدة.

الحلم. هكذا بلا شروح ، بلا نعوت ، بلا تعليقات ، وبدون حماسة ، بالصيغة الممارس بهـا ، لحـد الآن ، وفي هذه الليلة بالذات التي يأبى فيها طائر النوم التحويم -كما يقال- الحلم موجز جدا.

لعل التشوش الخاص ، أو الاضطراب النوعي العارض ، ولاشك ، والتهيج العشـقي للأعصـاب، جعلتـه يلخص إلى هذا الحد ، وبهذا الشكل الممل.

المسألة ، ربما ، فيها قليل من الرتابة ، إذ أنه بالنسبة لحضرة المستشار ، مفرغ من كل ابتكار ، وبالتـالي من كل لذة ، لقد كان ذلك ثمرة السنوات الأولى من الوعي الوطني والقومي والأممي ، ومن التـوهج العـاطفي والثوري ، ومن تفتح عبقرية الاختراع ، والحضور الإضافي.

نقطة واحدة ، لم تحل إشكالياتها ، طوال سنوات الطوبى . التفكير فيها ، لا يؤدي إلى نتائج حاسمة. لا يتقدم حتى إلى آفاق واضحة.

ما العمل بأبي عمار؟

من أية زاوية ، يجب أن ُينظر إليها؟ هل يمكن اعتباره ملكا ، أم رئيسا ، أم أميرا ، أم زعيما؟

هل يمكن بحال من الأحوال ، التجرد من العاطفة الإنسانية في هذه القضية؟

فلسطينيا ، لا يمكن طرح السؤال مطلقا ، لأن الذاتيات ، هاهنا ، ستناقض حكمة الذئب المشـهورة "الـي *تتلفته أجريه*".

لن يكون حاجبا أو ر سيلا بين الطوابق بكل تأكيد.

لن يكون مرشحا ، لعضوية أية بلدية ، ولا قائدا عاما ، حتى لفرقة أشبال ، أو رجال مطافئ في غزة ، لن

يجد الصبر الكافي ، للانزواء في مكان ما ، وتسجيل مذكراته ، ومراجعة حسابات المصارف.

لن يسمح ناجي علو ش ، بإسناد مهمة تدريب الرؤساء والملوك، على مهامهم الجديدة ، علـى التواضـع ، والابتسام ، والانحناء ، لأبي عمار ، مهما كان الأمر.

أبو عمار مرحلة ، مهما توجّب اجتيازها ، فلا بد من تسجيلها تاريخيا.

تعيينه مندوبا ساميا ، أو حتى سفيرا فوق العادة للكونفيدرالية ، لدى " الدولة الجزايريـة " ، لـن يكـون ذا جدوى ، لأن ما يحتاجه العرب يوم ذاك ، وفي المراحل الأولى على الأقل ، هو الإصغاء الجيد ، وليس الخطب الرنانة .

تبقى- كالعادة - مسألة أبي عمار معلقة إلى الليلة القادمة ، وإلى كل ليلة ، وإذا ما حدث ، وهذا مستبعد جدا ، جدا ، في ليلة ما ، فستكون ، مثل كل حديث الليل ، *" زبدة ، يطلع النهار ، وتذوب"* .

نظرة فابتسام...

الصباح رباح .

الساعة السوفياتية ، لم تطن الست طنات بعد ، بينما أنهي اللمسات الأخيرة ، من استعدادات الصباح العادية ، بالنسبة ، لكل موظف سام ، وأضاف إليها ، تطبيق التعليمات التي تلقاها.

حلق الذقن ، بدقة ، وبإصرار غير عاديين ، تعطر في كل موضع من جسده ، من قارورة العطر ، أهديت له في أيام المجد ، من إحدى المعجبات ، ضمن باقة ورد ضخمة. ارتدى القميص الأبيض الحريـري ، الـذي ارتداه في آخر سفرة إلى المشرق العربي ، على رأس الفرقة. سوى ربطة العنق الفراشية السوداء. مرر الفرشاة اللادنة بعناية ، على عنق السترة "السموكينغ" ، يزيل غبار السنين ، الذي يكون لا محالة ، قد علق بهـا ، رغـم الاحتياطات الصارمة التي تتخذها فجرية ، في مثل هذه المسائل ، ارتداها ، وواجه المرآة الطويلة:

- أيامها ، في مثل تلكم الحالات التي يقول المرء في سره ، عنها ، مهما كانت اللحظات قصيرة ، ومهمـا كانت الغبطة عابرة ، يكفيني أنني عشتها ، يكفي أن هذا الحلم لذيذ. الفنان في حالة توهج ، ليس سوى عصفور في حالة طيران ، مشدود ، للمواطن التي تناديه للهجرة.

ستصل. ستصل ، كابد. كابد. ما المعاناة ، أمام بهجة اللقاء ، وروعة الاكتشاف؟ طِرْ يا حبيبي طِرْ ، فمـا أقصر المسافة بيني وبينك ، وأنت تطير. هذه خفقة قلبي إليك. هذا التهاب أكفي إعجابا بك. هذه زهرة ، ضـمن باقة ورد ، حملتها شوقي وصبابتي. هذه نظرتي الو لهى ، شهادة على أنك ، نبيي وإلهي الذي ، يختلـف عـن أنبياء ، وآلهة كل الناس ، الذي لا يضاهيه نبي أو إله آخر.

جانب المرآة ، بعد أن قابله نصفه السفلي العاري ، وراح يشمت يتبجح ، في الحذاء والسروال:

- اليوم أستريح منك.

كان يعني ما يقول ، وعلى وعي تام بالفرق بين عبارتي أستريح، وتستريحين ، بل ، إن في ذلك قدرا غير قليل من الانتهازية، أو بالأصح ، من مجاملة ، للمحبوب.

أدخل أطراف القميص الحريري ، في التبان ، ثم تراجع مستاء، كأنما يجرم نفسه ، نزع التبان بدوره.

- عندما قال ، استرح من التسرول. كان يعني ما يقول ، ويعني ما يريد. يجب تنفيذ الأمر بنصه ، وبروحه ، وبكل دقة.

أطفأ الأنوار. أغلق باب المدخل الرئيسي بالمفتاح. خرج إلى الشارع. ملأ صدره بهواء الصـباح النقـي ، ولفحت وجهه الحليق ونصفه السفلي العاري ، نسمة باردة.

" نادرا ما يشعر المرء بالسعادة ، في هذا الوجود الآسن ، وقليلة هي لحظات الرضا عن الـنفس ، وعمـا

يحيط بها ، والامتنان بوجود كل ما هو موجود في الكون ، والشعور بصلتنا القوية بـه ، بمنفعتنـا المتبادلـة ، بضرورة تبادل المنفعة إن اليوم وإن غدا.

آه. ما أروع هذا الصباح! ما أجمل فكرة أن أخرج في هذا الوقت بالذات!

اندفع خابا ، شبه مستسلم لانحدار الشارع المظلم ، ليعرج بعد حوالي خمسمائة متر إلى اليمين ، ثـم إلـى اليسار مباشرة ، مراعيا ملازمة حافة الجادة ، رغم إزعاجات أشجار الزيتون البرية ، والأحراش المنتشرة فـي فوضى بين كل شجرة وأخرى ، فرغم أن الليل ما يزال متواصلا ، وأن السيارات ، لا يمكنها أن تسـير بـدون الإنارة ، فالرد اللاشعوري لكل من يعرف المنطقة ، عندما يسلك هذا الدرب ، أن يتفـادى انخـداع السـواق ، باستقامة الطريق ، وبسعته وخلوه ، ناسين الراجلين والكلاب المهجورة ، وكل ما يمكن أن يصادفهم فـي أحـد الالتواءات.

كم من حادث مرور ، مميت ، وقع ها هنا ، فعلى المرء أن يحافظ على حياته ، خاصة عندما يكون لهـذه الحياة ، معنى ، ربما لأول مرة ، وعندما تكون شمعات روحه ، متوهجة ، تنير دهليز البحث ، عما هو أكثـر من الأمل. تحقق الذات ، في اكتشاف ذات أخرى ، لها التطابق الكامل ، في النظرة ، في المفاهيم ، في الذوق ، في الشعور ، في الاستخلاص الماكر السريع ، لكل ما هو خاص في الناس والأشياء والقبلة ، فـي الارتبـاط ، بمعالم الرؤية ، بموجة واحدة، لا يطرقها طارق آخر.

بعد نهاية المنحدر ، يأتي الجسر الحوال ، ثم الطريق المزدوج. حزام الجزائر الذي لم يشـرع بعـد فـي الالتفاف حول خصرها ، أو بالأصح ، على وركيها ، فالجزائر ليس لها خصر ، لأنها ، بقدر مـا يحـاولون أن يجعلوها مستديرة ، تتحداهم فتتطاول في أحضان البحر.

هناك.

هناك في المنبسط ، ينتصب الحبيب.

في الإمكان الآن ، إغماض العينين ، وقطع المسافة ، بلا أي خطإ ، أو خوف من محذور الطريق.

كيف يمكن أن يحدث ذلك ، وهو يقودني. يمسك بيدي يهديني.

يرسل نورا مشعا. ينير كل خطوة من خطواتي. يهمس: لا ، ليس من هناك ، بل من هنا ، قليلا إلـى اليسـار ، واصل أماما ، انعراجا صغيرا إلى اليمين ، ثم استقامة. أدر الرجل اليسرى قليلا ، نحو اليسار ،أتبعها بـاليمنى؟ أكثر من كل شيء ، إنه يتحول إلى أنا ، وأنا أتحول إلى هو.

ومهما كانت عيناي مغمضتين ، فإننا نرى ونبصر الطريق.

هاهو. دونها كلها ، يشمخ ، متألقا. يمسك زمام الأمور بيد مقتدرة.

صاحبي وحبيبي.

يومئ. إنه يومئ إلي ، تلك الإيماءة الربانية ، التي لا تتعدى بعث الحماس في ذهن المعني ، بأنـه هـو ،

بالذات المعني ، وليس أحدا آخر غيره.

رآني.

لقد رآني. كان يراني ، قبل أن أصل. كان منذ الأزل يراني. نظَرُنا يرتبط. إحساسنا ببعضنا يرتبط.

لا شك أن بهجة داخلية ما تعتور نفسه النبيلة ، وهو يجدني في أتم الامتثال.

يا حبيبي ، ها أنني ، كما ابتغيت واشتهيت ، حافيا غير مسرول ، أعلن أن لا موجود ، له أهمية ، سواك ، ولا اعتبار إلا لمرضاتك.

بعض سحب في الأفق. لا يهم. "*اللي بقى في الدار يدفع كراها*".

لقد مر ما هو أدهى من ذلك ، ولم يثر الاهتمام ، ولا الاكتراث.

الريح مزيج من شرقية وشمالية ، ينذر توترها بأنها ستشتد. ليكن.

أنوار السيارات بدأت تخفت. كلاب المنطقة كلها ، تلتفت حول كلبة . أحدها ، قرر التفـرد بالعمليـة. لقـد سمحت له. ربما كانت ، ستسمح بذلك ، لكل من صادف ، وبلغ المأتى. ربما كان ذلك ، نتيجة اقتناع وتسليم من طرف الجميع.

العماء الآن ، يصيبهما معا. الجنون يملؤهما ، في حين يكتفي غيرهما ، بسكر الرائحة.

حالة يزيد بن معاوية ، عند المسبح ، قبل أن يزأر ، بأخته سلمى: فاز باللذة الجسور.

المجنون.

أية كلمات ، تكفي لتحيتك.

أية سجلات ، تستوعب مكنون الصدر؟

أيها المعشوق الجليل. الكلمات لا تصدر في حالات اللقاء هذه. لا تتشكل حتى في الداخل ، والكائن يعود إلى بدء طفولته ، يبحث عن أصوات تتجمع لتؤشر إلى انطباع الشيء في ذهنه ، والذي علم الأسماء كلها ، لخـص أعظم أسرار الكون ، في حاء وباء.

أحبك. أحبك.

يكفي أن العاشق هنا ، وأن المعشوق في الزمان والمكان ، وأن الرضا يرفرف على الروح.

كم كانت هذه الطريق إلى هذه الذروة ، شاقة. وكم كانت المعاناة لذيذة!.

لفت انتباه حضرة المستشار ، أول مرة هذه ثلاث سنوات ، كان يومها عائدا من الوزارة ، وبالضبط ، إثـر استشارة خاصة ، طلبها سعادة الوزير.

- بين يدي ، وثيقة مرعبة ، تحوي أسماء الطلبة والطالبات ، والأساتذة الشـيوعيين ، وأمـاكن وجـداول اجتماعاتهم ، ومخططاتهم في الزحف على الأرياف الجزائرية. لا يعلم سواي بهذه الوثيقة ، ولم أطلع أحدا عليها قبلك. أريد رأيك ، ليس كمستشار ، وإنما كأستاذ وكصديق. مهما كانت إمكانيـاتي ، ومـؤهلاتي ، فتجربتـي

السياسية قليلة ، ثم إن الجو الذي نحياه ، يفرض الحيطة من كل شيء ، ولأي شيء. أنا لا أريد تصرفا ، أحمق في مثل هذه القضية. هاه ما رأيك؟

- الحل الوحيد يا سعادة الوزير ، أن تبلغها لسيادته ، في لقاء عاجل. مسؤولية وثيقة كهذه ، لا يمكـن أن تتحملها سوى القيادة الثورية.

- لسيادته مباشرة!

- فرصة أيضا ، للتفرد به ، والرد على بعض الخصوم ، بأنك ما تزال في أوج قوتك.

- ألا يجوز إخفاء الوثيقة. حرقها أو إتلافها. على الأقل ، إعادتها بالطريقة التي أخذت بها إلى أصـحابها؟ إن التحسب للمستقبل، واجب ، خاصة وأنه يشاع ، أن سيادته في شبه حوار شخصي معهم، بـل ، لقـد شـاهد الناس بعض المتخفين منهم ، في شبابيك الولاية ، يستخرجون جوازات سفر. وأذكر أنه في خطابـه الأخيـر ، لإطارات الأمة ، استعمل عبارة "*إخواننا الشيوعيين*". رغم أن الكثيرين ، لم يولوها اهتمامهم ، فقد رنـت فـي ذهني رنينا خاصا. ماذا تريدني أن أفعل ، أنا الموجود في وسط ، يعتبر في العالم أجمع ، وسطهم.

- هذا ما جعلني أفكر في أن لا تسلم لغير سيادته.

- ترى أن وقوعها بين أيدي غيره ، ربما يفسد بعض خطط سيادته؟

- لم أقل ذلك.

لم يخف خبثه. لم يتمكن من ذلك. حتى أن وجهه ، اعترته حمرة ، وبدا عليـه الاضـطراب ، مـا جعـل الاستشارة تتحول إلى استنطاق ، مهما كان لبقا ، فانه غير ذكي ، إطلاقا.

- مع أنه ممثل بارع ، لم يتمكن من إخفاء بعض الافتعال. خانته التلقائية. ذلك أنه لم يكن صـادقا... هـذا الرجل لن يصدق أبدا. هكذا يجب أن تؤخذ الأمور ، وإلا كيف يمكن أن يدور حديث مثل هذا ، مشحون بأسرار الدولة ، في أعلى مكتب ، بالبناية الموقرة ، بدون استعانة ، بقليل من الموسيقى؟ يا له من استبلاه.

قرر حضرة المستشار في سره ، ثم أضاف:

- اسمع يا سعادة الوزير. لا يسع موظف سام في الدولة ، تجاه مثل هذه القائمة ، ومهما تكن انتماءاته ، بل ، وحتى إن كان اسمه ، ضمنها ، إلا أن يبلغها لسيادته ، وعلى الفور العاجل. كرئيسي ، وكصديقي ، وكابني - كما تقول - أؤكد لك ، أنك تحرجني كثيرا. عندما تشركتني في حمل ربما أعجز عن تحمل ثقله.

أيكون حضرة المستشار ، بريئا إلى الحد الذي يتظاهر به؟ لا. القضية كلها ، أنه ممثل ، أكثر براعة منـي، اللعين يهددني ، بعدم السكوت عن السر ، ومن يدري ، ربما كان بدوره ، ومن أول يوم ، عضوا فـي إحـدى الشبكات التي تسير البلاد ، وتوجه مصائره؟ ربما ، كانت قضية إبعاده من المسرح ، ثم إشـعاري بـأن القيـادة الثورية ، تتمنى أن لا تراه ، يظهر في مظهر الضحية ، فمهما كان أمر ماضيه البعيد ، فله ماض وطني قريب مشرف.

من يدري؟

لا يا حضرة المستشار. السارق لا يسرق سارقا ، *واللي أكل خرفان الناس يحضر خرفانه*. مع أنني أعددت آلة التسجيل ، لكي لا يفلت خناقك مني ، فان استنجادي بك ، كان صادقا ، ولم يكن ، كما استخلصت ، استنطاقا بوليسيا. ربما ، كانت الصيغة غير لبقة ، لكن أؤكد لك ، أنني كنت في حاجة إلى رأيك. لا لأنك مستشاري فقط ، أو لأنك محل ثقتي ، لكن وأيضا ، لأنني أعرف ، أنك ستتصل بهم ، طال الزمن أم قصر ، وأنك ستبدي فـي يوم من الأيام شهادة فيّ. *يقّ والزمن يلقّي* ؟.

طلب الرئاسة فعلاً ، كان يبتسم وهو يفعل ذلك ، دون أن يأذن لحضرة المستشار بالانصراف ، كأنما يقـول له ، أترى أنني لم أكن أخدعك ، وأنني لم أكن قط ، أمثل. استأذن في مقابلة عاجلة لأمر خطير ، يتعلق بـأمن الدولة ، ربما تكون بهذا أعدت الكرة ، لمن يكونون ، قد قذفوا بها إليك ، لمعرفة مـدى مسـايرتك لتطـورات الأمور ، وانسجامك مع الخطط.

ودّعه معاليه بحرارة ، مؤكدا أنه لم يخطئ ، عندما التجأ إلى رأيه ، وأنه سجل أن حضرته لم يسأله ، كيف وقعت الوثيقة في يده، ولو فعل ذلك لأحرجه فعلا.

يومها تبدى المعشوق. كشف عن وجوده ، وقال إنني ها هنا. كيف لا تبصرني؟.

كان السائق يقود السيارة ، في طريق العودة ، بنفس الإيقاع وبنفس السرعة ، بل ، ويجب القـول، وبـنفس الرتابة التي تعذب سيزيف ، أكثر ما يعذبه الجهد البدني الذي يبذله. أسئلة كثيرة تطرح نفسها ، ولا تجد جوابـا. ما كان الموقف الصحيح ، في استشارة معاليه؟ ألم يكن من المفروض ، أن يثور حضرة المستشار ، قـائلا: إن للإهانة حدودا ، وإنه يمكن أن يستشار في كل شيء ، إلا في مثل هذه المسائل ، حتى من باب المجاملة واللباقة؟

لماذا أبدى بلادة حس ، تجاه الجرح الذي أوجع به القلب؟ الثمن الذي يطلبونه ، أخـذوه ، هـذه سـنوات ، فلماذا كل هذا التلاؤم والامتثال؟ أليست هذه خيانة ، تجاه رفاق الأمس البعيد ، ورفاق الغد المرتقب؟ هـل مـن المعقول أن يبدي كل هذه الحيادية ، تجاههم ، أما كان من الشرف ومن المروءة والكرامة السياسية ، أن يقـول: هؤلاء، مهما كان الأمر ، أقتسم معهم ، نفس الأفكار والآراء والمبادئ ، وبقطع النظر ، عن تواجدي بعيدا عنهم ، بحكم الظروف ، والرأي القاطع هو أن تحرق هذه الوثيقة ، وأن تقول لمن أعطاكها ، إنه كـذاب ومنـافق ، وملفق معلومات؟ لماذا كل هذه الاستقامة ، وهذا الوفاء لمؤسسات تعتبرني عدوا لها؟.

فجأة جذبته قوة خارقة ، أدارت الرأس إلى اليمين ، وفتحت الذهن. قابله ، تبدى !

مع أنه في طول وسمك ولون باقي الأعمدة ، ومع أنه مشدود بنفس الخيوط التي تشـدها ، فـان البصـر اختُطِف. انبهر. والقلب اهتز. حرارة ما صعدت إلى الصدر ، توقظ كل الحواس. خصلة ما ، يتفرد بها. وهج ما ، انبعث منه. سكن الروح. بل إن ما أراد أن يقوله ، كان في غاية الوضوح: كيف لا تبصرني يا حبيبـي؟ لـم يستعمل عبارة يا حبيبي بالضبط. لكن الأكيد أنه قصدها. ضمن شحنتها معناها. في الحقيقة ، لم يستعمل أية كلمة

، إنما ضمن وهجه ، ملايين الكلمات.

في الساعة الثانية ، وعندما كان يتوجه إلى المكتب ، حدث نفس الشيء ، مما اضطره ، ولأول مـرة ، أن يأمر السائق بالتخفيف من السرعة ، والتمهل قليلاً. هذا العمود . هذه الخشبة المنتصبة ، كائن خاص. حي. انـه شيء من لحم ودم. له عينان ، ويدان ورجلان ، و..... لا. انه ليس كذالك. إنه حي ، ولكن ربمـا هـو الحيـاة عينها. ربما مصدرها. ربما خزانُ ما في من حياة. ربما هو روحي.

- هل أنت بخير ، يا حضرة المستشار؟

لم يجبه وراح يهزأ من نفسه: نشوة الانتصار على سعادة الوزير، أسكرتك ، وجعلتك عاطفياً. لماذا لا ترى قوائم الجسر ، فخذي نجاة؟

انهمك في اجتماع مع مساعديه ، ونسيه. نسي المسألة كلها. بل إنه تذكرها مرة ، ليعبر عما يشعر به مـن تفاهة أوهامه. لقد رصد وهمه جيداً وهو يتذكر ، أنه تلاشى ، بمجرد دخول السيارة ، تحت الجسر الحوال . وما تذكره له الآن ، وسط الاجتماع ، سوى ورود خاطر بالصدفة. من قال إنه يسيطر عليه ، ويدق باب ذاكرتـه ، وفكره؟ وهْم.. وهْم . مجرد وهْم.

أكد عشرات المرات لنفسه ، واقتنع بأن الوهم هذا ، سيمحى هذا المساء بالذات من رأسه ، وقال لنفسه وهو يركب السيارة لآخر مرة في هذا اليوم التاريخي.

- ينبغي أن أتجاهله تماما.

وظل يحدث السائق ، على غير العادة ، في مواضيع لم يكن يطرقها ، أصلاً ، الأمر الذي لفت انتباه السائق ، وجعله يتأمله من حين لآخر ، كأنما ليتأكد من أن حضرته ، على أحسن ما يرام. طلب منه أن يذكر له أسماء أبنائه التسعة ، وأن يصف له كيف يتمكنون من العيش في غرفة واحدة ، ثم سأله ، وهذا ما أثار تعجب السـائق أكثر ، كم من مرة يجامع زوجته في الشهر. سكت السائق قليلاً ، وعندما أعاد حضرة المستشار السؤال ، ابتسم وقال ، نحن نحسب بالليلة ، وليس بالأسبوع أو بالشهر ، إنها تقول لي يجب أن تتعب معي حتى لا تطمـع فـي غيري ، عندما قلت لها إن من يتغدى كل يوم، ويتعشى ، البطاطس ، تنفتح شهيته لطبـق فاصـولية بهريسـة تونسية ، حتمت علي ليلتها ، أن أضاعف طبق البطاطس.

ما كاد يضحك ، وما كادت السيارة تخرج من الجسر ، حتى طلب منه التمهل.

- على رسلك. على رسلك. جمال هذه المنطقة ، يأخذني. على رسلك. تأمل السائق المنطقة ، وتأمله ، ثـم قال لنفسه ، هؤلاء السادة، المسؤولون ، المشبعون بالثقافة و العلم ، وما في الكتب ، بقدر مـا يبتعـدون عنـا يقتربون من الأطفال. يسألني كم مرة أنام مع زوجتي. ربما لهذا السبب بقي حتى الآن أعزب.

انجذب ! رآه. هو. بخصوصيته. بتفرديته. بهذه الهالة من الحياة التي تحيط به. بصوته. بإشاراته. بالجاذبية الغامرة ، المنبعثة منه. إنه يقف في الرأس. هنا في الفكر ، والذهن والقلب ، وليس على حافة الطريق. يقف في

كل ماضيّ ، وفي كل حاضري ، وفي كل غدي.

رغم تمهل السائق ، فقد مرت السيارة بسرعة ، سرعة خارقة ، كما تبين له ، فاضطر إلى الالتفات.

لم يتغير.

موقعه عادي بالنسبة لباقي الأعمدة. خط مستقيم على مدى كيلو مترات ، في هامش الطريـق الازدواجـي المنسق بعناية من طرف مصلحة الجسور والطرقات ، التي لا شك ، ترى فيها لعبة جديدة ، ستشدها ، إليها فترة ، ثم تهملها مع باقي اللعب القديمة. كل شيء اصطناعي في هذه المنطقة ، ولا يمكن أبدا أن يشذ وضع عمـود هاتف ، عن نسق باقي الأعمدة.

لكنه تبدى. أومض. التمع .

رأيته. أكاد أجزم ، أنه رآني بدوره. كان يسترق النظر إليّ. بل إن صوته ، ممتزج مع نظرته ، مع ما في خاطري. بل ، إن دفئا قويا ، تدفق منه وغمرني.

- ألم تر شيئا خاصا ، على هامش الطريق ، من الناحية اليسرى؟ ألم يثر اهتمامك أي شيء خارق؟
- ماذا يثير اهتمامي يا حضرة المستشار أكثر مما أنا فيه؟ لم ينم ليلتها. لم ينفعه شيء. لا الذات الكهربيـة للكون ، ولا الأطباق الطائرة ، ولا محاكمة بيغن وموشي ديان ، أو توقف مصعد رئـيس الولايـات المتحـدة الأمريكية ، بين الطوابق ، ولا حتى إشكالية أبي عمار ، أو فهرس إحدى محاضرات نايف حواتمة.

حاول أكثر من مرة أن ينهمك في تصور ما من تصورات الجزائري العبقري ، لكن ما أن يكاد يبدأ ، حتى ينتهي. تتقلص الحكاية ، إلى أن تصير ، مجرد بداية ونهاية ، بلا تفاصيل ولا جزئيات تتراءى بين الأعـين فـي الظلمة ، تنتشل المرء ، من يقظته ، ومن العالم الحسي ، وتلقي به في عوالم الخيال و السحر ، والأحلام اللذيذة.

هاهي الطريق المزدوجة تنتصب بين العينين ، في الظلمة ، وتحت الغطاء. هاهو الخط المسـتقيم للأعمـدة الهاتفية والطريق بسياراتها ، بضجيجها ، تتلاشى. الأعمدة أيضا تتلاشى. كأنما يد سحرية تمسحها ، وها هو. ها هو وحده ينتصب قرب الجسر الحوال، يتمتع بشيء ما خاص به. ينتزع اهتمام المرء انتزاعا ، ويلقي في رأسه ، بشيء منه.

لم يتضح أسلوبه بعد ، فلا هو التطاول ولا التبختر ، ولا الإعجاب والزهو بالنفس ، ولا برقع الجدية ، الذي يسيطر على باقي سحنته. ليست ومضات ولا إشاعات ذات صلة بالنور المعهود.

لعلها سطوعات وتألقات ، يحسن كيف يرسلها ، كما يحسن كيف ينتزعها ويستردها.

كل أعمدة الهاتف التي بجانبه ، والبعيدة عنه ، قليلا أو كثيرا ، في المدينة والعالم أجمـع ، تبـدو مجـرد أخشاب مصقولة من الأشجار، بعضهم يشبعها بمادة دهنية ، وبعضهم وهذا نادر جدا ، يطليها بدهن خاص يمنع عنها الرطوبة ، والتآكل والتسوس ، ويضفي عليها لونا قرمزيا بهيجا . لكنها -كل الأعمدة الهاتفية- ما كانت في يوم من الأيام تثير اهتمام أحد ، وحتى ، إن التفت إليها أحد ، اعتبرها ، كائنات فطرية ، طفيلية ، تحتل فراغات

، وتنتظر السقوط أو الحرق، وكم من عامود هاتفي ، سقط تحت وطأة الثلوج أو الرياح ، أو بفعل صدمة شاحنة ، أو سيارة ، ولم يثر شفقة أحد. حتى أولئك العمال الذين يتولون إبدالها ، أو ربطها ببعضها ، ربطـا مؤقتـا ، عادة ما يدوم سنوات طويلة ، حتى هم ، لا يبدون أي حماس أو أسف ، على ما لحق بها. أمـا إدارة البريـد ، فعندما يبلغها الخبر ، يكون رد فعلها -وكأنها كانت تتوقع هذا الحادث الذي تأخر أكثر من اللـزوم- : "حسـنا سنعوض هذا العمود". هذا كل ما في الأمر.

هو وحده ، له خصوصيته. ما هو الخاص ، وما هي هذه الخصوصية؟

آه ، لو أن المرء يعرف. لو أن المرء ، يمسك بها ليسألها: أهي فيه ، أم في هذا الدماغ المجهد؟

لا بد من النوم.

الساعة السوفيتية ، تعزف طنتين.

يُسأل أبو عمار ، بكل صراحة ، بعد أن تقدم له جميع أوجه الإشكالية ، عما إذا كان في إمكانه أن يتحـول إلى مواطن عاد ، في الكونفدرالية الواسعة ، يوضع وجها لوجه مع ضميره ، في ظل الضمير العربي المنشود.

أحد أوجه هذه الإشكالية ، أنه سيفتح مضخات الدموع ويثير الجانب الإنساني ، الذي سبب هذه الإشكالية فلم يلق أبو عمار ، في طابق من الطوابق ، فراشا أو ساعيا أو ر سيلا أو ساقي قهوة.

يقول. الكلاب. نحن نحسب بالليلة ، وليس بالشهر أو الأسبوع.

ترى كم حسب ، أو حسبت هي الليلة.

من وضع الوثيقة بين أيدي سعادة الوزير؟

أيكونون هم؟؟

قد يكونون وضعوها بين أيدي جميع الوزراء؟ لأي غرض؟ لمجرد استطلاع مدى ولاء أعضـاء القيـادة ، للقيادة ، أم مجرد إقحامهم ، في موضوع ، ليس هناك طريقة أخرى لفتحه معهم؟

.... ولم أسأله في كم من سنة ، صنعا التسعة أطفال!! في بداية العقد الثالث ، وله تسـعة أطفـال. أربعـة وخمسة. قال: وفي غرفة واحدة ، ولا يتقاضى سوى ألف ومائتي دينار ، ويدخن. ولربما يسكر كل ليلة.

غدا أسأله.

يجيء معاليه ، فرحا بالموعد. فرحا بحقيبته ، بالوثيقة التي في حقيبته.

ها أنني أسعد جميع الوزراء على وجه الأرض. الباب ينفتح ، وكأنما بقدرة قادر ، ينغلق.

يجلس. ينتظر قليلا. حتى الانتظار الطويل ، في هذا المكان ، غير طويل أبدا ، ينفتح الباب. يشار إليـه أن يتقدم. يتفقد أزرار السترة ، يستحضر ابتسامته الرضا والابتهاج. يختلي به. يبذل كل ما في وسعه ، ليؤكـد أن حرصه الثوري على الثورة ، جعله لا يغفل ، ولا ينام ، ولا يسهى ، ولا ينخدع في أحد.

- ما العمل في رأيك؟

يبادر بحماس:

- تضرب الثورة الضربة القاضية. نستريح إلى الأبد ، من هؤلاء الذين يزعجون القافلة ، التي تشق طريقها ، بأحسن قيادة ، عرفها التاريخ. ويوضع في الصورة عن اختيارات البلاد ، عـن المعطيـات العالميـة ، عـن مناورات الرأسمالية والوطنية والعالمية ، عن ضرورات التعاون مع العالم الشيوعي ، عما أحدثه حمام الدم فـي السودان ، من ردود الفعل ، الأمر الذي اضطر الجزائر نفسها إلـى الاسـتنكار ، وهـي تعلـم أن خصـومها وأصدقاءها ، سيسألونها ، عن نوع الحمام الذي يوجد فيه هؤلاء الناس عندها ، بل إن بعضهم ، كتب بالفعـل ، في صحف الثورة ، يتشدق ، بان لا فرق بين حمام الدم ، وحمام البخار. نحن نسير ، وهذه ما يجب أن يتعلمه ، إطارات الثورة ، في طريق يعاكس طريق الشيلي . الثورة. نضجت ، وينبغي أن تكـون أسـاليب معالجتهـا ، لمختلف الشؤون والقضايا ، في مستوى هذا النضج. لقد تمكنا بشتى الوسائل ، وببعد النظر بصفة خاصة. مـن فصلهم ، عن باقي المعارضات ، وهم الآن يسهمون بحماس في إنجاز بعض مهام الثورة ، هل تعـرف حكايـة العبد التونسي ، الذي لم يقل له سيده ، طوال العشرين سنة التي خدمه فيها أية كلمة ، وعندما لعنه ذات يـوم ، جن من الفرحة ، وراح يجري في الشارع هاتفا: سيدي لعنني ، سيدي لعنني.

أراد سعادة الوزير أن يضحك للنكتة ، غير أنه لم يجد الفرصة، فقد وضع في مكانه بقسوة ، ضرب بيـده على المكتب بعنف. دعونا ، نر ، ما ستفعل بهم الفرحة. هم أيضا... مع ذلك ، قال في سره ، سأقصـها علـى جميع الموظفين ، في وزارتي.. في تقدير القيادة الثورية ، أن الشيوعية ، ككل الأدواء المزمنـة ، لا تعـالج إلا بالعناية، للتخفيف من أزمتها. ليخرجوا إلى البوادي، وليتحدثوا ، إلى كل فلاح على حدة ، إن شاءوا ، المسـاجد والتلفزيون ، في يد الثورة.

ماذا أراد ، أو بالأصح ماذا يريد العمود الهاتفي؟

إنه أراد فعلا ، وإنه ليريد فعلا. لا مجال أبدا للشك ، في الاتصال الذي تم بيننا أمس ، لقد سـمعته ، ولقـد فهمته.. طن. طن. طن. طن. طن. طن.

- أخرسي ، فإن الوقت ، خارج الزمن الليلة.

الطاقة الكهربية ، في الأسلاك الهاتفية ، تتوقف عند حدود أربع وعشرين فولط ، وهي ، مع أنها محركة ، شأنها شأن المائة وعشر ، والمائتين وعشرين ، وغيرها - وكل شيء نسبي في هذا المجـال ، ويتوقـف عـن الشمعات ، والترنزستورات ، والمحولات ، والحقول المغناطيسية ، المتوفرة ، أو المثارة - فإنها قد تكـون ذات علاقة ما ، بالمردود الكهربائي في عضلات وخلايا ، وأعصاب الإنسان والحيوان. من يـدري؟ لعـل أجناسـا كهربية ما ، تسمى بالجن أو الشياطين ، أو الملائكة ، أو بأسماء ، لا نعرفها ، إلا هي سبقت الكائن الأرضي في معرفة سر القوة الكهربية ، دون الأربع وعشرين فولت ، للكون ، وهي الآن تسكن جميـع أسـلاك الهـاتف ، كأفضل وسيلة ، مفتوحة ، زمنيا ، على الزمن الأصلي للكون.

كل وزير ، يقول ، وهو خارج من عنده ، ما قال من سبقه ، من أنه أوفر وزراء الدنيا ، حظا ، ويخـرج مقتنعا أشد الاقتناع ، بأن الرأي في آخر الأمر ، غير مطلوب منه ، وأن القيادة ، الثورية ، تنوب -والحمد لله- الجميع في التفكير ، والمطلوب منه ، والمطلوب في هذه المرحلة بالذات ، قليل من الليونة ، في قضية ، كانـت بالأمس القريب ، تتطلب مزيدا من التصلب والتشدد.

عما قريب ، ستمتلئ ، أعمدة الصحافة بعبارات "الثورة ناضجة"، "الثورة محصنة" ، الثورة قادرة والحمـد لله".

سأسأله ، غدا عن عمر زوجته ، وسأسأله أيضا ، عما إذا كان يخونها من حين لآخر. لن أسأله أي سؤال ، ليذهب هو وزوجته ، وجيش أطفاله إلى الجحيم.

مسكونان.

كلانا مسكون. العمود وأنا.

عندما سألته ، هل لاحظت شيئا ، غير عادي في المنطقة ، اندهش ، وراح في تلكم اللحظات الرهيبة. هـ... ه ، الرهيبة ، ما أجملها من كلمة. يعثر عليها المرء في مثل هذه الحالات والأوضاع. كن يود أن لا ينقطع عـن حديثه عن زوجته والبطاطس ، وجوازات السفر ، ومن كان محظوظا من السواق ، ليعيد ، الحجة للمرة الثالثـة والرابعة. وحده أو صحبة زوجته ، أو حماته ، لأن صلته بمسئول العتاد ، تقوم على أسـس خاصـة ، تتنـافى والميثاق الوطني ، ومبادئ الثورة ، والتعاليم الإسلامية ، نفسها ، وكل ما يقال لنا ، في خلايا جبهة التحريـر ، وبعض حصص الراديو ، ومن حين لآخر ، التلفزة.

يغيرون المساكن ، كما أغير أنا حذائي هذا ، يا حضرة المستشار ، إنهم يمتلكون المتاجر في كل العمارات الجديدة ، التي تنجزها الثورة ، يبيعون بضائع لا تلفـس أو تكـدس ، كالأحذيـة ومـواد الزينـة ، والأدوات الكهرومنزلية ، المفقودة في السوق ، والتي تباع في السوق السوداء ، أنزههم يجعل حانوتـه ، محـل حلاقـة للنساء.

إن أفقر السواق ، يا حضرة المستشار ، هم سواق المسئولين المناضلين -كما تقولـون- لكـن مسـتورة ، والحمد لله ، تسعة ، وأمهم ومستورة ، والحمد لله، نحن دون أن تطلبوا منا نثق فيكم ، نضع كل ثقتنا فيكم ، لكن كيف يتمكن شخص ، ليست له أية مؤهلات ، أن يصبح مسئول ، عتاد في وزارة كبرى ، مثل وزارتنا. الجميع يعلم انه كان حلاقا بسيطا ، في حي شعبي ، ركبت ابنته مرة في سيارة فخمة ، يقودها أحد أولئك الذين يخـافهم جميع الناس ، والذين لا ينتظمون في الصفوف بالأسواق الشعبية ، فصار ما صار.

- هل صحيح يا حضرة المستشار ، أن الحلاقين لا يدخلون الجنة؟
- من أين جئت بهذا الكلام؟
- والله العلي العظيم ، لو كنت في الحكم ، لنصبت مقصلة ، في ساحة الشهداء ، أتوماتيكية أجعلها كتـاك

التي يذبح بها دجاج الكهرباء ، يمر فيها المئات ، مساء كل يوم.

- ولماذا المساء بالذات؟
- حتى ينام الجميع. والصورة بين أعينهم. قل يومئذ للجزائر. أن لا تسير كما ينبغي أو أن لا تستقيم.
- بإمكانك ، يا سي هتار ، أن تذبح دجاجك في الصباح ، وتجعل الناس في المساء ، يشاهدون ذلك في التلفزة.

-لا. الناس يعرفون ، أن التلفزة والجرائد ، تكذب. سيقولون إنه تمثيل لا غير.

يشعل سيغارة ، يبدي سروره بهذا التجاوب المفاجيء معه ، في موضوع يكرره كل يوم تقريبا. ليخرج بنتيجة واحدة ، هي إشعال سيغارة ، حادة الرائحة.

ويضرب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، باب المصعد الحديدي ، بجمع يده ، بعنف ، ثم يصرخ ، لكن لا أحد يستطيع نجدته فيموت.

تنتهي الحكاية ، التي كانت تستغرق ليالي ، برمتها ، هكذا بسرعة.

يحوم الطبق عدة مرات ، يرسل أشعة ، غير مرئية فيتمغنط كل شيء ، وإذا ذاك ، يفعل بخصمه ما يشاء ، يهجم المدنيون الفلسطينيون ، على الأسلحة الممغنطة.. ويلقونها في البحر ، فلا يستطيع الصهاينة ، سوى أن يتخلوا عن الكبرياء والعجرفة.

لو أنني نمت.

العمود لم يثر انتباه السائق ، هذا واضح ، قاله بلسانه. الالتقاط،

كان على موجة و جد شخصية ، بيني وبينه ، أو بينهم ، من يدري؟ ربما هذا من الأسرار التي لم تتوصل وسائلنا المحدودة بعد ، إلى معرفتها ، نعم الموجة الشخصية ، لكل كائن ، داخل موجات جنسه هذه الأخيرة نفسها ، لم نتوصل إليها ، بعد. كل ما نعرفه أن بعض الطيور والأسماك والحشرات ، تنتقل ، وتتصرف بواسطة موجات خاصة بها.

واأسفاه .

هل كان له وجه؟ هل كانت له عينان وأنف وفم وأذنان وبالتالي، هل كان له رأس؟ هل كانت له ملامح بعينها، سرعة السيارة ، ودهشة المفاجأة ، وانبهار البصر. كل ذلك لم يمكني من استخلاص شيء بعينه. مع أنني أذكر ، أنني رددت في باطني ، عبارة ، حبيبي، أعترف أنني لحظتها أحسست بالحب. أحسست بضرورة أن يتوحد كلانا ، في الآخر ، بضرورة عودة الأجزاء المفصولة عن بعضها ، بعد طول افتراق.

وسيستدعي كل وزير ، كبار موظفيه ، كلا على حدة ، ويحدثه عن السودان والتشيلي ، وعن صحة الثورة السليمة ، والقوية ، ثم يروي آخر نكته يعرفها منذ سنوات ، لكنه ، لم يتذكرها سوى الآن ، ومهما يكن من الأمر ، فستتحرك بعض الخيوط في الخفاء ، وتشيع، أن هناك زحفا على أجهزة الثورة ، من طرف الشيوعيين ،

وأن القيادة الثورية تعد لتصفية كل العناصر الوطنية ، التي لم تتلوث بالفكر المستورد.

لعله ، لحكمة ما قصد ذلك، من يدري؟ الرجل يقول " نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء ".

وحدها الكلمات ، تستطيع مخادعة الذهن ، وإيهامه بضيق المسافة ، بآلية العملية ، بمعنى آخر ، فـ النظرة وحدها عالم ، عملية برمتها ، خلاصة تجوال البصر البشري ، في النـاس والأشـياء ، واختـزان الأحاسـيس والألوان والصور ، والمعطيات وتناسق الأشياء، أو تنافرها ، ليس لطرف واحد فحسب ، وإنما للطرفين معا.

انهماكٌ عمريٌ ، في ضبط موجات الالتقاط.

إرسال التقاط ، التقاط إرسال ، يضيع الإرسال في الأثير. مرة. مرتين ، مرات. ملايـن المـرات ، تـأتي إشارات واضحة ، مبهمة تائهة كلها ، إلى اللحظة التي تتعدل فيها موجتان بشريتان ، لذكر وأنثى ، لذكر وذكـر ، لأنثى وأنثى.

يتم الاتصال:

تتم النظرة الاتصال ، أو النظرة الاكتشاف. تنطبق الصورة الداخلية لكل طرف. تتناسق المعلومات المختزنة ، تعطي الأحاسيس الدفينة إشارة التلاؤم الخضراء.

تكون النظرة النظرة ، كما أوردها الشاعر ، ذات دلالة.

ما تم حتى الآن ، لا يتعدى نظرة ، أساس ومشروع نظرة ، على الأصح ، ستكتمل لا محالة ، ربما غدا ، ربما في المستقبل البعيد ، تتضح الموجة ، تنبض الإشارات الصافية هنا وهناك ، تأخذ دلالتها الحقيقية ، الدلالـة الوحيدة التي تحملها ، تتعدل كل الأجهزة الخاصة بالباقي.

ابتسام. كلام. موعد. لقاء. الباقي من العمليات والتي ليست بدورها بالهينة إطلاقا.

يعيط الدم للدم ، تخفق الروح. *تطلب العظام بعضها* يجد الدم الدم ، تلقى الروح الروح. تنتهي غربة العظام ، تنطبق الصورتان تتوحدان.

في الزواج يقال المكتوب. في الموت والحياة يقال التناسخ ، في الديانات يقال الطيبات للطيبين والخبيثـات للخبيثين ، ومن المستبعد جدا ، أن يكون هناك اختيار موضوعي ما. في نظرة فابتسام فكلام فموعد فلقاء.

أربع طنات روتينية في الغرفة المجاورة ، الطمأنينة ترفرف على روح حضرة المستشار. بعد النظرة لا بد من الابتسام ولعل المعشوق يبتسم ، بعده سيفعل ذلك في المستقبل القريب ، وفي الليالي القادمة ، سـيتمكن مـن التركيز في الأحلام التي تنيمه.

الجذوة المتقدة

دور يا كلام. على كفيك دور.

- تقدموا الحافلة فارغة في المقدمة. ما تزال هناك سعة في الأيام ، يا عباد الله. الأماكن متوفرة قـ دامكم ، افسحوا المجال لإخوانكم ، من خلق الله ، يا عباد الله.
- ما يمنعهم من توفير حافلات بالعدد الكافي؟
- هذه التي يمكن أن تتوقف ، في أية لحظة يستكثرونها علينا.
- "*جوع كلبك ، يعس عليك*"
- باريس وعشرة ملايينها ، في إمكانهم أن يظلوا دهرا كاملا راكبين ، بكل سعة.
- لا حياء في الدين ، يا الوالدين ، اسحب يا أخي قليلا دوازنك عني.
- لو كانت أمك ، أو أختك ، هي التي تقف أمامك -ولا شك أنها تقف الآن ، أمام أحدهم في حافلـ ة مـ ا. ماذا تفعل؟
- الله غالب. فوق إرادته المسكين ، كلمة قلناها. تشبثتم بها.
- لك الحق يا خالة. الزيت من الزيتونة ، والحوت من البحر.
- يخل دار أمك الهجالة ، سروالك مبتل من الخلف ، وأنت تنشغل بغيرك.
- لو كنا حتى أربعة ملايين. في هذه المدينة ، "يا بورب" ماذا يحصل لنا؟
- "*الداب يركب مولاه*".
- آهآه. آهآه. أحيح ، أحـ.. يـ.. ح. تقدمي يا امرأة قليلا إلى الأمام.
- "*أخ ، يا معزة ، ما فيك حليب* " قضيت عجالتك ، فعرفت معنى الضيق. دع المكان لغيرك. إن شئت.
- الوضوء لا يصح بالماء الساخن.
- حتى في حالة البرد القارس.
- حتى وإن كان في سيبيريا.

- والطاهر الطهور.. الذي لم يتغير لونه ولا طعمه؟

- ذلك في الزمن القديم ، حيث لم يكونوا يعرفون أن الخصائص ، وهي من ضمن الطعم واللون ، تتغيـر بفعل الحرارة ، والغليان والتبخر ، وما إلى ذلك ، نحن اليوم في عصر العلم ، والإسلام دين كل مكان ، وكل زمان ، ولا يجب أن يتخلف عن الاكتشافات العلمية.

- "*والرومانتيزم*" ماذا يقول فيه "*إخوانكم*" ؟

- لماذا لا تقولون إن الصلاة في هذا العصر حرام ، يا وحد الحلوف ، نمتم عن الإسلام عشرة قرون ، ثم استيقظتم ، يعميكم الجهل ، والتبجح ، تنهشون من أقوال العجائز كل بدعة، ألا لعنكم الله، ولعن أئمتكم ، يا جنود الأمريكان.

- انظر حولك! بأموال الشعب. التي يسمونها أموال الثورة ، يستوردون ، أفخم السيارات ، يملأونها مجانا بالبنزين ثم ينطلقون ، هم وسواقهم ، ونساؤهم وأطفالهم ، كيف تريدهم ، أن يفكروا فينا نحن ، بعد ذلـك ، أو في الحافلات التي تضج بنا.

- سُنة الله في خلقه ، حتى في الدول الاشتراكية المتطورة. أزمة النقل لم تحل بعد. يـروى أن أحـدهم ، استوقف سيارة ، توقفت واحدة سوداء ، لم يستغرب ، فالاستعانة بالجهد الخاص ، والفرصـة النـادرة ، قـدر بشري، فاوض في السعر ، وقد كان مستعجلا ، وكان عليه أن يصل في الوقت المحدد ، وبالسعر المتناول لكـل مواطن. استظهر السائق بطاقته ، وأمره بالركوب ، وبدفع السعر الذي يعلن ، مهددا إياه ، بأنه محافظ شرطة.

- الأمريكان وأجهزة مخابراتهم ، يلجأون إلى دعايات أعمق من هذه التي يروجها ، طلبة وضباط الـدول البترودولارية.

- الرجال قوامون على النساء ، لو أننا مسلمون بحق ولو أنها ليست الساعة التي تقترب... مـاذا تفعـل المرأة في الشوارع أو في الحافلات؟

- لا ترفع صوتك أكثر ، فقد سمعناك ، لكن قل لنا البطاطس ، من يقف في الصف الساعات الطويلة ، من أجلها ، يا واحد العطاي، أم أن صديق أختك ، من أولئك الذين لا يسمون؟

- احترمي قدرك يا امرأة.

- الفم المغلق لا يدخله الذباب

- إما أن يمركسونا ، وإما أن يرسلمونا ، المهم أن ينزعوا عنا حالة المنزلة بين المنزلتين هذه.

- *الكلب الأحمر ، يحسب نفسه من العجول.*

- لا تنتظر ممن لا يسمون ، كما قالت المرأة ، غير هذا ، الماركسية ، تحتم حزبا ولجنة مركزية ، ومكتبا سياسيا ، وأقلية وأغلبية ، ورقابة وغير ذلك. والرأسمالية ، تستوجب مؤسساتها ، برلمانا ، وأحزابـا ، وحريـة التعبير ، وهم، هؤلاء الذين لا يسمون ، لا يجدون مصالحهم ولا حتى أماكنهم ، في مثل هذه الوضعيات. هـذا

هو *"النيوفاشيزم"*.

- لحية كاسترو. وقبعة بينوشي.
- والله العظيم. لن تتحرك الحافلة ، حتى تنتظموا ، ما يزال في المقدمة. أكثر من مكان.
- الحمد لله ، تبارك المولى عز وجل.

تحركت الحافلة أخيرا ، استطاع حضرة المستشار. أن يصمد في موقعه ، عند النافذة .. لا لن أتزحزح عن هذا المكان ، حتى وإن مزقوني ، لا يتسنى لي أن أراه إلا من هنا. كيف يمكنني أن أختبـر الحالـة ، أن أعيـد اختبار الحالة إذا كنت في غير هذا المكان ، ليثرثروا ما شاءوا ، ليثوروا على بعضهم إن شاءوا ، لن يخرج كـل ذلك ، من روتين كل يوم ، من رد فعل عاد ، لشعب تدجّنه عقد الشعور بالذنب ، كمشة ، تحتكر مجـد تحريـر الوطن ، وتجرد غيرها من كل مساهمة وتوزع بركاتها بالبطاقات ، والملفات واللجان ، والرشـى ، المسـاكن والأراضي ، وكل الأرزاق المستعادة من الاستعمار ، يطلق عليها ، أسم أملاك الدولة ، والجميع فيها ، مجـرد ضيوف ثقال ، يمكن في أية لحظة التخلص منهم...

اندهش حضرة المستشار في اليوم الأول ، المرة الأولى، الثانية، العاشرة . اليوم الثاني ، بدأ يتعود. ها هـو اليوم السابع ، والمسألة ، لا تعدو ضرورة إشعال سيغارة في حافلة عمومية ، التدخين فها ممنـوع... برلمـان الشعب وصحافة الشعب ، ومواخير الشعب ، ومتنفسات الشعب ، كلها هنا في هذه الحافلات ، وهذه الطـوابير ، وهم يعلمون ذلك ، ويشجعونه بل ، إنهم هم الذين خلقوه... *جوع كلبك يعس عليك*.

أحس حضرة المستشار ، بيد تلتمس جيبه الأيمن ، اعتدل قليلا ، ليتيح لها فرصة التعمق ، تجرأت اليـد ، فدخلت. خرجت خائبة.

انتظرت قليلا ، ثم تسربت إلى الجيب الأيسر. كانت سريعة ، رشيقة وسريعة ، وحتى لطيفة. دخلت وولت خائبة ، منكسرة. التفت إليه مبتسما:

-لا تتعب نفسك ، اتخذت كل إجراءات الحيطة. قبل أن أركب.

اضطرب ، وتظاهر أنه لا يجد ممسكا ، ويكاد يقع.

لم يبق هناك مجال للشك. لقد تم التأكد في اليوم الأول والثاني. عند الصعود. عنـد النـزول. فـي الغـدو والرواح - حسب الكليشي الفلاحي المعهود- لكن إتمام السبعة أيام ، أمر مطلوب ، إن لم يكن حتميا ، الـذاكرة الشعبية ، لا تختزن المعلومات جزافا ، الخلق في معظم الديانات ، تم في سبعة ، والعرس ، أيام العرس الحقيقية ، سبعة. ساعات الشغل التي تطالب بها النقابات في العالم أجمع ، سبع. لماذا ليست ستا أو ستا ونصفا. والسبعة نصف عدة ، اكتمال القمر ، وبداية ثلاثة جديدة ، الرقم واحد ، للأعلام ، والثاني ، للتأكيد ، والتأكيـد مـرتين ، أوكد من التأكيد مرة واحدة ، وأفضل من ذلك بكثير. التأكد مرتين ، ثم الشروع في الإعلام الأول ، في التأكيـد الثالث. المحيطات سبعة ، المعجزات سبع ، وما إلى ذلك مما لا يسمح ويليام جيمس ، بعدم الاهتمـام بـه ، أو

على الأقل ، عدم تفهمه.

أعطى للسائق ، عطلة أسبوع ، ليترك له السيارة ، فرح بذلك أيما فرح ، حتى لأنه قبل يده.

- نصرك الله على من عاداك ، يا حضرة المستشار ، ورزقك ابنة حلال طيبة. العطلة جاءت فـي وقـت مناسب ، فلدي قاعدة وأعمدة "فيلله" تنتظرني ، منذ شهر. كيف أتغلب على التسعة ، وعلى همّ الـزمن ، لـولا الاستعانة ببعض بناءات أو ترميمات من حين لآخر، يا حضرة المستشار.

- وهل أنت بنّاء ماهر؟

- أي نعم. كيف لا؟ لقد حصلت على شهادة في ذلك من مركز التكوين المهني ، ومارست المهنة ، خمـس سنوات.

- هكذا إذن ، ووجدت من الأفضل أن تتحول إلى سائق!

- العمل في الإدارات ، لا يكلف جهدا كبيرا ، وبإمكان المرء ، من حين لآخر أن يجد فرصة ، للانصراف إلى أشغاله الخاصة. هذه الفيلله ، قبضت فيها ، من أشهر عربونا محترما ، وبإمكاني ، في خلال هذا الأسبوع ، أن أقدم دعما كبيرا للعمال الذين هم على عين المكان.

- ولمن هؤلاء العمال؟

- لي طبعا.

- إن كان لديك ، يا حضرة المستشار ، أية إصلاحات في منزلك ، أو منزل أحد أصدقائك ، فلا تتـوان ، في الاستنجاد بي. سأساعدكم كثيرا. مقابل هذه العطل ، سأشتغل عندك ، بصفة خاصة مجانا. لن أتقاضى ثمـن اليد العاملة.

عندما سألته ، هل يشرب قال إنه يبغض البيرة والنبيذ والفودكا، ولكنه يحب كثيرا الويسكي ، والبورتـو ، والكونياك الفرنسي.

التأكد تم.

في النزول ، في الثامنة إلا ربع. في الصعود ، الثانية عشر ونصف ، في العـودة الثانيـة وربـع ، فـي الاهتجاع ، على الساعة السادسة والنصف ، أو الاهتجان قبله. في كل ذلك ، حالة النظرة قائمة.

في كل مرة ، يتم الاقتراب من الجسر الحوال ، واقتحام الطريق المزدوج ، يخفق القلب. لا يجد بـدا مـن الخفقان. يلتمع الشيء من هناك ، يضيق الصدر وينفرج. يتم تبادل حديث ما ، تسجيل ، على الأقـل إشـارات راسخة ، بين الطرفين:

- هاك وهات.
- هات وهاك.
- أنت هنا؟

- أنت هنا؟
- أنا هنا!
- كلنا هنا.

يا روح إبك على الروح. يا الدم عيط على الدم. ويا أيتها العظام، حني إلى العظام.

خفتت سرعة السيارة. بلغ الأمر ، أن توقفت تماما ، مجيئا وذهابا ، ذهابا ومجيئا. من الجهة اليسرى. مـن الجهة اليمنى. مع ذلك كان ، الشيء يتم.

لماذا تسميته بالشيء؟

لم لا تستعمل الكلمة المعبرة في هذا المجال. الصلة. أكثر من ذلك ، التعبير العلمي الدقيق. رغم اسـتعارته من لغات أخرى ، الالتقاط.

حصيلة النظرة المتبادلة. التقاء نظرتين ، مشحونين.

هو ذا ، يومئ. يومض. يتلألأ. يشع. يفصح.

ينظر.

أفعل فعله. أفتح عيني وأغمضها ، وأفعل فعله.

أنظر بدوري.

ينظر كلانا للآخر. يقول كلانا للآخر: أنت هنا؟!

ليس مستبعدا أبدا أن تكون الإجابة: نعم أنا هنا ، قد تمت بعد من طرف أحدنا. من ناحيتي ، أثبت ، وأثبـت ، وعلي أن أفعل ذلك ، بصفتي البشرية ، بالنظرة التي لا تعني ، سوى فتح العينين ، وتركيز البصر في شـيء ما ، ورسم حركات ما على الوجه ، توحي للطرف الآخر بأن المعني بالذات ، في هذه اللحظة ، إنما هو ، هـو ولا أحد غيره ، وبالضعة والتذلل ، والإلحاح المتمثل ، في التردد ، في التوقف ، في النحنحة ، التأوه المسموع ، في التباكي ، في افتكاك الاعتراف ، أخيراً ، بالوجود. هذه نظرة ، ميكانيكية ، نظرة مخبر أو رجل أعمال. إنما النظرة الإرسال ، النظرة الالتقاء ، الالتحام ، هي الانبهار أمام اكتشاف أن من كنا ننتظره منذ دهور طويلة. هنا قدامنا. خرج بغتة ، من العدم ، ليملأ كياننا الخاوي.

انقضى أسبوع بالسيارة ، ولم تتم خطوة جديدة ، فيما عدا التأكد من النظرة ، بالطبع ، وليكن أسبوعاً آخر ، بواسطة حافلة النقل العام، *ودور يا كلام على كيفك دور،* ومما لاشك فيه أن السائق - المقاول ، يكون قد أنجـز هيكل الفيللة أو يكاد ، وأنه طلب تسبقة جديدة عن السقف وإلباس الهيكل.

ها هو الأسبوع ينقضي. هناك تقدم ما لا محالة. «لقد تأكد لنا ثبات الموجة ، واستقرارها ، خمسـة علـى خمسة في جميع الحالات. الوضوح تام. ما على أحد الواقعين في الطرف الآخر ، سوى ، أن يبث ، أن يفصح. أن يبتسم ، بتعبير الشاعر.

وحبيبي قال من أول يوم التقت فيه عينانا. قال إنني ها هنا.

- سرقت. سرقت. راتب الأولاد ، يا مؤمنين.

- لا أحد ينزل ، حتى مركز الشرطة القادم.

- يا مؤمنين ، المرأة مريضة ، وعلي ديون. راتب الأولاد يا مؤمنين.

- في جيبي مناشير سرية ، علي أن أتخلص منها ، قبل بلوغ مركز الشرطة.

- لحسن الحظ أننا غير مطاردين ، وإلا كانت الكارثة.

- كان من المفروض أن لا تستقلوا الحافلة.

لو أن الحاكمين ، يستيقظون يوما ، ليجدوا جميع سياراتهم معطلة. كلها. كلها. بقدرة قادر ، تصبح معطلة ، أو أن السواق ، يكونون يوما في حياتهم ، مواطنين حقا ، يحسون بما يحس به أخوهم المواطن ، فيخربشون في محركات السيارات ، يكسرون شمعة ، أو يقطعون خيطاً ، أو حتى يلقون بقليل من السكر ، في خزانات البنزين ، آه يومها ، ستنطرح بحق ، مسألة النقل على الثورة ، انطراحا ثوريا.

- احلم يا من تحلم. لن يكلفهم ذلك ، سوى تعب مكالمة هاتفية ، لمكاتبهم ، معلنـين ، عـدم حضـورهم. المخلصون منهم جداً جداً ، يتصلون بأصدقائهم ليوصلوهم بسـياراتهم الخاصـة ، وسـترى تجـار ومقـاولي ومضاربي البلاد كلها ، سواق مصالح عمومية.

- تعبت من السير راجلاً ، فقلت أستقل هذه الحافلة ، حتى ساحة الشهداء.

- من نواقض الوضوء. الاشتباك. اشتباك الأصابع في بعضها.

- وأين: إذا قصد ووجد ولم يقصد ووجد ، وقصد ولم يجد ، ولم يقصد ولم يجد....؟ إننا نعرف ما تيسـر من الفقه ، ولسنا مغفلين إلى هذا الحد.

- اسمع. إن الدين الله ، «والحمد الله» ، تكفي للصلاة. صل واسأل ، وهذا كل ما في الأمر. وإذا كان فـي قلوبكم ، أمر ما ، فهاتوه ، ودعوا الدين جانباً.

- خبز الأولاد يا مؤمنين. أخوكم. أنا أخوكم. أعيدوا إلي خبز الأولاد ، وعفا الله ، عما سلف.

- لعبة التوازن ، معروفة ، زد الماء. زد الطحين. لا هو خيار، ولا هو فقوس. شيوعي في الكفة ، إخواني في الأخرى. رجْل في البلطيق. رجْل في الميسيسبي.

- ألم تشبع بعد؟ البلل تجاوز سروالك إلى لحافي.

- الزيت من الزيتونة ، والحوت من البحر.

- يا مؤمنين. قوت أولادي.

- أهآه. أهآه. أح...ي....ح......أهآه.

- اسمعوا ، أقسم بالله العلي العظيم ، عالم الغيب والشهادة ، على أنها أخذتكم ، في الماء. لماذا ينقطع الماء

كل يوم. إن لم يكن ، ذلك لغاية في نفسها. والله العظيم ، يضعون عقاراً في الماء ، يقتل الحياة. تحيون فيقتـل. يقتلكم ، فتحيون. لا أنتم ذكر ، ولا أنتم إناث. من منكم ، في هذا الزمن ، ولا حياء في الدين ، يجامع امـرأة ، مرتين في الليل؟ من منكم ليس له ملف ، لدى طبيب في عيادة خاصة أو عامة أو في مستشفى ، أو في جميعها؟ «المريكان» ليس سهلا. كل عرق فيكم ، موصل إلى البانتاغون ، بواسطة خزانات الماء.

- لو أن النقابة ، تمثلنا فعلاً ، لما عجزت عن فرض نظام الوتيرة الواحدة في العمل.

- أية نقابة يا رجل؟.

- أوصلت بك الغفلة إلى هذا الحد؟ *صالح يلعب وصالح يرشم.*

- الواحد إثر الآخر. الهوية في اليد ، ومباشرة إلى المركز.

- قوت أولادي يا مؤمنين.

- أنت. هو. هي. أمسك به. أمسك به.

- عودوا إلى أماكنكم. السارق ، هرب.

- هذا تواطؤ. قوت أولادي يا إخواني.

- أنت يا من تتحدث عن التواطؤ ، تعال هنا.

- تقدموا إلى الأمام. المقدمة فارغة. دعوا إخوانكم من خلق الله، يركبون ، يا عباد الله.

- العرق بللني.

- لا يهم.

- الزيت من الزيتونة ، والحوت من البحر.

لم يتزحزح حضرة المستشار ، عن موقعه ظل يتشبث بالنافذة ، رغم الهجمات المتتاليـة ، مـن مختلـف الأنواع ، وبمختلف لوسائل ، حتى إنه قال في سره ، كل امرأة ، تكون هنا ، لا يسعها إلا أن تصمت.

كان يعرف أن الحافلة ، عادة ما تلفظ ، ركابها ، قبل الضواحي، ففي هذه المناطق ، يندر أن يتواجد ، مـن لا سيارة ، خاصة أو حكومية ، في خدمته ، لكن من يدري ، فقد يجد نفسه ، ولسبب ما ، بعيداً عـن النافـذة ، وتفوته فرصة أن يعيد التأكد من أن الشيء العظيم يحدث فعلاً.

- هنا يا أخي القطاع الخاص ، هو الذي يقوم بالأمر. أنظر كيف أن الأمور تنفرج. فـي تـونس العنـب بأربعين دورو.

- لكن من يأكل العنب في تونس. الجميع يقول للعنب ، ما قال الذئب عندما وجده بعيداً عنه: أنت حـامض أيها العنب.

لا يسمعه حضرة المستشار ، لم يسمع صوتا آخر ، آتياً من الخارج. القلب ، يبدأ في الخفقان. الروح يشـتد هيجانها . الجوارح والحواس كلها ، تتأهب للحدث العظيم. فالحافلة ، تستدير ، وعلى بعد نصف ميـل الجسـر

الحوال. ثم الطريق المزدوج ، وهو هناك.

يشمخ هناك.

نظرة فابتسامة ، فكلام ، فموعد فلقاء. إن لم يكن الشاعر غبيا جدا ، وهو ما لا يستبعد في حالته ، فإنه يكون من الأذكياء.

اس..س..ت. ف.. ررت. ف.. ززززززت.

تتوقف الحافلة. تنطلق. كل ذلك من أجل الاقتراب منه.

هو كائن ، ما في ذلك شك ، أي جرم كبير ، الشك في كينونته..!

حي. ما فيذلك ريب. إطلاقا ، ليس خشبة مصقولة ، ذات امتداد وسمك معلومين.

الأسلاك الهاتفية ، جميعها ، يتوقف امتدادها وتواصلها ، على المرور به ، وليس على تشبثه ، بها.. مع أنه في نسقها ، فإن وضعه خاص به ، جدا جدا. لا يتأتى ذلك ، من عوامل خارجية ، إنما من عوامل ، وعناصر ، جد نابعة منه. ذاتية ، مائة بالمائة. من ينكر أو يشك في ذلك؟

تلبسني. امتلكني . اكتسبته. استوعبته.

يعطيني وأعطيه. يأخذ مني وآخذ منه. بيننا حالة توق. بيننا حالة اكتشاف. حالة تعديل دقيق للموجة. أشهد على نفسي ، وأُشهد الدنيا كلها ، على أنني أحبه.

يفعل اليوم ما يفعل ، يومض يلتمع ، يبرق ، يتألق. كل ذلك لم يعد يهم ، فالتسجيل تم ، والأسبوع منصرم. لن أعود إلى الشغل ، للمكتب على الصح ، هذا المساء. أتلفن لنجاة ، بأن تسجل غيابي ، التبرير من اختصاصها: في اجتماع مع الوزير ، أو في المطار ، ينتظر وفدا ، أو طُلب في قسمة الحزب ، أو في مكالمة من الخارج، ستطول ما في ذلك شك ، ومن الفضل إعادة الاتصال ، غدا أو مرة أخرى.

أستريح هذا المساء في المنزل ، أستحم ، أنام قليلا ، على الأقل أسترخي ، لحظات كاملة ، أفكر فيه ، أحاول ربط الموجة من جانبي، أقول له شيئا ما. أقول له ما يجب أن أقول. على الأقل أتأمله، فعلى ما يبدو ، لم يحن أوان أن يقول أحدنا كلاما ما.

لا تستطيع أمام الومض ، سوى أن تنبهر ، وإلا فانك لم تتأمله ، لم تتمكن من فتح عينيك إزاءه، ففاتتك فرصة العمر ، وأنا فتحت عيني ، حدقت فيه ، تحايلت على ذلك كما ينبغي. كلا. هو الذي أتاح لي فرصة النظر إليه ، التقت عيوننا وإنني لا أرى سواه.

هاتف آخر للسائق: عطلتك متواصلة ، اطمئن إلى ذالك ، أرجو أن تكون الأعمدة والأسس متينة ، وحسب المعايير ، سأتلفن لك ، عندما أكون في حاجة إليك ، خذ راحتك ، السيارة بدورها ، لست في حاجة إليها ، إنني في عطلة خاصة ولا أحتاج إليها ، دعها تحت تصرفك ، لكن أحذر أن تُسرق العجلة الخامسة منك ، مثل المرة أيضا ، أكره ذلك الانتظار في مركز الشرطة مدة لا أحد يعلم مداها، الجلوس أمام كاتب البحث ، الإدلاء بكل ما

أعرف عن نفسي ، ما هي بالتقريب الساعة التي سرقت فيها ، العجلة الخامسة؟ هل كانـت الأبـواب مفتوحـة بالمفاتيح أم مخلوعة؟ تقديم التصريح بالسرقة ، إلى صاحبك مسئول العتاد ، على أمل الحصـول علـى عجلـة أخرى. المفاجأة بعد ستة أو سبعة أشهر وبدعوة من محكمة "الحراش" لمعرفة ما إذا كنـت مـا أزال أتشـبث ، بالقضية ، وأنوي رفع الدعوة ، اللصوص ألقي القبض على بعضهم ، والأمل كبير في وضع حد لنشـاط كامـل العصابة.

المسألة كالعادة ، تتعلق بنشاط عصابات. تغيب الدولة ، تغيب الوزارة ، يغيب نائب الحق العام ، تنحصـر القضية في شخصي كمواطن عادي ، سرقت منه عجلة ، أن يقاضي أولا يقاضي اللصوص ، أن يواجه العصابة والعصابات وحده ، أرجو أن لا تتكرر التجربة ، وإلا فستواجه المسألة وحدك هذه المرة. أنذرك ، لست مسئولا عن العجلة الخامسة ، ولا أية عجلة أخرى.

السائق ، مسألته ، تحمله بعد طلبه ، في قطاع ما من الإدارة الجزائرية. كل ذلك ، ليس سوى عملية ، تحد من طرف الموظف ، للعرف العام بأن الضمير ، والامتثال الوجداني للقانون ، لم يمت بعد عنده، شأنه عند بقية الزملاء ، صحيح ، أن هناك قانونا أو منشورا ، يحرم استعمال سيارات الوظيفة ، في أغراض شخصية ، وفـي أيام العطل ، ويسمح لرجال الأمن بإيقافها ، والتنديد بصاحبها ، على أعمدة الصـحافة وصـحيح أن سـيارات الوظيفة ، قضية ، دخلت منطق الرأي العام ، كأحد عوامل الرفض والاحتجاج ، لكن ، سـرعان مـا تتحـول القضية كلها إلى "*دور يا كلام ، على كيفك ، دور..*" وتتخذ روتينيتها التامة.

- حضرة المستشار اشتراكي ، يعطي المثل على أنه نزيه وملتزم.
- المسكين. غبي.
- لكنه يضر بمصالح زملائه.
- *ربنا يعطي الفول لمن لا أضراس له.*
- مصائب قوم عند قوم فوائد
- يرميه السائق أمام بيته ، ثم يتحرر ، يفعل بها ما يشاء ، تكفيه جولة في الأبيار أو في حيدرة ، ليجمـع ربع راتبه.
- "*لا ينقص القرد سوى الورد*" مجرد مهرج ، بالمسرح ، أحد الصعاليك سـاحة بـور سـعيد ، يصـبح مستشارا في مثل وزارتنا ، كيف لا ينحط مستوى الأمور في هذه البلاد.
- لو كان يستحقها ، فعلا ، لو كان إطارا حقيقيا وليس شيوعيا متسربا ، لكان يحوز مثل كـل خلـق الله رخصة سياقة .
- لا. يسوق. معه رخصة سياقة. وقد رأيته أكثر من مرة ، يدخل بها الوزارة وحده.
- ربما يحشش. المؤكد أنه كذلك ، كل وسطه منحرف.

- حاذر من أن يبلغ مثل هذا الكلام ، صاحب المعالي ، تعلم أن الطيور...

انتفض حضرة المستشار.

تبدى. يا لطلعته! ينظر. نظر. أنظر نظرت. العوامل الخارجية، لم تغير شيئا ، بقية الركاب غـارقون فـي بلاهتهم ، المسألة تخصني ، تتعلق بي وحدي ، اكتشفته.

اكتشفني. الموجة مضبطة في نفس الرقم ، وغير متداخلة إطلاقا مع غيرها ، التيارات والتقلبات لا تـؤثر. تنفتح العين ، عيناي على الأقل ، لتسجل خصوصيته تفرده ، هذا التميز له.

سلاما ، سلاما ، أيها الدم ، أيتها الروح ، أيتها العظام ، أيها الحبيب ، أيها المعشوق. مـن.. مـن.. أنـا المأخوذ بك.

سريعا تمر الحافلة ، سريعا ينطفئ الوهج ، سريعا يعمق الجرح في القلب.

أسـ..سـ..ت. . فررت ، تـ.. ززززت.

ينزل. تنسيه الغبطة أن هناك في هذه الدنيا حافلة ما ، يفتح الأبواب ، يتقوت ، يستحم، يلبس المنامة ، يتفقد الساعة السوفياتية ، فلربما تستوجب التعمير ، يفتح صندوق البريد ، رسالة من الحساب البريدي ، ربما وصول آخر راتب، ربما ، استخلاص إتاوة الهاتف ، أوراق كراريس مدرسية ، فيها رسوم فاحشة ، واحدة كتب عليها: فجرية عاهرة ، تذكار من "أوتاوة" أرسلها أحد مبعوثي الوزارة إلى رومة ، في الشهر الفارط .

أنام قليلا ، لن أتلفن. نجاة تعرف دورها ، المهم أن يكون المجال أمامها فسيحا ، لتصبغ وجهها ، كل نصف ساعة بالمساحيق، وتتلفن إلى باريس ، لتسأل في " الوطن العربي" عن نزار.

ما يزال منتصبا في الذاكرة ، لا تزال استغاثة الروح تتواصل ، لا يزال الدم ينفجر في حيوية ، العظـام ، يشتد بها الحنين لمصدر الدفء.

عمود الهاتف ، العمود الهاتفي ، عمودي العزيز ، مسكون بقوة ما ، خارقة ، ولقد سـكنني بـدوره ، إنـه يملؤني ، ولن تنطفئ النظرة التي تمت بيننا ، رأيتها رأيتها ، لمستها ، تلامسنا، *ودور يا كلام على كيفك دور ، خل بلادنا تعم في النور ، أرم الكلمة في بطن الظلمة ، تحبل سلمه وتولد نور.*

نظراتنا التقت ، في النور التقت نظراتنا ، الشيء الأساسي في الحياة ، تم.

النظرة يا ناس ، تمت.

كلانا يرمق للآخر:

- أنت هنا!
- أنت هنا!
- أنا هنا.
- أنا هنا.

- نحن هنا.
- كم انتظرتك.
- كم تاقت روحي إليك.

أيتها الدنيا ، أيها العالم ، يا ناس ، سجلوا جميعا ، أنني أنا ، حضرة مستشاركم ، عاشق ولهان ، سجلوا أن الجذوة المتقدة ، وهّاجة .

قرة العين

الأسبوع ينقضي. اليوم ينقضي ، بعد ساعات قلائل ينقضي ، وأنا أشعر بنفسي في خفة نور انطلق من عينين فرحتين. كل ما في نفسي ، وفي أعماقي يقول لي ، ها قد حان الموعد ، بل ، ها قد حل الموعد ، لتنفتح الأبواب على مصاريعها ، وتنكشف كل الحجب ، عن كل الأسرار. سيتم ذلك ، دفعة واحدة ، وبكل سخاء وكرم.

لقد حصل حتى الآن ، تقدم كبير ، تقدم مصائري. النظرة بين اللحظة وأخرى ، تتحول إلى أصوات ذات ذبذبات وترددات ، مختلفة، تتراوح بين تلك التي يلتقطها السمع البشري الحاد وبين تلك التي لا تسمعها إلا القلوب. تلك التي تنساب على موجات الوحي والإلهام.

أحد الطرفين. أحدنا. يتلقى هذه الأصوات. هذا مؤكد. أتلقاها وأستخلص منها أحاسيس واضحة. هذا كثير جدا في هذه المرحلة. كثير علي ، أنا الذي دب اليأس إلى قلبي ، منذ سنوات.

لم يكذب الشاعر ، رغم أنه ، لم يعايش المعاناة ، ولم يكابدها. لعله كان في ماخور غربي ، أعجب بواحدة ، ربت على حافظة نقوده المتورمة ، فابتسمت له ، ثم قالت ، اشتري لنا "شمبانيا" ، ثرثرا قليلا ، يحدثها عن لقب الإمارة الذي لم يستطع أحد أن ينازعه فيه ، وعن أصول القبائل العربية الكبرى ، التي لن تموت حتى آخر الدهر ، ذلك أن العربي ، كالعصفور المهاجر ، وطنه مواسم زمنية ، وليست مرابع ترابية. استزادت ، فاستزاد ، لعبت الشمبانيا بالرأس وباللسان ، فراح يقرأ لها قصائد من الصنف الثقيل ، قال إنه هو شاعرها ، وإنه سينضم لها وحدها ديوانا ، يكون عنوانه اسمها.

- اسمي المهني ماري.
- عاشت الأسماء. سيكون عنوان الديوان "ماري السمكة السابحة في القلب".
- يا له من حبس ضيق.
- إن قصري أوسع بكثير ، من هذا المكان ، فتعالي معي ، وستسبحين فيه بكل راحة.
- وكم سمكة عندك؟
- ليس عندي من نوعك يا حبيبتي! قومك عديمو الذوق. لو أنك في بلادنا ، لكنت في حريم وزير الخارجية أو وزير الشؤون الدينية ، ولحصلت بسببك انقلابات سياسية. أيعقل أن يهمل كل هذا الزين ؟
- ربما لأن نساءكم غير جميلات!
- لسن شقراوات. هذا صحيح

تستزيد ، فيستزيد. تحدثه عن الأسعار ، وعن النسبة التي يأخذها فتاها الجزائري ، وعن استعدادها

للارتحال معه ، إلى القاهرة ، لتشاهد الفراعنة الذين يقال إنهم ما زالوا أحياء ، وإنهم يصدرون في الليل أصواتا ، كثيرا ما تكون واضحة ، يفهمها السحرة والأحبار ، والشعراء والجن ، ويستعينون بها على قضاء حـوائجهم. ماذا يقولون في رأيك؟ لا شك أنك تسمعهم كثيرا ، وإلا من أين يأتيك الشعر.

- يقولون نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء يا حبيبتي ، يا ملاكي العزيز ، يا رسول الرحمة.

- يا لها من طريق مطولة لا تفضي إلى غاية. كم هم رومنسيون ، هؤلاء الفراعنة. لقد أهملـوا العمليـة الجنسية ، تماما.

- في رأيك يا حبيبتي ، أنه كان من المفروض أن يقال فلقاء فإغلاق للباب فنزع للثياب؟ ألا يهمك يا ماري أن تشاهدي آبار النفط، في ليل الصحراء ، إنها تبدو من بعيد غيلانا ذات رؤوس نارية ، تتصارع بينها ، فـي الظلمة ، على الفضاء؟

- كلا.. "إغلاق الباب" ، هذه ، أحيانا كثيرة لا موجب لها ، إنما نزع الثياب جميلة جـدا. يـا لـك مـن عبقري. هل تحب ذلك؟

- "أموت فيه". إنني ثور في ذلكم الأمر. لا تكفيني سمكة ، بل، حوته.

- مائة وعشرون دولارا مادام الأمر كذلك. أمعك دولارات أم ماركات.؟

- يهون. يهون. يا ابنة النور. متى موعدنا؟

- موعدنا؟! هأه. هأه. الآن. حالا. غرفتي فارغة. وأنا كما ترى بلا ثياب.

- ما أسعدني.

- ادفع ثمن الشمبانيا ، وهات الدولارات ، واتبعني. *البكاء عند رأس الميت.*

هذه كل معاناته. استظهار ورم زوادته. هذه كل معاناته. استعدادها لاستفراغ كل ما لديه. وهكـذا ينطلـق رشاش الحمقى: نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء ، وتبقى الكلمة التي تخجل القواميس العربيـة الحديثـة مـن إيرادها ، ساكنة في القلب ، وفي المخ ، وفي الجيب وربما سرطانيا فتاكا. وخلال كل لقاء بين ذكر وأنثى ، تفسد إنسانية الإنسان ، إذ تجعل الشيطان ثالثهما .

لم يكذب الشاعر ، رغم ذلك. مع أنه لخص كثيرا رغبة طويل العمر.

لقد أُلهم إلى الإجراء السليم ، في عملية الإرسال والتلقي ، على أية حالة.

تجيء. ها هي تجيء. أصوات حبيبة ، تجيء. تواصل مجيئها. تصدر عنه وتجيء. تحمل معاني ، لا تصل مفصلة ، لكنها تهز القلب والكيان. تجيء قوية ، في آخر الأسبوع الثالث هذا ، لم يكن يقول شيئا محددا ، لعـل الأذن لم تتعود بعد ، ولعل القلب ، بهرته البهجة. لعل الإناء يضيق عن استيعاب كل هذا الفيض.

الذهاب والمجيء. والمجيء والذهاب: من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد غروبها. تطول المسافة ، تبدأ مـن أقصى مدخل الطريق المزدوج. ينحني الرأس يرتفع. تنغمر العينان. تنفتح. لا أحد منها ، يشعر بوجوده. كلهـا.

كلها ... وبدءا من أول الصف المتصاقب ، المتسق... لا تعدو كونها أخشابا مصقولة ، ذات طول وسمك واحد ، ما أن يبدأ الاقتراب منه، حتى تجيء تغمر المكان وتغمر القلب ، أصوات بهيجة ، تدغدغ ثنايا النفس ، وتعـري عن مكنوناتها ، طاردة للحزن والأسى.

يتواصل خفقان القلب ، يتلقى أنغاما فيهتز على إيقاعها. رغم محاولات الانشغال ، بترديد "*يا ليل الصـب متى غده*" ، أو بصفير لحن النهر الخالد ، فإنه يحضر. في الأول بقوة غامضة ، تيارا جاذبا، ذبذبات واخـزة. أما الآن فتجيء إيقاعات بهيجة ، في أصوات مقتحمة. هو ذا بكل سحره. بكل عبقريته. بكل نبض الحياة فيـه ، بكل الرونق والتألق. يا له من طفل. يا له من ظبي. يا له من براءة. يا له ممن صفاء!

حتى العمود الثالث الذي يليه ، تظل الصلة وثيقة، تظل النظرة ، النظرة الرؤية ، التي لم يعرفهـا الشـاعر ملتصقة به متبادلة معه ، مركزة عليه ، حتى ، نهاية حزام الجزائر ، حيث تتم الحوطة ، بوركيها، أحدهما ، في الحقيقة فهي بورك واحد لا غير ، لعلها كانت ضحية تآكل زمني بعيد الغور والمدى ، ولعلها معطوبة حـرب ، من عهد حنبعل ؟ تنبه إلى ذلك السفير الأمريكي في القرن الماضي ، فراح يكيله بحصانه وبسـاعته ، الـورك كاشفا عن نقطة الضعف في المحروسة التي لا تعرف سوى إبراز صدرها للبحر ، فتستغل جيوش الغزاة ذلك ، وتأتيها من الجنب ، يتم انتظار الخط العائد من الطريق ، فقطعه بعجلة ، ثم توقف قليلا ، عند إحدى شـجيرات الكافور . يخلو الخط العائد ، يبدو خاليا ، إذ كثيرا ما تقتحمه سيارة مجنونة ، لا يدري أحدا من أية سماء نزلت ، ولا أية أصوات حتف تناديه ، تتم عملية قطع الخط ، بكل صفة ، فالحي يروح. كما كان يصبر أهـل الريـع أنفسهم ، إثر كل غارة ، من هنا يبدون... جمع التذكير يجوز في حق أعمدة الهاتف... في وضع أكثر ملاءمـة للمعاينة متساوين ، متصاقبين ، لونهم لا يتنافر مع لون الإسفلت ، أو الوجه العام الطبيعي للمحيط الذي ينتقـل من حال إلى حال مغايرة تماما ، بين ربيع وصيف ، ولولا هذا الطريق ، وهذه الأعمدة ، وبعض البنايات ، لما عرف المرء أن الإنسان ، هنا قطع مرحلة الرعي بعد ، أو أن يد الحضارة ، تمس هـذه الأرجـاء. الأسـلاك الممتدة متباعدة ، في مجموعها ، جسدا رياضيا فتيا ، الأكواب الزجاجية ذات اللـون الزيتـي ، الجـامع بـين الخضرة والصفرة ، تبدو منفصلة تماما ، عن الخيوط والأعمدة والقضبان الحديدية التي تشدها، عجائز مسـنة ، تستحم بأشعة الشمس ، وحركة الماضي. عوانس الحرب ، يرتلن أنشودة الحي يروح ، إطـارات أمـة ، فـي حضرة القيادة الثورية ، وأمام عدسة الكاميرا.

من هنا ، حتى آخر منحنى الطريق المزدوج ، تنبسط الرتابة ، ماعدا. ما عداه. عند الجسر الحوال ، شديد التخفي تحت الأرض. هو هنالك في المرسم ، المرسم الذي ابتدعه يتميز. له هيئة خاصة ، تجمع بين البشـرية والربانية، فيها النار ، وفيها الطين ، الصورة والمثال ، المادة والروح. مكهرب له صلة خاصة بالذات الكهربية ، للكون ، لا بد أن بإمكانه التشكل ، واكتساب الحواس البشرية. هاهو بدوره يبادل الرؤية.. يا ليلُ الصب متـى غده أيوم القيامة موعده؟ .. ياللن.. ياللالن.. بساط الريح.. جميل ومريح.. أقيموا بني أمي صـدور مطـيكم ،

فإنني إلى قوم سواكم لأميل ، أنا طويري راح مع لطْيار ، قم يا صاح وهاتها. آه يا نيل يا ساحر الوجود ، الغناء والشعر ، لا يجديان في تحويل الانتباه ، فليتم الحلم ، جزء منه على الأقل ، في وضح النهار.

ما يضير أن يُكلف احدهم باغتياله زهدي النشاشيبي مثلا ، فهو أكثـر الفلسـطينيين ، تفهمـا لضـرورات المراحل ، ومعطياتها في كل ربع ، ولدى كل قبيلة ، بدل ذلك ، لم لا تطلب منه بكل صراحة أن ينتحر ، يكلف ناجي أو نايف أو جبرا ، بالاختلاء به ، ومكاشفته في موضوع الشرف.

لا. ناجي. يغتاله ونايف ، سيغير مجرى الموضوع ، أما جبرا فسينتحر قبل أن يقنعه ، ولوجا للزمن الـذي يتعتعه . في هذه الحالة وفي تلك ، الإشكالية لا تحل ، وحضرته يسخر من هنالك.

لم كل هذا التردد؟ أهنالك في هذا الكون الكبير ، من يخشى العشق إلى هذا الحد؟

حاضر. حاضر. حاضر.

المواجهة أفضل. التوقف هنا. والانتصاب قبالته.

مع أنه لا يبالي كثيرا ، فإنه متصل ، اتصاله متواصل. يقول شيئا ، ولكنه يتحدث. لا يتحدث ، ولكنه يقول الكثير. ضرورة تفهمه قائمة ، لأتشرين الوهج.

زمام المبادرة في يده.

العضلات ترتخي والعرق يتصبب ، الركبتان تفشلان ، الجلوس أفضل ، لا بد مـن الجلـوس. لا تنقطـع. الصلة تتواصل. النظرة ثابتة: أنت هنا! أي هنا! وأنت هنا! أي هنا! هنا لها ذاتٌ خاصة جدا بها. أي وحقك.

من يقول ذلك؟

لكن الكلام يصل. يجيء.

ماذا يقول أحدهما للآخر. عندما يكونان في شرفتين بعمارتين متباعدتين لا يعرف أحدهما الآخـر ، أو أي شيء عنه ، حتى يصبحا، بعد أسبوع واحد زوجين ، من يوصل آهات هذا لذاك ، أية رياح تحمل نداءات العظام للعظام وحنين الدم للدم؟ كيف تتشكل القيادة السياسية من مجموع أفراد كل واحد منهم رغائبه الخاصة.

اهتموا بلغة النحل ، والطير والأسماك والنمل ، وتمكنوا على الأقل من تقدير أن هناك موجـات ، تحمـل الخطاب ، ولم يهتموا بالإنسان بالجزء الحيوي ، في الذات الكهربية للكون ، يا لهم من أغبياء يبددون الوقـت ، بحثا عن ماهية الطريق ، بدل قطعها.

بعد اليوم. بعد الآن لا جدوى من أن أمر علىالديار، ديار ليلى؟ المواجهة من هنا ، أفضل ، لقد تأكد ، مـا كان لا بد من التأكد منه ، بالسيارة الخاصة ، بالحافلة ، بالمرور على الديار راجلا ، وأخيرا بالذهاب والمجيء.

بالمجيء والذهاب ، ومن الآن فصاعدا، الموقع هنا، من هنا ، نعم يا حبيبي ، أنا هنا ، أنت هناك ، لا . هنا أيضا ، يواجه أحدنا الآخر ، بل ينظر كلانا في المرآة.

لا بد أنهم اتصلوا جميعهم ، المساعدون ، السائق ، نجاة ، هتفوا أولا ، ثم حضروا ثانيا ، ثم تساءلوا فيمـا

بينهم ثالثا ، فاجأهم صندوق البريد بأنه لم ينفتح هذين الأسبوعين ، متغيب عن المدينة ، ربما لهذا السبب لم تأت الأتون في الليالي الفارطة.

ما الفائدة من الإصغاء إلى صوت الموج ، إذا كنا في خضم الهدير ، ولا بد من الجلوس عنده، بدل الجلوس إليه ، من الخلف يرى ، من الخلف أرى نرى.

كل مرة يهم أحدنا أن يقول شيئا ، يشعر الآخر ، بأن لا ضرورة لذلك ، ما الفائـدة مـن تبـين أصـوات الأصوات ، إذا كانت كلها تحمل إلى نفوسنا معنى واحدا. أنت هنا! أنا هنا! هنا هذا أنت وهذا أنا ، هنا الـدفء أدفأ ، الامتلاء أوفر ، الطمأنينة أوكد ، الانسياب أيسر. أجمل ، كلما تواصل الانحدار فـي الـذوبان والفنـاء ، حصل التعويض ، بعزته وقوته أسكن فيه فينتشلني من الوحشة ، وينسيني وجعها.

الإحساس قوي ، بل راسخو بأن الشعور متبادل ، كلما تم التسامي ، عظم الشعور بأن المستوى واحد.

هكذا.

الجلوس عند عتبة باب المعشوق ، فلا أحد يتقدم إلى طرقه قبلي، وعندما يفتحه لن يملأ بصره أحد غيري ، وسيلحظ ظمأ العاشق ، ما في ذلك ريب.

تمطر. تهب الشرقية العنود . الشمالية المتعجرفة.. الغربية الوقحة ، الجنوبية الشبقة. تذهب سيارة تجـيء سيارة ، تحمل واحدا متوحدا في الحديد ، اثنين يتبجح أحدهما عن الآخـر ، أو يخادعـه ، جماعـة لا بـد أن موضوع تجمعهما ، تآمر ما على مصالح الآخرين ، عربة نقل. شاحنة. دراجة نارية ، تفـيض نفـس راكبهـا بالتواضع ، والوقوف دون القدر المعروف إلى حد الإحباط ، فأر عنود ، يصارع ضوء النهار ، وحرارة موقـع أرجله ، كيف قرر أن عليه أن يغادر عالمه ، قاطعا طريقا عبده الإنسان لنفسه؟ سيارات المهاجرين لا تنقطـع. عندما تطل من هنالك ، تفضح نفسها ، حتى وإن كان راكبها، يضع قبعته البلحاء في المؤخرة ، تعلـن أن هـذه السيارة يستحيل عليها. امتلاك هوية وطنية ، غير هذه القبعة ، وأنها تتحدى بحصانتها ، كـل القـوانين وكـل الساهرين على حمايتها.

.. كلما تم الابتعاد ، ظلت الروح ملتصقة بالروح، والدم يرفرف في الدم ، والعظام تناغي بعضها.

وعند باب المعشوق لا حاجة إلى الاستدارة ، أو رفع الرأس ، أو فتح العينين. الشاعر يعرف النظرة ، لكن لا يعرف زمنها. ولم يختبر توالدية ومدرارية النون ، ولا سعة أفق الظاء وقوة حرارته ، ولا رنينيـة الـراء ، وسرعة تردد الصدى فيها. لقد كانت القيمة الزمنية في كل البيت غائبة. فالنظرة التي لا تتعدى لحظات قصارا ، حتى وإن كانت تلك اللحظات تتكرر في كل ثانية من ساعات النهار، هل يعرف أحد عمرها ، إذا كانت بالفعل ، تلك النظرة الفصل؟ ثم هل أن أبا العلاء المعري ، وبشار ابن برد ، وعبد الله البردوني ، وطـه حسـين ، لـم يعرفوا النظرة الاغتراف الوڑر ، ولم يقدروا عمرها؟ يا له من تسـطيح ، لا يجـوز إلا فـي مفهـوم التقـدير الجزائري، الذي لم يبهره أي أعمى فرنسي ، أو ألماني.

ماذا جعل بشارا يقول: "*العين تأمل فيك قرتها*" ، وبأية عينين تشرّب ابن برد بسمة عبدة ، أيها الحمقى؟

التواصل ، حاصل ، والنظرة استقلت بعمرها ، ولعل المعشوق الآن يفكر ، فيما يجب أن يفضي به إلـي ، وإنني لأفهمه قبل أن يجمع الحروف ويصوغ الكلمات.

- ....
- موظف سام نعم..
- ....
- عمر الإدارة الجزائرية لا يحسب.
- .....
- كل شيء سيصلح في إبانه .
- ....
- من أصل مسرحي. أعطيت للثورة وللاستقلال ، ما يرضي الواجب والضمير.
- ....
- سوء فهم ، من وزير الثقافة والإعلام. لا. لا تغضب فلا بد أن هناك عبارة ، أكثـر وطنيـة ، وأكثـر التزاما ، من سوء الفهم هذه. هل تكفي عبارة " تقدير" شخصي للوزير ، كان مخطئا. أوف. صـادف ، وكـان مخطئا. حتى هذه لا ترضيه. لنقل إن شئت ، حزْم مبالغ فيه ، في تطبيق مبدأ الرجـل الناسـب فـي المكـان المناسب.
- ....
- دون *مبالغ* هذه. لا بد من عبارة ثوري. لا ينزع اليسار عنكم صفة الثورية. ولا يحتكرها لنفسه. لـيكن حزما ثوريا. كما تشاء
- ....
- لا أستطيع ذلك. أرفض القرض المالي. شكرا. شكرا.
- ....
- نعم أحبك. كيف؟ المحبة لا تكفي!
- ....
- والاعتراف ، هل يؤدي المعنى المقصود؟ ماذا إذن؟ ماذا؟ وهل للعاشق غير التسليم
- ....
- أنتظر. في حقيقة الأمر ، أنا في حالة ليس لها مصطلح سياسي. العشق. العشق. في الجزائر التي هـي جزء من العالم الثالث، مؤسستها العسكرية لها طابع وطني. ذات خاصية تقربها من البلدان الاشتراكية.

- ....
- هذا هو المصطلح الصحيح. إنني لمسرور ، بهذا التوفيق.
- ....
- في تقديري أننا بدأنا نحب بعضنا.
- ....
- صيغة المفرد ، لا بد منها هاهنا.
- .....
- عفوك. أنا بدأت أعشقك. وأنت؟
- ....
- لا. لا تغضب.
- ....
- صحيح ، وإلا كيف كنت أعرف أن قدري أن أعشقك. في البدء كان اهتمامك بي.
- .....
- الاهتمام تعبير مبالغ فيه؟ هل تعوضه الرعاية؟ ما أسعدني ما أشد سعادتي.
- ....
- نعم. لي مطلب بسيط جدا. فقط أن يحذف الصوت من التلفزة أثناء نقل مقابلات كرة القدم.
- ....
- لا ، ليس صوت الجمهور. إنما...
- ....
- أقسم أنني لم أقصد السياسة. لا . لا تغضب. ليس معارضة لا بيضاء ولا سوداء. وكيـف أفكـر فـي انقلاب أبيض أو أحمر ، أنا الولهان.
- ....
- صدق غوبلز إذن

لن أساله ، مرة أخرى ، اليوم. لا حاجة للمعشوق. بأن يجهد نفسه فيقول ، لماذا كانت بينه وبـين العاشـق النظرة. وعما إذا كانت المبادرة منه ، أم هو مجرد التقاء الأعين ، في موجة واحدة. على العاشق ، فقط أن يبالغ في اتضاعه ، لاستدراج المعشوق إلى المرحلة الثانية ، الاتضاع طبعاً ، بالمعنى البشري الخاص بهذه الحالـة ، وإلا تهدم كل شيء. وهو ، المعشوق ، لا يعذرك فحسب ، وإنما يجد غبطة ، وأيما غبطة - قال المجربـون - في ذلك ، ما لم يكتشف خطأ ما، في التكون الأول للنظرة وهذا لا يتم ، إلا في حالة تحول الضعة إلى خسـة ،

صحيح أن الطيبات للطيبين ، والخبيثات للخبيثين ، ولكن لا أحد أدخل الخسة في الخبث ، وإلا تواصل الكـلام، بالخسيسات للخسيسين. والحق أن العشق ، لا يسكن أصلا ، كيان خسيس أو خسيسة. أولئـك قـد يكـون لهـم مصطلح آخر، انتهازيون ، مثلاً في المجال السياسي و المالي. هؤلاء ، الخسيسون و الخسيسـات، لا يعرفـون القيمة الزمنية للنظرة ، بل إنهم لا ينظرون إطلاقا ، إنهم يشمون ، حاسة الشم عندهم لا تضاهيها فـي قوتهـا ، حاسة الشم لدى الكلاب ، قد يستعذبون ، نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء ، لكنهم ، لا يسـتوعبون منهـا إلا ، كلمة لقاء ، وهي كما عند غوبليزات النفط ، وشعراء الذمة ، ليست سوى كلمة ، كافها تتحول في الخلـيج إلـى شين ، إلا أن أولئك ، طوال العمر ، وهؤلاء قصاره، الأولون يستعطون وهؤلاء يعطون ويعرضون العطاء حتى دون استعطاء. الأولون يركبون أما هؤلاء ، الخسيسون، كي لا يخـتلط المعنـى ، فيبرذعـون ، ويسـرجون ويلجمون.

لقد فهم المعشوق ، أنني مهما كنت طيباً أو خبيثاً ، عاشق وبالتالي لست خسيساً.

يبدوا أن عملية الاستدراج تمت. لكن نقاوة العنصر ، كانت أقوى. لم تتعد المسـألة ، حـد الاصـطلاحات والمفاهيم ، هذا جائز جداً، بل ، بشري ، تماما فمهما كان الأمر ، فعواطف المعشوق رقيقـة ، ولـدى اقتحـام الأرواح الأول لبعضها ، يمكن أن ينكسر جزء منها. فالولوج مثل الخروج ، عسير. إن العاشق وإن تواضـع ، يعتبر نفسه دائما ، صاحب حق ، واللغات في هذا العصر ، تكاد تختلط ، والمذاهب لم يعد يفرق بينها شيء.

ما أسمعه ليس كلاماً ، لا أحد قال إنه كلام ، وإلا ضاعت المرحلة الثانية ، تفلت ومضة النظرة ، زبـدتها، فحواها ، وحصيلتها: البسمة ... تتحول العملية كلها ، إلى بيع وشراء ، تلفت البطيخة النظر ، تتسلط الحواس ، جميعها عليها ، السلام عليكم ، وعليكم السلام ، كم سعر البطيخ اليوم؟ مغازلة شاعر ما لنجاة ، يقول لها أنـت ممتلئة ، قبل أن يقول لها أنت جميلة. أو أنت لطيفة ، أو رقيقة ، حب نفطاني.

ليس كلاماً ، قد يكون الرفّة الأولى لجنين البسمة ، في رحم الاكتشاف ، تفتق البذرة الأصل ، للطمأنينـة ، بسمة علوية رفيفها ، لا تستوعبه الروح البشرية بيسر. رفيف ، يتأمل بكامل الكيان الذهني ، ذي التجاويف التي ينام فيها جميع الأجداد.

اخرسي أيتها الأشباح السابحة في الكلمات ، نامي. دعي الأشعة، تولد من ثغر حبيبي ، فإنني أحـس بهـا تغمرني ، تلفني في نفش السلام ، تخلصني من الجاذبية ، وتضع الحلمة بين شفتي ، فتكسب الرحيق في جفـاف أيامي.

يا أيتها النفس المهدهدة ، اسكني إلى نورك ، راضية مرضية.

ترف. ترف.

ما أشمل السكينة الآن ، عند بابك ، فتحت أم لم تفتح ، لن أطرق ، لأنني أعلم أنك هنا ، ولأنني واثق مـن أنك تنتظرني ، وأن الأبواب والجدران وكل الحواجز ستنمحي ، وتملأ طلعتك الروح، حينما تـأذن ، فيسـتحم

الشلال في الشلال ، يرتوي الدم بالدم ، تسكر الذرات في الذرات.

يرقص المولود الجديد.

لن ألتفت إلى الخلف ، أنني هكذا أراه ،وما جدوى العينين إذا كان النظر قصيرا ، لا مسرح ، ولا ثورة ولا إدارة أو كاتبة اسمها نجاة ، أو مساعدون خسيسون ولا سائق تعاقد مع واحد ممن لا يسمون ، على بناء فيلا ـ ة ، لا عبد الله البردوني ، ولا بلقيس أو حتى نفط ، لا شيوعيون ولا إخوان مسلمون ، لا مخابرات ، ولا غوبليزات ، لا وثيقة خطيرة وقعت بين أيدي الوزير ، طلب في شأنها استشارة.

الزمن عامر برفيف ثغر المعشوق ، ومن لم يمتلئ به لن يدخل العشق قلبه. خسيس هشيلة.

أنت هنا! أنا هنا !

الأرض ذرة كهربية ، في فضاء الذرات الرحب ، تواقة لحمل شحنة ما ، من الذات الكلية ، عبـ ر موجـ ة مكتشفة ، في أثير ما ، أنت ترسلها ، أنا أتلقاها ، هل آمل في لحظة فوران ، كي أبث قليلاً مما يعتمل من وجـ د في الهيولي ؟.

اخرسي أيتها الهامات الهاربة من جثث الكلمات ، انمحي افني اخفي ظلالك، فالنور لا يسقط من منبع واحد والبحر ليس قطرات تعد ، والصحراء ليست حبات رمل ، تحصى.

آه يا قرة عيني !

من أخذ حضرة المستشار من يده ، عندما ادلهمت الظلمة وقاده إلى مكانه ، قطع به الطريـ ق المـ زدوج ، ونزل به تحت الجسر الحوال ، وصعد نحو الدرب الضيق ذي الأشجار البرية الكثيفة ، حيث لا يحتاط السواق ، فينطلقون بالسرعة القصوى وحيث يحلو للكلاب المهجورة ، واربما الهاجرة ، فمن يعلم بما في دخائل النفـ وس، وأن تصطاد بعضها ، وأن تتناسل بالرائحة اللفسة، من قال له إن المفاتيح في هذا الجيب بالذات ، وإن هذا الباب ، يفتح بهذا وليس بذاك ، وإن أزرار النور ، على هذا الجانب وليس على الجانب الآخر؟ من أفهمه أن الجـ رس عندما يرن ، يعلن بأن شخصاً ما بالباب الخارجي يطلبه؟.

هاهو هنا ، داخل المسكن ، ذي السبع غرف ، كل غرفة لها شخصيتها المميزة لها: غرفتها ملكـ ة اللوحـ ة التي لا تنمحي. غرفتهم ، تحت رعاية ، بروميثيوس ، غرفة دار الحكمـ ة ، يتصـ درها " أبـ و قيـ ر"، غرفـ ة المتخاذلين المهجورة. غرفة الماضي. أخيرا غرفة الواجبات: الأكل والنوم.

ماذا يقول لنجاة التي تحمل قفة ملآى بالأكل وقنينات النبيذ وتصطحب ابنة خالتها ، ذات الجمال المرعـ ب؟ من يثرثر في الحديث عن الذرات والقطرات ، ومن يستطيع تجزئة وهج الشمس الساطع؟

ماذا قالت نجاة؟ ماذا قالت ابنة خالتها؟ كيف سكرتا؟ كيف تمكنتا من اقتحام غرفة التخاذل ، ثم غرفة النوم؟ هل حضرتا بالفعل؟

كيف تصبر الكلاب ستة أشهر عن الرائحة اللفسة؟ كيف لا تعرف ذكورها الجنس إلا بهذه الرائحـ ة. مـ اذا

يثيرها غير ذلك؟ كيف ارتبطت الغريزة بالأنف؟ يا لها من آلية ، لا تتحرك إلا بميقات؟ هل العين عند الإنسـان تعوض حاسة الشم عند الحيوانات؟

هل عرف أبو العلاء المعري ، ما عرفه بشار ، ولو مرة واحدة؟ أحقا لم يجْن على أحد.

كيف هانت الحياة على الفيلسوف ، أمام عشقه للحقيقة فسلم في نفسه ، مقابل أن لا يسلم فيها.

إليكموه سقراط. افعلوا به ما تشاؤون ، فلن يشعر بوجودكم ، إنه سكران ، شرب الحقيقة فسكر ، سكنته.

إنه قرير العين ، والعشق..... والله غلاب.

الصراخ في الوادي

سيبوني يا ناس ، سيبوني يا ناس ، أنا وحبيبي سيبوني.

ما بلغت الاستغاثة أذن أحد ، ولم تعدُ أن تكون خاطرة ذاتية في ظرف جد ذاتي ، تصـدر أو لا تصـدر ، تنبعث أو لا تنبعث ، مادام الأولون ضربوا مثلا بالصرخة في الوادي ، رغم أنه لا أحد يعـرف أي واد كـانوا يعنون! النيل أم الدّجلة ، الفرات أم وديان الجزيرة ، تلك المنفرجات بين الجبال الصخرية المتأهبة من يوم خلقت لاستقبال سيل ما ، في أية لحظة ، والتي تضيع فيها الصرخة منكسرة مرتدة بين صخرة وأخرى ، حتى تسـتقر في قلب صاحبها ، فاترة حزينة يائسة... وا...وا... لامغيث. واجه قدرك منفرداً.

لاشك أن الصرخة كانت ولا تزال قضية ذاتية بحتة ، لا أحد يأمل أن تبلغ آخرين. كل ما هنالـك ، أصـل الدافع ، أن تمتلئ الأذن بصوت الفزع الذي ترسله الخلايا ، يستهل بها الإنسان حياته حال مغادرته لبطن أمـه ، ويظل يتذكرها كلما واجه الفزع المرعب.

من يقول إنها انقطعت أو تنقطع في لحظة من لحظات العمر ، وإنها ليست إيقاعا منتظماً ، يرسله جهاز ما في الكائن يتموج في الذرات ويستقبله جهاز آخر في موضع ما من الذات الكهربية للكون؟

من يدري؟ وفيم يهم ذلك؟ ثم أليس كل هذا ثرثرة ، صفيرا في ليل المتفرد ، إخفاء للرأس في الرمل هروبا منهم..؟

هاهم يتجمعون. هنالك. أعينهم الممتلئة شماتة ووقاحة مصوبة نحوي. الكلاب. أطفال الحي ، من قال لهـم إن النظرة حصلت وإن البسمة اندلعت ، وأن الكلام دائر الآن. دائر في مراحله المفاهيمية ، طبعاً ، طبعاً... فمن بقي يعرف الشعب الآن؟ من يزعم ذلك؟ الشعب نفسه لا يستطيع أن يفعل ذلك. هو نفسه لم يعد يعرف نفسه. من مازال يذكر التفاصيل ويعلم الأسرار المختلفة ، أسرار الأمة وأسرار المدينة وأسرار الحي، وأسرار العمارة ، ثم أسرار البيت الصغير ، وابن و بنت الجيران؟ هل في إمكان أحدنا أن يدعي أن قلبه اهتز ، أو أن الأرق لازمـه ليلة البارحة بسببهم ، الأطفال جيرانه ، الذين باتوا على الطوى ، انتظروا وانتظروا أن ينتهي غليان الماء فـوق النار إلى أن غلبهم النعاس فناموا على حلم قصعة كسكس مدبجة بقطع ضخمة من لحم الضأن.

«لم أفهم القصد من هذا اللفظ؟ !».

هناك شيء ما مات ولا أحد يهتم بالقاتل.

يا لها من حساسية ورومنسية ثورية. نحن لا نغرق في الفردانيات. هذه هي الثورة.

عددهم يرتفع.

سيبوني يا ناس سيبوني.

دعوني فإنني أسمعه. بل إنه يسمعني ، وإنني لأسأله. أرملة الشهيد ، الزهرة ، صمدت وصمدت ، ثم وقعت. تفرد بها في المكتب الخلفي ، وأقنعها بأن فرج الله في فرجها ، وأنها إما أن تحصل على واجب الأمة نحوها الآن. وفوق هذا السرير ، وتحت هذا الكلكل ، وإما أن تموت جوعاً ، هي وهم ، وأنها الزهرة تتدلى في هذه اللحظة بحبل في جيدها ، وأن الجنين الذي ببطنها يرسل آخر النبضات ، صرخات صامتة ، في كل الاتجاهات.

حوادث كل يوم وقضايا شرطة ، في أمة بالغة الكبر والعمق.

يخططون... يضعون خطة جهنمية تخصني... الشياطين.

الصيادون في ميناء *قوراية* المهجور لا يرمون شباكهم سوى مرتين في الأسبوع ، خشية تآكلها وتمزقها ، والعجز النهائي في الأخير عن التقوت من البحر ، في حين توهب أموال وثروات الأمة إلى فئة خاصة تسمى المجاهدين ، ليستوردوا بواخر صيد حديثة من فنلندة وإيطاليا وأسبانيا وتونس ومن كل مكان في الدنيا ، فينتقلوا من صف الشعب إلى صف خصومه ومصاصي دمه وتعمد بذلك الرأسمالية الوطنية.

هل تذكر حكاية جحا وبائع الزيت؟

لا أعرفها أصلاً. لسبب ما أراد جحا أن ينتقم من بائع الزيت ، فسأله هل زيت القربتين اللتين على ظهر الحمار واحد؟ بالتأكيد. أجاب البائع ، فقال جحا ينبغي أن أتأكد من ذاك. دعني أفتح هذه القربة أولاً. نعم زيتها طيب. أمسك بإحدى يديك فمها حتى أفتح القربة الثانية. آه زيتها طيب أيضاً. هات يدك الأخرى وامسك هذه أيضاً. مد البائع يده إلى القربة الثانية وأمسك بفمها أيضاً. جاءه جحا من الخلف وسأله ما تراني أفعل بك الآن؟ افعل ما شئت شرط أن تعينني على إغلاق القربتين وإنقاذ زيتي...

لا تكونوا ضيقي الأفق إلى هذا الحد. المسألة، مسألة تكتيك ليس إلاّ.

يناقشون تفاصيل الخطة. أيديهم الصغيرة تشير إلى حصار من أربع جهات.

لقد ظلت تزغرد وتزغرد ، فطوم ، زوجة المواطن عبد الله الذي اقتحم باب البيت وعلى كتفه كيس البطاطس العزيز. لم تكف فطوم عن الزغاريد إلاّ بعد أن شكت في المستشفى الجامعي بحقنة أنامتها أربعاً وعشرين ساعة. لا. لا تقاطعني انتظر. المواطن عبد الله موظف ، ولقد ترك مكتبه وشغله ، والجمهور الذي ينتظره ، لينخرط في الصف من الثالثة صباحاً ، حتى الثانية زوالاً ليعلن في الأخير بيان النصر النهائي ويعود به ، كيس البطاطس العزيز. أرجوك. لا تقاطعني. دعني أفرغ ما في جعبتي قبل أن يصلوا. ومن يدري فقد يضعون حداً نهائياً لحياتي. الكلاب يبدوا أنهم يقتسمون الأدوار بعد أن ضبطوا خطتهم.. قريتها «*الاشتراكية*» ، برجوازيتنا الوطنية سليلة جيش وجبهة التحرير الوطني.

آمرك بأن تسحب الجملة الأخيرة. الحب إن لم يعن الاحترام ، يجب أن يتحول إلى عداوة. لن نسمح بالمس بالمقدسات.

سحبتها. لكن سأبدلها بعبارة أخرى... هذه القرية التي لم تدخل في برنامج الألف قرية اشتراكية ، هي قلعة المتواطئين ، والمرتشين، والمقاولين ، والمضاربين ، وأصحاب الأمر والنهي والحل والربط.

ثم ماذا ؟.

لا تغضب ، أردت أن أقول إنها ورم سرطاني في قلب الثورة ، في مخها، أفضل ، لا تقاطعني أرجـوك ، فربما هذه هي الكلمات ألأخيرة في كل ما تبقى من حياتي ، المخ يعنيكم أنتم والقلب يعنيني أنا ، وكل النحن.

ثم ماذا بعد كل هذا الكلام.

حلم النحن يا حبيبي أن ننصب مدافع وصواريخ وأربيجيات ، وأن نظل نقنبل إلى أن يذوب الورم السرطاني ، وتستوي الأرض ، ويستوي الماء والخشبة... أبسط ما ينبغي فعله هو إقامة جدار برلين بين هذه القرية و بين باقي الوطن.

شرعوا في جمع الحجارة و الطوب.

هذه هي - على حد تعبيركم - اليسارية الطفيلية بعينها.. وإلا فكم عددهم ؟! وهل يعسر على الثورة حـين تقرر أن تمرر يدها على هذه القرية - كما تقول - وغيرها من القرى ، لتسوي الوضع كما ينبغي ، المهم هـو الثقة ، وترتيب القضايا حسب أولويتها ، ثم إننا لسنا في المريخ أو عطارد.. نحن جزء من هذا العالم. أكثر مـن ذاك ، نحن عصب العالم.

لا تأكلني بالكلام.. الحزب ماذا يحركه بالنسبة إليكم؟ مطامح وثقة الجمـاهير ، أم رائحـة البخـور..؟ لا تغضب. فليس ما يخرج من بين شفتي ، وما تسمعه سوى ما تعلمه مما يعتلج في قلبي ، أعلم أن الحزب الحقيقي بالنسبة إليكم ، ليس حزب كل الناس ، وإنما حزبكم الشخصي ، الذي يتشكل من أولئك الـذين لا يسـمون.. إن كنت ستغضب حقاً فسأعود إلى صمتي.

لا . لا . واصل.

هاهم ينطلقون . الكلاب.

هاي هاي. ماما.. أج أج.. نون نون.

هل كان عبد الناصر مصيبا أو مخطئاً؟

مخطئاً طبعاً !

.. هذا رأيي أيضاً رغم إصرار القذافي وجبهة ثلاثة وعشرون يوليو.. هل تسمع بها ؟ قد يأتي اليوم.. فلـمَ تعاد نفس الخطوات.. لا تجب فهاهم يجيئون.. أسمع الإجابة ، فهذه الجوقة التي لا تتغير ، عازف البيانو اليوم ، هو عازف الأرغول غداً ، عازف القانون اليوم هو عازف الناي غدا، ضارب العود أو الربابة أو الدربكة اليوم، يمكن أن يكون أي واحد في الجوقة في وقت آخر.. ماعدا قائد الجوقة طبعا.. نعم هذا ما أردت قوله.. صبرك لا تقاطعني. أنت الذي تملك كل الوثائق والقرائن والتقارير والمستندات، أواثق من أنه لا أحد من بينهم معاد للثورة،

عندما يكونون أمامك في اجتماع ما؟!

توقفوا، فجأة توقفوا. المسافة بيني وبينهم لا تتعدى خمسين مترا، لا أحد منهم يلتفت أو ينظر للآخر، عيونهم الوقحة مركزة فيّ، كأن بيني وبينهم ثأرا أزليا. نظرتهم الشرسة تزعجني، عيون الذباب هذه كم هي شرسة.

مجنون هوه هوه.. مجنون هوه هوه.. ماما ، جيم جيم. نون نون.

انطلقوا فجأة بالصوت الواحد ، وكأنهم آلة موقوتة... حاولت أن أتزحزح أن أتأخر قليلاً إلى الخلـف ، أن أطلق ساقي للريح ، أن أقول لهم كلمات ، أعرّفهم بنفسي ، أذكّرهم واحداً واحداً بالروابط التي كانت بيننا ، لكن قوة ما تملكتني فجمدت كل حواسي، ولم أعد أتحكم في أي عضو من أعضائي .

لقد انبعث صوت حبيبي فغمرني واختفت الدنيا ومن فيها عن نظري.

ما مجنون. هوه هوه.. ماما.. جيم جيم.. نون نون.. هوه هوه.

كيف التأموا. كيف جمعوا بعضهم ، كيف اتحدوا على فكرة واحدة ونغمة واحدة ؟ !

ماما. جيم جيم. نون نون.

المهم أن يبقوا حيث هم. ليفعلوا ما يشاءون ، ما يضير مادام حبيبي ها هنا.

هوه هوه.

اللعنة عليكم يا أولاد الزنى يا سلالة العسكر.

مجنون نون نون. هوه هوه.

كلهم أولاد حارة ، يعرفونني ، ويتباهون على أولاد الحارات الأخرى بأنني ابن حـارتهم ومقـيم بيـنهم ، وبأنهم أصدقائي ، يشترون لي من المتجر خبزاً ولبناً وكبريتاً وشمعاً وسجائر ، ومن حين لآخر يركب أحـدهم السيارة معي وحده ، أو مع أبيه أو أمه ، يمد رجليه الصغيرتين ويرفع رأسه في شـموخ وكبريـاء: *أفسـحوا الطريق. إنني اركب سيارة الحكومة مع الفنان الكبير. حضرة المستشار.*

كانوا جميعاً أصدقائي ، وكنت بدوري صديقاً لهم أحبهم فرادى وجماعة ، أجاريهم فأزيل الكلفة بيني وبينهم وأمتلئ بإحساس الفخر الذي يعتريهم.

فجأة هاهم ينقلبون رأساً على عقب وها هي أصواتهم الهادرة. تحل محل حبهم . ما أسهل العداوة في هـذا البلد.

ماما... جيج جيم.. نون نون هوه هوه.

ما الذي حوّلهم فجأة إلى حيوانات صغيرة قاضمة ، يمكن أن تُحدث الأذى و الوجع.

هل كانوا يتربصون بي من عهد بعيد ، لأنني أعزب ، لم أخرج إليهم ولداً يتباهون بصداقته أو بإيذائه؟ من يدري.

فهذا ليس سوى انتقام نابع من حقد دفين. لعل أخوات بعضهم العوانس اللائي انتظرن وانتظرن دونما جدوى

، استقبال قميص أو سروال حضرة المستشار للغسيل أو الكي ، اكتشفن في الأخيرة ثغرة العشق هـذه فشـكّلن جيش الانتقام.

هوه. جاجا. نانا. وا وا. نانا.

قبل أن يتجمعوا ، كانوا كائنات صغيرة ، لطيفة وجميلة لكن هاهم الآن وحش ضار.

لم يجرؤوا على خطوة أخرى بعد ! لعلهم ينتظرون رد فعلي.

كنت تحدث نفسك ولاشك! أهذه كل تهجماتك على الثورة؟

عتاب مجرد عتاب ، بل ، أقلّ من عتاب ، إزالة حيرة إن صحّ التعبير ليس إلاّ.

لك ما تشاء نسمح لك أن تحول ما تسميه بالعشق إلى سياسة ، وأن تحول ما تسميه بالسياسة إلى عشق ، ما دمنا قررنا أن نسمعك.

ذاك مصدر سعادتي !

نعلم ذلك .

هوه هوه.. اعطوه.. اعطوه.

الأجساد الصغيرة تنحني وتستقيم بسرعة. الأذرع تمتد بشيء ما. الرذاذ يتساقط حولي. شيء ما شبيه بـذلك ، ينزل فوقي. المساكين.

ماذا تقول؟ تفضل أن تؤجل كل الإجابات ، حتى أفرغ كل ما في جعبتي ، وهل انتظرت يا حبيبتي في يوم من الأيام إجابة ما ؟ بل هل سألت.

سيارة تتوقف. سائقها يلغط فيهم: *ماذا تريدون عنده. المسكين؟ حرام حرام. ربنا يدخلكم جهنم على فعلكـم هذا...*

امتدت الأذرع نحوه. الرذاذ يتساقط على سيارته. صوته يبلغني. المحرك يتجشأ. يهرب.

هوه. هوه. اعطوه. اوه.

ما تسمونه باللامركزية في التصنيع ، أليس نظرية ثقافية بئيسة مصاغة في شكل أذكى، ففي حـين يلغـي صاحبنا ما لم تلغه لا الرأسمالية ولا الاشتراكية، الطبقة العاملة، ويسعى إلى إحداث نـوع جديـد مـن مجتمـع متحاصص، تحت شعار شركاء لا أجراء، نعمل نحن على استحالة تبلور هذه الطبقة بوعيها وفعاليتهـا، وذلـك بتشتيتها في مختلف الأصقاع، وبإبعادها قدر الإمكان عن المراكز الإشعاعية للعمل النقابي. شأن الجامعـة التـي نظل نتسول أساتذة لها، ثم بعنوان ديمقراطية التعليم، ننشئ لكل فرع من فروعها، جامعة في بادية أو حاضـرة ما. أريد أن أعرف، إن جاز لي ذلك، هل تنظرون أو بالأصح، هل تستمدون، نظرتكم، من الماضي ومعطياتـه، أم من المستقبل وحتمياته ؟

هذا سائل أحمر، يترقرق أمامي.

هوه. هوه. ماما. جاجا. نون نون. هوه هوه. اعطوه اعطوه.

هذا رذاذ أحمر. الأيدي الصغيرة مازالت تتطاول نحوي.. إذا ما توفرت الفرصة لإفراغ مـا فـي القلـب، فليفرغ المرء قلبه حتى الأخير. حالة عشق، يتفق عليها جميع العاشقين، وإلا كيف يمكن أن يقال إن هناك تلاقيا ما حصل وتم؟ ثم أيّنا؟ الوزير أم أنا، أحق بالمنصب..؟ لا حاجة للإجابة، فبإمكاني أن أعلن أن السؤال لا يتوقف عند هذا الحد، أو عند هذا الشق.. إنها معارضة صريحة أعترف بها، لأنه هو نفسه، سعادة الـوزير، يبيح لنفسه، كل ليلة، حق التوغل في أسئلة من هذا النوع.. ولقد قال لي مرة بإنه عجين يأبى أن يتخمر. نعم قال لي ذلك، وهذه ليست بالمرة وشاية.. حالة العشق تنعدم تماما، لتفسح المجال لتسلط الخسة على جميـع مرافـق الحياة.

ألا تخجلون! دعوا المسكين؟

لن ندعه حتى يتزحزح من موقعه. هوه هوه.. أعطوه طوه.

الأذرع تمتد نحو السيارة، شظايا الزجاج الخلفي تتطاير. السيارة تهرب. حتى أنا قدرت أن موازين القـوى المختلة لا تسمح بإعلان الاشتراكية العلمية. الماركسية اللينينية، في مثل بلادنا، تهور وطني وقومي وأممي. قلت لهم هذا الكلام، قبل أن أنفصل عنهم، فاتهموني بالتخاذلية والتوفيقية. الانفصال لا يعني أكثر من رفض الارتباط بهم. تعلم ذلك. لكن لم أكن أقصد إضافة أي جديد، وليس هناك أية صلة أصلا لهذه المسـألة بأحقيـة الـوزارة. مجرد خواطر.

أح. أح. تزحزح. هوه هوه. نون نون. مجنون.

الحجارة والحصى تتكدس حولي وتغطي السائل الأحمر. هل لكم يا حبيبي مفهوم خاص للوضـع الـذي لا يعدو أن يكون وهميا، حسب رأيي واعتقادي، وإلا كيف يعقل أن يتسرب إلى وهم كل جزائري أنه مـا تجمـع ثلاثة، إلا وأحدهم، بالضرورة وبالتأكيد والقطع، إحدى عيون آرغيس. أعلم ذلك، أعلم أن التدريب يتم إمـا فـي الإتحاد السوفياتي وإما في كوبا. إشكالية الأممية الثالثة، كما قلت لهم. بدل تكوين المناضلين يكونون المخبـرين، ويعطونهم أسرار مقاومة الحركات "*الهدامة*" الأمر الذي يجعل شخصا مثل سعادة الوزير، رغم ما أوتي من ذكاء ودهاء، ورغم ما أتيح له من التعرف عليّ وعلى أفكاري وعلى مبادئي، لا يستطيع أن يتصور أنني غير داخل، بمعنى أدق، موغل، وأنني لست ضمن عيون آرغيس. في هذا البلد الآية تنعكس، وكل شيء تحول إلـى "هـف" وطني وإلى غميضة ثورية.

هوه هوه. اعطوه . اعطوه . مج. مج-.

اهتفوا. تكلموا أنتم أيضا. لنتكلم جميعا فنجد الراحة. لنتكلم قبل أن تضيق الصدور الرحبة.. كيف نحكم هذا البلد.. ن-. ن-. نح-. نحكم. نعم، فأنا بدوري أحكم، هذه هي الورطة، كلنا نحكم ولا أحد يحكم حقيقة، سـوى "*هم*". كيف لا أحكم، وأنا من استدعى عبد الله البردوني. أبدا. لا أحد – وأنا قلت هذا - يشـتكي مـن عنـف،

استعمال قوة، أو ضغط أو حتى مساومة، ما عدا قدماء المجاهدين، فهم وحدهم الذين فتحوا كراسـة مطالـب لا تنتهي إلا عندما يحلون محل المعمرين والمستعمرين. لتكن معارضة. إن الكلام يريحني، وليكن ما يكون. أعلـم أيضا.. السجون فارغة، والعسكر في شبه عطلة دائمة يلاحقون مصالحهم، الشخصية، الحـزب.. ربنـا ولـك الحمد.. وقليل من ضجيج من هنا، وأنات من هناك، في هذا الطابور، أو في هذه الحافلة، أو في مركز البريـد، أو في الولايات والدوائر، أو المستشفيات، لا يمكن تسميته بالتضجر الوطني أو اعتباره – كما تفعـل الصـحافة الغربية المغرضة - كارثة اقتصادية واجتماعية. نعم قلت لهم. إن كل شيء على ما يرام لحد الآن. غيـر أنهـم أفحموني، عندما قالوا إن المذيع لا يستطيع أن يقدم مقابلة في كرة القدم، صامتا، وهـذا هـو بالضـبط منطـق المعارضة. تجريد الثورة من سلاحها.

آح. آح. تزح.. زح. آح آح.

أعلم بالتأكيد. أن ما يهمكم ليس هو كيف نحكم، هذا البلد، وإنما كيف نواصل حكمه، نعم. كنا، كانوا تسـعة ملايين، وها هم الآن عشرون مليونا، عدد الشيوعيين، بما في ذلك حضرتي، يعد على الأصابع، عدد الإخـوان المسلمين والمتزمتين والمتخوفين والمترددين من كل مغامرة اقتصادية. لم يكن يتجـاوز بعـض وزراء، والآن علمه عندهم وعندكم وحدكم. في مساجد الثورة، المعارضة كانت عاطفية، وعلى مر الأيام، أضحت موضوعية، طبقية يدعمها الاستعمار والإمبريالية، ويعمدها المجاهدون وبنوك الثورة.

هوه هوه.اعطوه. اعطوه.

هذا السائل الأحمر، يبدو أنه دمي. كل شيء ينمحي، كل الأصوات تخفت. أنا أقع. ربما فعلت ذلـك.. آاه ، كم أنا *مسرور أيها الأب العظيم، بوجودي في حضرتك. غير أن نور هيبتك القوي يبهرني!*

"فيم جئت، وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايتون ، يا من لا يملك أبوك أن ينكر أبوتك؟".

أبي أيها الإله فويبوس ، يا من يستمتع كل ما في الكون بنورك، وإذا كنت قد أجزت لي أن أناديـك أبـي ، وإذا كانت الثورة لا تكذبني، ولا تخفي عني أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتقدم لي دليلا ، على صدقها وبرهانهـا ، يثبت بنوتي ويبدد شكوكي.

اقترب مني ، إنك حقيق بأن تكون ابنا لي ، وقد صدقتك جبهة التحرير فيما حدثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أي طلب لك كي أبدد شكوكك ، مشهدا على ذلك ، هذه البركة التي يقسم عندها الإله ، والتي لم يقع عليها بصري قط.

هل أطلب المركبة بخيولها المجنحة الأقدام ، أم الشفاعة لبروميثيوس ، أم الاعتذار عن الكلام الذي عن لي ولم أقله؟

فيم تفكر؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدسة ومدن الآلهة والمحاريب تفيض ثراء؟ أبعد ذلـك عـن الواقع يا بني. إن عليك أن تشق طريقك وسط شراك خطرة ، وحيوانات مفترسة ، ولو قدر لك أن تـنجح فـي

البقاء على طريقك السوي دون أن تنحرف هنا أو هناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنب قرنـي بـرج "الثـور" الخطير وقوس برج "الرامي" وأنياب "الأسد" الهائج ، وأذرعة "العقرب" التي قد تطبق عليك من ناحيـة ، علـى حين تهددك أذرعة "السرطان" من ناحية أخرى.

كم يوما مضى علي ها هنا؟ من أتى بي؟ ما هذه الضمادات التي تلف رأسي؟ رائحة فجرية تعبق في الدار. فالس ينبعث من هنالك. من غرفتها ، من فعل بي كل هذا؟ ما يهم ، ما جدوى معرفة ذلك؟

كل ما في هذا الكون عرض لجوهر.

للعاشق في حالة عشقه ، وللمعشوق في أوج كبريائه.

مانغالا لا تغني

لم يشتط المعشوق في أي طلب. قال إن له طلبا ما. العاشق ، هو الذي يتخذ المبـادرات ، يؤكـد صـدق التجربة وصفاء النية وصدق العزيمة ، فيجبر المعشوق إلى إبداء رغبة ما ، ولو كانت مستحيلة. فتكون برهانـا ساطعا على الرضا التام، وعلى الفناء الكلي .

يحمل الرجل السكين ، ويبطح ابنه ، ويروح يحز رقبته ، تصديقا لحلم .

تهزه البسمة عند الساقية، فيهب عقدا من عمره، يرعى الأغنام ثمنا لها، تلكم البسمة .

تركب بالصدفة نغمة ناي ، فتعثر عليه ، وتظل هنالك ، تعزف لكي لا تفارقه. رصد غوص في العمق.

التجربة من أولها.

التخلي عن ركوب السيارة الوظيفية ، وتسريح السائق واستعمال الحافلة العمومية : الوقوف فـي الصـف الطويل ، التظاهر باحترام الأعراف والقوانين ، تأتي الأولى ، ينهار جرف الرمل الذي نقف عليـه ، ننحـدر. نصعد. ننحدر. تنصرف الحافلة ، لتجد نفسك من جديد في آخر الصف. تأتي الثانية. يبدأ كل شيء مـن الأول. مرة. مرات عديدة. يحتجون. يتظاهرون بالاحتجاج ، تطيب نفسك لذلك ، ترى المحتجـين ، أول المتسـابقين. تمتلئ في أعماقك ، ينهار الجرف. تستعمل منكبيك ، ذراعيك. كل ما فيك، تنطلق الحافلة ، فتجد نفسك ضـمن من فيها.

الحي يروح.

بعد أيام تتحول العملية إلى روتين ، إلى صراعات جماعية يومية ، وإلى إدمان لا غنى عنـه ، إلـى أحـد أسرار المعرفة.

آلة عزف خصوصية جدا ، لدى كل واحد. ناي، عند هذا، دربكة عند ذاك. عود من هنا ، رباب من هناك. دف في هذه اليد ، طبل ، في تلك ، وتنشأ جوقة وطنية ، لجذبة كبرى ، تتكرر أربع مرات في اليوم ، يسهم كل واحد فيها بآلته.

من يستطيع القول ، إن المعشوق أمر بذلك ، أو أنه طلب منك؟

تأتي اليوم ، بلا ربطة العنق ، أو بلا سترة ، أو بهما معا ، لكن بدون حذاء ، وبجوارب حمر . نعم اللـون الأحمر ، كان جزءا صميميا ، في التجربة: يغمرك العرق والغبار أو الماء والطين ، تبدأ الحرارة ، أو البرودة ، تنفذ من الأصابع ، ، ثم من المشط ، وتصعد إلى الكعبين فالرسغين ، فالعرقوب ، وتسكن الجسم كلـه ، تـزول الرؤية بالتدريج ، أو تسكن بصفة نهائية.

تأتي غدا ، حافيا تماما ، خطوة على المشط ، خطوة على العقب، خطوة على هذا الجنب ، خطوة على ذاك ، حصاة من هنا ، شظية زجاج ، وشلخة ، هناك. لسعة شوكة أو عود يابس ، من هنالك ، متر ، اثنان. أمتـار. تصميم جاد. مكابرة ، اقتناع تام بالحلم ، ذوبان كامل في البسمة ، فناء نهائي في النغمة ، سكر. ودر ، عشق.

تلكم هي الحالة المراد تبليغها إلى المعشوق ، أو التي على العاشق ، أن يبرهن عليها في كل تجربة اتصال وليتوقف أصحاب السيارات ، والشاحنات والدراجات ، في الطريق المزدوج ، عند الجسر الحوال ، ليسـخروا ، ويهزؤوا ، أو ليشفقوا ، ويتحسروا ، ما شاؤوا. يسأل بعض الزملاء والمعارف ، عما إذا كان في إمكانهم ، تقديم خدمة ، أو مساعدة ما ، منتظرين بعض ما يدلهم على الحالة الصحية ، وعلى درجـة خطورتهـا ، يكبّـرون ، ويحوقلون ، ثم يمضون آسفين ، مهزومين.

مهزومون نعم. ولتتكرر هذه الكلمة ، فقد ظلوا يهتفون أياما عديدة ، مجنون ، وظلوا أياما عديدة ، يتفننـون في الإيذاء وفي وسائله. استعملوا الحجارة ، المهاميز، الإبر ، وفي الأخير انهزموا.

تجمعوا في الأخير ، تحت الجدران ، والأشجار الظليلة يتندرون بالمجانين ، وحالاتهم ، حسب ما عرفه أو سمعه كل واحد منهم. حتى وصلوا إلى الحالة الخاصة التي شهدها الحي ، هذه عدة أسابيع.

أجمعت الأغلبية ، على أنها جنون طبيعي ، يمس الفنانين العظماء ، وحضرة المستشار ، *الرايس* قبـل أن يجعلوه مستشارا ، لم تعرف بلادنا فنانا أعظم منه على الإطلاق ، بعضهم روى أنه شاهده في أحدب نـوتردام ، كازيمودو بالذات والصفات ، بعضهم يذكر أنه شاهده مغربيا أسود ، بطرطور رمادي ، يخنق ديدمونة بوسـادة حرير.

- كان اسمه"أصدق" في مسرحية لا أذكر عنوانها ، لكن أعرف جيدا أن أصدق كان قاضيا للشعب. رغـم أنه أبله ، فإن الجميع رضوا بحكمة ، في إعطاء الطفل إلى الأم التي أرضعته الحنان ، بدل الأم التي أرضـعته اللبن.

- في دارنا صورة. تملأ جدران غرفة كاملة.
- غرفة أختك.
- لا. غرفة أمك العاهرة.

نشبت معركة صغيرة ، سرعان ما حوصرت. ووضع حد لها ليستأنفوا درس حالة حيهم.

- المجانين في رؤوسهم الدود.
- لا. المجانين تسكنهم جان.
- بعض الجان مسلم ، وبعضه مسيحي. وبعضه يهودي.
- الجن اليهودي ، هو أخطر جان على ما قالت جدتي ، فهو ماكر ، وبالإضافة إلى ذلك ، شرير ، لا ينفع معه إلا الحرق.
- ومن أي دين تظنونه جن حضرة المستشار؟
- مسلم.
- لا. مسيحي.

- كيف عرفت ذلك؟
- رأيت في داره الخمر.
- أمي تقول ، أن البنت السوداء فجرية ، هي التي به ، وقد قالت إن فجرية ، ليست من الإنس ، وإنما ابنة جني أسود. وهي تركب روح حضرة المستشار ، وتسافر إلى بلادها ثم تعود.

استمع أخوها بتلذذ إلى الحكاية ، وعندما انتهت تماما ، انتبه إلى أن من واجبه أن يحتج.

- لقد اتفقنا أن ندع أخواتنا وأمهاتنا. حيث هن.
- إنه لم يقل كلاما يسيء إلى فجرية.
- تهزؤون منا لأننا فقراء.
- لا أحد هزأ منك ، أومن فجرية ، أو قال إنكم تعيشون بنقود حضرة المستشار.
- لو كانت فجرية ، جنية ، لما اضطرت إلى الشغل ، كي تعيلهم ، ولكان بإمكانها أن تغرقهم في الذهب.
- أبي يقول إنه مسكون بجن روسي أحمر.
- أبوك يكرهه لأنه لا يصلي عنده في الجامع.
- أنا، قالت لي فجرية ، إنه مسكون بالكهرباء ، نعم سألتها فقالت إنه مكهرب ، وعندما قلت لها لمـاذا ، قالت لأنه عبقري.
- مامعنى عبقري؟
- مكهرب.
- قدم كبيرهم. اقتراحا عمليا:
- المهم ، حضرته ، ليس مجنونا. إنه على اتصال ما ، بملكوت الفن ، بواسطة عمود الهاتف ، لمـاذا لا نفعل مثله. إنه يصغي ، فلنحاول بدورنا الإصغاء فقد يسمع أحدنا بعض ما يصله.

راقتهم الفكرة جدا. ابتهجوا لها ، أيما ابتهاج ، وسرعان ما قرروا تنفيذها.

انتشروا على مسافة بضعة أميال ، يقفون ، عند الأعمدة ، في سكينة ووقار. بعضهم يمد ذراعيـه ، فيبـدو كأنه مصلوب ، مع العمود، أو جمع يديه على صدره ، فكأنما هو يصلي. بعضهم حاف. بعضهم انتزع سترته ، بعضهم انتزع سرواله. لقد اتفقوا على أن يتبع كل واحد منهم الحالة التي يذكر أنه رأى حضرة المستشار عليها، وأن يعيدوا ما أمكن من الأوضاع التي اتخذها أو يتخذها.

تناقلت السيارات العابرة. الخبر ، فاندفع أطفال الأحياء القريبة ، يتراكضون ، ويتخـذون أمـاكنهم حـول الأعمدة الهاتفية ، ونظرا لقلة الأعمدة بالنسبة إلى عدد الأطفال ، فقد راحوا- كما قالوا ، يردفون بعضهم البعض ، فيجتمع ثلاثة أو أربعة أمام عمود واحد ، ويتخذون وضعية واحدة ، يشترط الأول على من يردفه أن لا يخالفه في الوضعية ، فيمتثل هذا شاكرا صاغرا.

بدأت حركة المرور ، تعرف مصاعب في المنطقة ، الأمر الذي تسبب في عدة حوادث ، تسببت بـدورها في تواجد عدد لا حصر له من سيارات الشرطة ، بمختلف ألوانها وأشكالها ، وهيئاتها. وجعل أجهزتها اللاسلكية ، تنشط مرسلة للمعلومات ومتلقية للأوامر.

كان أول تقرير شبه مفصل ، من سيارة مدنية ، يركبها شخص، يبدو أنه على جانب كبيـر مـن الأهميـة والخطورة ، والتعقل مع ذلك:

"من العين الزرقاء. إلى النبع الصافي. الأمر لا يتعلق بمظاهرة سياسية البتة ، ولا حتى بحركـة احتجـاج. ضعوا هذا في الحسبان حتى لا يحصل ارتكاب أي خطأ. لحسن الحظ ، أن عيوننا في الوزارة وافتنا ، في الوقت اللازم بالتقارير. وإن لم نحلها قبل اليوم ، لأننا ، كنا بصدد ، جمع الحد الأقصى من المعطيات. موظـف سـام تبدر منه ، تصرفات ، لا ندري أهي مرضية ، أم اعتزالية. ينبغي الاحتفاظ بهذا الاصـطلاح الأخيـر ، فقـد استعمله تقرير مخبر أصدقائنا ببروكسل ، وقد نخصص له ملفا نجمع فيه حالات أخرى.. نعم. شيوعي سـابق ، من ذلكم العهد. يطلق عليه بعضهم ، نعت الغراب الأحمر. أقيل من إدارة المسرح الوطني ، بتدخل من مصـالح غير تابعة لنا ، وفي ظروف جد خاصة ، الأمر الذي اضطرنا للتدخل والسيطرة على الوضع. ماضيه الثوري ، ومكانته المرموقة ، مكنتنا من تعيينه مستشارا بالوزارة. ليس هناك شبهات حوله. رغم أننا منزعجون للرسـائل التي يتلقاها أسبوعيا من موسكو. رسائل غرامية في ظاهرها ، لكن المخابر العالمية كلها ، تجمع علـى أنـه لا يمكن أن تكون مثل هذه الرسائل ، بريئة. ولقد طمأننا وطمأن أصدقاءنا ببروكسيل ، تأكدنا العيني ، من أنـه لا يفتح هذه الرسائل ، ويكتفي بوضعها في صندوق خاص. بغرفة خاصة. وسيكون موضوع هذه الغرفـة محـل تقرير لاحق. غير متزوج، لكنه يعيش مع فتاة سوداء. تقول إنها تخدمه. كل ما عندنا ، ضدها ، أنها حامل منـذ ثلاثة أشهر، وأنها تهتم بالمسرح. الخبراء يقولون ، إن هذا أمر طبيعي ، آلمته ضرسة العقل. تركها تتعفن سـنة كاملة ، ثم اقتلع كل أسنانه ، واصطنع فما في سويسرة ، التحق بخلايا جبهة التحريـر منـذ ثـلاث سـنوات ، ويواضب على حضور الاجتماعات ، وإن كان عديم المشاركة في النقاش. عرف ، هذه مـدة ، حالـة غريبـة حيرتنا ، فقد قرر أن يحتفل بالمولد النبوي الشريف. حيرتنا لأنها تحدث لأول مرة. نعم. اشترى علبة شمع ثمين ، وضعها في غرف الفيللة السبع والحديقة ، رغم أن الريح كانت تهب شبه قوية. اتصـل أصـدقاؤنا بأقمـارهم الصناعية ، ورصدوا المنطقة ، فكانت لهم شكوك ، في أن جسما غريبا ، يتواجد، مقابلا للمنطقة، ما إن انطفأت الشموع ، حتى اختفى. لقد كدنا ننساه. ونهمل ملفه، لولا التقارير التي وصلتنا، والحالة الاعتزالية التي نرصدها بدقة. انتهى التقرير. حول".

"من مَخبر بروكسيل إلى أصدقائنا بالجزائر. كبار العلماء ، في واشنطن ، يشيرون إلى احتمـال عصـيان مدني ، من نوع جديد. فكري أو خلقي ، أو ثقافي أو ما شابه ذلك. لقد حدث بعض ما يشـبهه فـي الولايـات المتحدة ، أثناء المحاكمات المكارثية ، التي شملت ضمن من شملت رجل مسرح ، يدعى ، بريخت. عندما ننتهي

من دراسة الموضوع ، نوافيكم بالتقرير النهائي".

"من موسكو إلى الأصدقاء الجزائريين ، علماؤنا ، يطمئنوكم ، إلى أن الحالة ، ليست مرضـا ماويـا ، ولا تروتسكيا. صحيح أن أقمارنا ، سجلت إشارات لاسلكية غريبة موجهة من الفضاءات الخارجية ، نحو عاصمتكم ، وتوترا مغناطيسيا في المنطقة ، يشبه الحالات التي تسبق الزلازل. لكن لا شيء حتى الآن ، يثير المخـاوف. سنتصل بكم مرات أخرى، اطمئنوا لتضامننا معكم".

"من باريس إلى مونيك ، اتركي المركز الثقافي ، والتحقي بالقصبة. السر هنالـك ، ولـيس فـي الطريـق المزدوج. نريد تقريرا مفصلا عن علاقة صالح وعليوات بفجرية".

"من كوبا إلى أصدقائنا، أرسلوا ميليشيا إلى الموقع واجعلوا الأغلبية لصالحكم، ينبغـي إخمـاد النـار مـن الأسفل"

"من بوركينا فاصو إلى إخواننا. نحن نتألم كثيرا لما يحدث عندكم. وتعبيرا عن تضامننا الأخـوي. يصـلكم بعد حين أكبر سحرتنا، مع فريق من معاونيه. سيسيطرون على الوضع بحول الله".

"من مدير الأمن الوطني ، إلى الساعد الأيمن. أينك الآن..؟ أنا في العمود المحاذي له. يحـيط بـي ثلاثـة أطفال ، يلازمون الصمت ، ويأمرونني بذلك ، مهددين بطردي من عمودهم ، كما يقولون.. صف الحالة لنـا.. السيارات والشاحنات ، تعبر الطريق ببطء ، رغم أوامر رجالنا ، الحافة اليمنى للطريق ، انطلاقا من بن عكنون ، تبدو سوداء ، وكأنما هي خيط نمل ، صاحبنا ، غير مسرول تماما. لكن السترة والقميص ، يستران عورتـه. ذراعاه ممدودتان ، وأصابعه منفرجة. حتى إنه ليتهيأ لي أنه يشد خيوط الهاتف. لست أدري من أين يستمد كـل هذه القدرة ، للاحتفاظ بهذا الوضع الصعب. أقترح التدخل لتفريق الجميع.. ماذا تقول..؟ انتظر. هنـاك جديـد. أفواج جديدة ، تلتحق بنا. يبدو أنهم منهم. أكتافهم عريضة ، وخصورهم ضامرة ، وشعورهم حليقة".

"إلى جميع الوحدات ، انطلقوا في عملية التفريق ، نريد الرأس حيا".

"هنا الرئاسة ، جنابه في أشد انزعاج ، وغضب، هل نحن بالتشيلي ، دعوا المثقفين وشأنهم ، لا نريـد أي ضجيج يبلغ وكالات الأنباء ، أو مسامع صندوق النقد الدولي ، أتسمعون؟ لقد كنا ننفذ أوامركم . لكـن الأوامـر تغيرت. سمعا وطاعة".

"إلى جميع السيارات ، الأمر الأول ملغى ، عودوا إلى أماكنكم".

ما إن بدأت الساعة الثالثة تقترب ، حتى شرع الأطفال في التسلل ، واحدا إثر الآخر ، عائدين إلى بيوتهم ، وأحيائهم ، فاضطر قائد فرقة التدخل الخاصة ، التي يتوزع أفرادها ، على كامل الطريق، ليشكلوا الأغلبية ، إلى أن يسأل قيادته ، عما ينبغي فعله ، فالوضع محرج إلى حد كبير ، وقد صرنا نلفت الانتباه.

- تسللوا بدوركم.

تفرد العاشق بالمعشوق من جديد ، وتفرد بهما الطريق المزدوج، وبقيا محل تركيز النظارات المقربة مـن

كل نوع ، ومن كل مكان.

ما يزال مصلوبا ، عند الجسر الحوال ، انفعالات ، وتعابير وجهه متناقضة تمام التناقض ، ينشرح، ينقبض ، يبتسم ، يعبس ينبسط يتكدر ، كل ذلك يتم بسرعة خارقة، وكأنما هو يتابع مشاهد فيلم وسـتيرن ، أو رسـوم متحركة ، لا ينقطع.

إنه مهما كان الأمر ، في ذروة اللامبالاة ، والطمأنينة.

الحياة ، عموما ، في المنطقة ، عادت إلى حالتها الطبيعية ، بعد انصراف الأطفال ، ذهاب ، إياب ، صعود ، نزول كل شيء نسبي ، وحسب موقع المرء ، إلا أنه ، ومن موقع حضرته ، صعود ونزول وذهاب وإيـاب ، السرعة تتعالى ، والعجلة ، هي شعار كل من يقصد الطريق المزدوج ، وهي كل ما يحسنه الناس في هذا البلد ، وكأنما هم يهربون ، من ثعبان يطاردهم ، من الخاف.

المطر الذي ، بدأ رذاذا ، منذ لحظات والذي أخذ كلما تواصل ، يمنع من الرؤية الجانبية ، ويجعل كل شيء في هذه اللحظات يتقوقع على نفسه ، حتى الهيلكوبتر العسكرية ، التي ترف كالفراشة ، حول المنطقـة ، فقـدت ألقها وظلها ، فلم تعد تثير الانتباه ، وها هم الأطفال، يحتمون تحت أشجار الصنوبر العالية ، الكثيفـة الموازيـة لفيلات الحي، المتشابهة كلها ، في معماريتها ، وفي ألوان طلائها.

- اللغة المستعملة كانت انقليزية ، لماذا لم أفهم مما كان يقال ، سوى أوكي ، وياس.

- أنا فهمت كل شيء ، الجن لا يستعملون إلا الفرنسية بعض كلمات كانت بالبربية.

- أنا لم أسمع أي كلام ، فقط كنت أحس ، في الأول أظلمت الدنيا ، لشد ما فتحت عيني ، فلم أبصر شيئا ، ثم وبالتدريج ، وجدت نفسي ، كما لو أنني في مسرح ، من هناك ، حيث يمثلون، وليس مـن حيـث نتفـرج ، حاولت استشفاف شيء ، فلم أفلح ، كان النور طاغيا باهرا ، كنت ملكا ، على رأسي تاج وعلى كتفـي بـرنس مطرز بالذهب والحرير. ظللت كذلك ، حتى انغلقت أبواب المسرح ، فوجدتني أمام منزلنا ، أكاد أموت جوعا ، لا شك أن جنا ما عاد بي بمثل هذه السرعة.

- أنا لم أسمع سوى قراءة القرآن ، كانت أصوات كثيرة ، وعديدة رجالية ونسائية ، ترتل *عبس وتولى..* ما أن تنتهي منها حتى تعيدها ، حتى حفظتها ليغلبني النوم بعد ذلك ، أستطيع أن أسردها عليكم: *عبس وتولى أن جاءه الأعمى*...

- كفى.. كفى.

- أنا لم أسمع سوى صوت المرحومة أمي. كانت تخاطبني طول النهار ، بجملة واحدة.

- ماهي؟

- ماذا كانت تقول لك؟

- لن تراني في الجنة إذا لم تقتل أباك.

- فقط.
- فقط.
- لو كنت مكانك لفعلت.
- الليلة أقتله.
- تكذب.
- سترى.
- ليت أمي ماتت لتأمرني بذاك.
- أقول لكم الصح. جميعكم تكذبون. ليس سوى صوت الريح. ريح كبيرة. هوجاء ، مع طقطقة أصـوات ، كأنها لأخشاب أو أشجار تحترق ، صحيح أنه كانت هناك أصوات كأنها لآدميين ، تشبه اسـتغاثات وأنـات ، ومواويل حزينة لكنها كلها ، وأنا متأكد من ذلك ، لم تكن إلا أصوات الريح.
- أنت كنت في جهنم ، هذه سرقات الحلوى من متجر *حموش*.
- أنت من يذهب إلى جهنم ، أنسيت أنك تحك زنانتك على كف يدك ، مستعملا الماء والصـابون ، وأن فجرية ، قبلتك مرة بين شفتيك.
- رضعت لساني.
- هأهأ.
- كذّاب.
- دعوا الأمهات والأخوات في المنازل ، ألم نتفق على هذا؟
- هو الذي بدأ.
- لا أنت. هو الذي كذب على فجرية.
- لم أكذب.
- اسمعوا. أنتم كلكم مخطئون. الصحيح عندي ، لم يكن هنالك سوى *مانغالا* تغني طوال الوقت ، يتهيـأ لي أنها كانت جريحة، يسكن قلبها خنجر أو سهم ، وهي تنادي: بقبلة منك ، حتى ببسمة ، حتى بنظرة ، أقهـر الموت وأشفى.
- لعلها نسرين ، ابنة جاركم ، التي كانت تغني.
- لم لا تكون أمك يا عطاي.
- وما الذي أغضبك أنت؟
- البنات مثل الأولاد ، ولنا كلنا أخوات ، الأطفال يحبون بعضهم ، ثم إنه لا بد لكـل واحـد أن يختـار زوجته من الآن.

- ونسرين لماذا لم تتزوج؟ ألان حموش ، ضحك عليها ، وأسكن في بطنها جنينا ، بعد أن بعجها؟
- رب ربك ، يا ولد الهولندية ، سأقول للجميع ، ما قلتَه لي من أن المزابـي ، بعجـك بعشـرة دورو ، وعلبة شوكولاته.
- والله العظيم ، لن تفلت مني هذا المساء ، سأريك أمي الهولندية ، يا ابن المجرابة.
- دعوكم من المهاترات. كم مرة رددتم هذا الكلام وهذه التهم، مللنا. أليس لديكم ، جديد تقولونه ، حموش المزابي فجرية ، نسرين ، هذه حكايات عرفناها ، ولم تعد تثيرنا.
- انتبهوا جيدا ، أحك لكم ، ما كان يقوله عمودي أنا.
- أششت. انتباه ، يا أولاد حمود لم يتعود المبالغة أو الكذب.
- كان الحديث ، كأنما يجري بين شخصين ، أحدهما فوق وثانيهما في الأسفل ، وقد كان صـوته يشـبه صوت حضرة المستشار، الذي فوق يقول أغطس ، أريد مزيدا من الإسفنج ، والذي تحت ، يقول تعبت ، تعبت ، رئتي تكاد تنفجر ، أقول لك أغطس مرة أخرى. أقول لك دمي يمتلئ وذراعي الأيمن أحس به يشل ، هذه آخر غطسة ، هذه وننصرف. ساد الصمت مدة طويلة ، ثم راح الذي في الفوق ، يسأل لماذا لا تسحب الحبل ، أصعد ، قلت لك أصعد ، فجاءته ، أصوات أخرى ، صعدت من تحت. لقد مات.
- مسكين.
- بأية لغة كانوا يتحدثون؟
- لا أدري أنا فهمت ما كانوا يقولون ، وهذا كل ما في الأمر.
- هذا حلم ، وليس شيء آخر.
- ومانغالا التي كانت ترجوك أن تقبلها ، ألم تكن كذبا.
- ماذا لو نسأل الرايس شخصيا؟ لن يبخل عنا بالحقيقة.
- الكبار لهم لغة خاصة.
- من قال إنه يسمع ، لعله ، كان يتدفأ لا غير بالكهرباء ، كما قالت فجرية.
- في رأي أنه بصفته فنانا عبقريا ، كان يشحن مخه بالعبقرية. مثلما يشحن أبي كل ليلة بطارية سـيارته بالكهرباء.
- مع ذلك لا بد من سؤاله.
- لا ضرورة لذلك ، أنا أقول لكم بالضبط ما كان يسمع. كان الصوت الذي يأتيه ، لا يقول سوى عبارة واحدة ، أنت طيب أنت طيب.
- كيف تمكنت من سماع ذلك ، وأنت في العمود الثالث بينما أنا في العمود المحاذي له مباشرة.
- كل عمود كانت له أحاديثه ، ولغته ، وأصواته ولهذا سمعنا جميعا.

- تفرقوا ، متسللين كما تجمعوا ، وشمل الهدوء الحي الصغير ، مثلما شمل الطريق المـزدوج وأفسـح المجال لحضرة المستشار ليواصل شد الأسلاك الهاتفية ، كل سلك ، في إصبع من أصابع يديه الممدودتين ، منذ الصباح الباكر.

وثق فيه المعشوق ، وأبدى له رغبته.. حدثه للمرة الأولى. لم يقل كلاما كثيرا ، ابتسم طويلا ، وهو يتأمـل الجوارب الحمر ، ثم عبر عن رغبته.

آن الحلول.

لم يضف شيئا آخر ، ما جدوى ذلك ، إذا كان العاشق هو المعشوق ، وكانت الرغبة واحدة ، لماذا التساؤل عن صحة الحلم ، أو صدق الابتسامة أو شفافية النغم؟

- لقد اتضح أنه سيغيب لأمر ما ، وأن الحياة بدونه تنقطع ، وأنه لابد من التواصل ، لا بد من بقاء أحـد الجزأين بالمكان.

- زال العالم الآخر ، الداخلي. صوتا وصورة ، ظاهرا وباطنا انمحـى ، واسـتوى الـتلاحم ، العـالم الخارجي ، هو وحده المتميز اليوم.

بوسطن. هنا كاليفورنيا لا بد من تجميد الدولار اليوم. لا تحويل لليابان ، باريس ولندن والعواصم الغربية لا تتحرك اليوم ، إلا بالتلكسات. الدب الأحمر ، يقع في الفخ الأخضر ، احكموا خناقه ، هنا حيدرأباد ، علماء معهد العلوم الزراعية ، تمكنوا من التوصل إلى إضافة سبع كالورات ، إلى حبة القمح ، بلّغوا الأمم المتحدة ذلك ، يـا نيودلهي ، هنا باريس ، أما تزالون في الجزائر ، نائمين ، ما فتئت ، أطلبكم. التوقيت ليس واحدا ، ولكن إنهـا الثامنة ، وعندنا السابعة فقط، ماذا تريد؟ كيف حال الجزائر؟ والله كما تعرفها. كيف تريدني أن أعرفها من خلال الهاتف؟ إنني لم أرها منذ عشرين سنة. أحسن. ماذا تقول؟ بخير والحمد لله. وهل الطقس جيد. الشمس سـاطعة. عندنا الثلج بلغ عشرين مترا ، هل تريد شيئا معينا ، أم مجرد سؤال؟ أريد أن أخبركم عن حميد ابـنكم ، أهـو قادم؟ لا البركة فيكم ، والبقية في رؤوسكم. ماذا تقول؟ لا شيء عندما خرج البارحة مـن "البـار"، كنـا معـا. هاجمتنا سيارة وأطلقت النار.

أصيب في رأسه. فمات على الفور. كانت ميتته رائعة ، لم يتألم، ولم يتعذب ، لا حول ولا قـوة إلا بـالله العلي العظيم. سأحاول أن أكون هنالك اليوم ، لأي مستشفى نقلوه ، آه.. كفّ عني. تعال وسنرى ، أرسـل لـي برقية بذلك ، حتى يتسنى لي استخراج رخصة الخروج. ها.. الجزائر ، أريد المدير. الساعة التاسعة.. الصـباح رباح. افتحي عينيك ، إنها الحادية عشر وليس التاسعة.. سيان عندنا. اسمعي.. قولي له إن غنيـة تلفنـت مـن باريس ، وهي الآن مع واحد ممن يخيفون ويرعبون. إما أن يعترف بابنه ، ويتزوجني ، وإما أن يستعد لخراب بيته.. فاقوا.. قولي له ، فاقو.. يعبث ببنات الرجال ثم يصطحبهن إلى باريس ، ويهرب عنهن ، دخول الحمام ، ليس مثل خروجه ، ترن.. أحوال الطقس رديئة. في أروبا ، وسينعكس الوضع علينا. الرئاسة. نعـم الرئاسـة.

أريد موعدا مع سيادته ، خير أن شاء الله. خير. فيم تريد سيادته ، أريد أن يساعدني ، على دخول التلفزيـون ، كمذيع ، أنت مسجل في القائمة ، لكن لم أعطكم اسمي بعد ، ترنن. بيروت ، نعم بيروت. محمود من بـاريس ، الخط مشوش ، لا أسمعكم جيدا ، الوحدة العربية ينبغي أن تتحقق أولا هنا، على ضفتي السين. ما شاء الله ، كل ضحاياها من الأقصى إلى الأقصى هنا. سلامتكم في باريس ، سلامتكم في بيروت . وأخبار البورصة؟ الوحـدة العربية ، لا يمكن أن تتحقق إلا في باريس ، ترن أغمضي عينيك ، افتحي أذنيك ، أذني فقط ، وقلبك وروحك ، فقط. لا. أيها الخبيث ، ماذا تعني؟ سيداتي سادتي.. أعلنت ، الساعة *تمام* التاسعة ، وهذا موعد برنامجكم اليومي ، ما يطلبه المستمعون. فأهلا بكم معي من الآن حتى السادسة ، موعد ركن فلسطين ، سنستهل تلبية رغبـاتكم ، بقارئة الفنجان من أداء نزار القباني ، نظم عبد الحليم حافظ ، طلبتها الآنسة.. كيف عرفت أنها أغنيتي المحبوبة؟ لا والله. لم أعرف شيئا ، إنما قمرت ، قلت حظي وحظها ، إن أعجبتها شربنا من العين. وإن لم تعجبني "*الشرع يحكم على ثلاثة*" حظك ليس سيئا على كل حال.. كما طلبها السيد ب.. ويهديها إلى زوج أمه ، وإلـى صـديقته ك.. قد أشرب من العين إذن؟ مفقود يا ولدي مفقود. ألا تعرف الأغنية ، وسلوى من الحراش تهديها إلى فرقـة الدرك الوطني. أغلق مذياعك. ما تزال نوال تخطب ، كيف نمت البارحة؟ مستلقية على ظهري ، في قميص نوم أحمر ، وفي سرير عريض.. كفى. كفى. ترن. الخط انقطع. حسنا فعل. موسكو. الجزائر ، لسبب مـا ألغـت مشروع معمل الاليمينيوم بالمسيلة. من المخطط الخماسي ، تعليلات غير مبـررة ، لا ، فالبلـد يسـتورد كـل احتياجاته الخشبية من الخارج. البحث جار. وسنحاول. استشفاف الحقيقة الكاملة. ماعدا ذلـك ، العلاقـات فـي إطارها العام نشيطة ، القوى المعرقلة تتراجع بانتظام ، مكتب الجبهة ، أي نعم ، مكتب الجبهة ، أبـو بسـام ، يسأل عن أبو بسام. أم بسام ذهبت إلى الحمام اليوم ، حوّل. حوّل. الدال يبحث عن الياء ، واليـاء تتـوق إلـى الباقي.. حول. الرب واحد ، الطريق فلسطين ، حوّل. حوّل ، اليعلول ، متواصل ، والتحامل متحامـل ، حـول حول. أبو بسام حول. أم بسام تخرج من الحمام في نقالة. حول. ترن ترن ، أبو هرمسة ، أبو هرمسة ، الطبيب يكشف عن المريض ، حول ، المريض يموت ، إن شاء الله يموت ، الشمس مشرقة أعيد. عم يتساءلون عم النبأ العظيم "بكره يطلع النهار ، يا خال ، وتبقى الدنيا عال" حول. تبقى الدنيا عال. حول. اليعسوب يعـود. حـول. يعود. تزبب قبل أن يتعنب ، حول. حول. ترن. مدير الشركة الوطنية للآلات الدقيقة ، نعم هو بعينه في الخط ، لا تقطع ، الحضرات معكم ، سبع ثلاجات من ذوات البابين ، سبعة أجهزة ملونة ، بال سيكام ، ذات النظامين ، الأوروبي والفرنسي ، هل هناك جديد آخر ، يكون حضرات يكون، طلباتكم ، هل سمعتم بأحداث فيـديو بنظـام أمريكي ، قراءة ، وتسجيلا؟ أنا شخصيا لا. أريد واحدا أو اثنين ، يكون حضـرات. مـع الكـاميرا ، يكـون حضرات ، كنت من مدة أفكر في الاتصال بحضراتكم ، الملف النقابي ، كما تعرف ، آه ، لقد درسته ، سأضـع حدا لنشاط شيطانكم الأحمر ، هو رأس الفتنة ، شكرا حضرات ، أرسل السائق غدا ، يا رجـل؟ الآن ، أمـركم حضرات ، الآن. ترن. نعم الوزير نفسه ، أرغب في موعد عاجل ، مع سيادته ، كل الوزراء ، يطالبون اليـوم

موعدا عاجلا مع سيادته ، ماذا هناك؟ انتظر. أنا في الخط. ما هو الموضوع؟ أمن الدولة. قل لسيادته ، الأمـر يتعلق بأمن الدولة ، فهمت ، كيف ذلك؟ لقد قالوا كلهم نفس الكلام. السبت القادم ، على السابعة مساء ، معقـول؟ لكن الأمر عاجل؟ لو لم يكن عاجلا ، لقلت لك ، الشهر القادم أو الذي بعده. أهذا هو الحـد الأدنـى؟ الأدنـى! والأقصى ، حسب ما تريد ، وقد ضبطه سيادته بنفسه ، سيادته. نعم ، ولقد كان في انتظار هذا الطلب الـذي ، تأخر بعض الشيء ، ترن. كما تهديها إلى خطيبها في الخدمة الوطنية ، وإلى جميع شباب الخدمـة الوطنيـة ، وكذلك إلى جارها ، عين قاف ، وإلى كافة عمال الإذاعة الوطنية ، وبالأخص ، نوال ، شكرا لك ، علـى هـذه العواطف. الرخصة في يدي ، والعملية في الجيب ، فلم الخوف والتردد؟ موافقة وزير التجارة تمـت. تأشـيرة وزير المالية تمت ، وكل شيء تم. أعرف أن "الشركة ما فيها بركة" كما قال الأجداد ، لـذا أعـرض عليـك ، التنازل الكامل ، أسمع مائتا بقرة ، معناه مليار سنتيم ، أتعرف هذا ، أعرف ، لكن ينبغي أن لا نبـالغ كثيـرا ، فهناك دائما الرياح المعاكسة ، فقط أطلب مائة ، لا. هذه مبالغة غير معقولة ، صداقة الـوزراء ، فـي النظـام الاشتراكي يا حبيبي تعني ما تعني ، ماذا تسوى المائة مليون اليوم ، من قسنطينة إلى الجزائر ، لولا مزعجـات الليالي ، لما ترك القطا طيب المنام ، كم أفقست؟ لا شيء. الحمد لله ، كيف تم ذلك؟ حذام تقول لكم ، غدا كـل شيء ، اليرابيع تغادر أوكارها والشموع مضاءة في معمل الحجار للحديد والصلب ، الوضوح خمسة على خمسة ، والعقبة التي كانت على الذئب ، صارت على السلوقي ، الطاء طالع واللام لامع ، والياء والعين فـي عنـاق. طلع البدر علينا من ثنايا الوداع.. ترننن ، الله أكبر الله أكبر ، أذن المؤذن سيداتي سادتي ، لصـلاة العصـر ، فتقبل الله صلاتكم ، نستأنف حصتنا بالاستماع إلى فريد الأطرش ، في أغنيته الرائعة حليوة يا حليوة طلبها مـن الجزائر. "كلاب الدوار لا تنبح في السوق" كلكم. كلاب الدوار. كمشة من الحمر ، تنغص حياة الثورة ، تصرف ، وإلا فأنت مطرود من الحزب ، ترن. كما طلب أغنية "يا الخاتم نشريك" كل من.. هل تعجبك الأغنية؟ أنا؟ نعم أنت. ومن يشتري ، لي الخاتم؟ اطلبي ربنا أن يحظى طلبي بالقبول، فيعطوني سكنا ، فـي الدفعـة القادمـة ، وسترين. "دبر رأسك" لو أن المسألة بيدي ، لانتظرتك ، العمر كله ، لكن أمي حلفت أن تزوجني من أول خاطب " يا الخاتم يا الخاتم نهديك".

ظلت الأسلاك ، تأخذ وتعطي ، وظل حضرة المستشار في حالة توحد تام ، وتفرد خالص ، من السابع إلى السابعة ، بالتوقيت الأرضي الظاهري ، فقد كان الزمان اليوم ، لا يعني سوى المدة التـي يسـتغرقها الصـقر المجنح في أكل المخ ، والمدة التي تستغرقها إرادة زيوس ، في إعادة المخ إلى الرأس ، ولحظة تقرير *أصدق* ، القاضي الأبله في دائرة الطباشير القوقازية ، مصدر الأمومة الحقيقي ، أهو الدم أم الحليب ، أهـو الحـق ، أم العشق.

عاد جذلا ، يحاول أداء بعض الألحان على الوجه الصحيح ، غير مبال بالماء الذي يقطر من كامل جسمه ، ولا بتجمد بعض أطرافه.

من الآن فصاعدا ، لا خشية من صدق المعشوق ، أو هجرانه. العاشق معشـوق ، والمعشـوق عاشـق ، والجبة ليس فيها شيء إطلاقا، ولتتواصل الحياة ، في نسقها العادي ، ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر. أتلفن الليلة للسائق ، فعليّ أن أنزل غدا إلى المكتب.

آه. ما أجمل وصال المحبوب. ما أسعد الإنسان ، في حالة العشق الحقيقي ، ما أروع التجربة.

صدر أولغا الرحب

عرف مساحة الزمان وحجم المكان ، تذوق الخطوات حافياً ، استشعر أنامل الريح الشمالية الباردة ، تمـر في لحظة واحدة على كل ذرة في النصف السفلي من جسمه ، وفي وجهه. طعمها في مسام جلده ، مياه المطـر الصافية المشبعة به ثيابه، السترة السوداء ، القميص الحريري الأبيض ، ربطة العنق الحمراء ، مريول القطـن الداخلي.

أحست العظام بأن للطقس ، لكل جزء من المليمتر في الفضاء وفي الهواء ، لكل لسعة من لسعاته، طعمـاً ومذاقاً يختلف عن الآخر ، لكن يضيف إلى شفرة الخنجر الذي يحز في القلب حدة، وإلى الأمـل الـذي يـراود الروح في زوال كل ذلك لذة ونشوة.

احتاط لقطع خطي الطريق المزدوج ، لم يلتفت يميناً أو شمالاً ، لكن تحسس بسمعه النسمات المارة ، فعلـم أن أقرب سيارة ، تبعد عنه بحوالي كيلومتر ، وفي ذلك ما يكفي من الوقت. لقد اكتسـب خبـرة فـي ركـوب الموجات ، وأصبح فارساً بارعاً ، نزل الى أسفل و صعد الى أعلى ، ليجد نفسه في الدرب الـدغلاء. يواصـل الصعود ، متشبثاً بالأغصان ، ثم في الطريق الملتوي الضيق الموازي للمزدوج ، والذي خلفه هـذا الأخيـر ، يقطعه أيضاً، يعرّج يميناً ثم مباشرة شمالاً، يسير تحت أشجار الصنوبر محني الرأس لا يهتم بصـف الفـيلات الصغيرة المتصاقبة وبمن يمكن أن يكون يراقبه ، ثم ها هو أمام باب المنزل ، تذهب يده الى جيبـه ، تتحسـس الأشياء المبتلة ، تخرج رزمة المفاتيح ، تقوم السبابة بجولة ، تتعرف على المفتاح اللازم ، يعضـدها الأبهـم ، يدور المفتاح ، يرتاح القلب ، عندما يتجاوب الباب لدفعة صغيرة من القدم الحافية. قام البصر ، رغـم الظلمـة

بمسحة للحديقة ، لأشجار البرتقال والليمون ، و لأشجار الورد و الياسمين.. لن تتطلب سقياً ، لمدة أسبوع آخر ، تابع حركة يده أثناء امتدادها بالمفتاح الى الباب الخشبي ، ثم إلى أزرار النور ، أولاً فأول ، استوعب كما ينبغي جرس الباب المدخلي ، لم يزعجه الجرس ، بل على عكس ذلك ، شعر بنوع من الراحة. وكأنما كان ينتظـره ، لم يفكر في أحد ، لكن وهذا مجرد احتمال ، ربما شعر ويده تمتد الى أزرار النور ، بخلو الدار من فجرية.

انفتح باب المدخل الحديدي ، جاءه بطبق يغطيه منديل وردي ، مر مباشرة الى قاعة الأكل ، وضعه فـوق السفرة ، وخرج راضياً.

- تسلم عليك فجرية ، وتقول إنها مريضة الليلة.

- سلم عليها ، يكفي أنها مرت في النهار ، ورتبت أوضاع المنزل. لست أدري ما يكون وضـعي بـدون فجرية ، أشكرها. كيف حال أمك؟

- تتعافى يوماً وتنكس يوماً آخر.

- وأخبار أبيك.

- كل عام يقول هذا العام. لكن لم يروح. هربت البرتغالية ، بعد أن تركت له خمسة غرق معهم ، أرسـل إلي تذكرة طائرة ، فجرية تقول اذهب لزيارته ، لكن أمي تقول لعنة الله عليه وعلى بلجيكا.

- تصبح على خير أريد أن أستحم.

- لكن اسمح لي أن أسألك.

- خيراً إن شاء الله.

- كل أولاد الحومة كلفوني أن أسألك.

- تفضل.

- ماذا كنت تسمع؟ أصحيح أن مانغالا كانت تغني ؟

- سلم على أمك وعلى فجرية. أنا بردان. تصبح على خير.

عمّر الماء الساخن. استحم بتأن وتمهل ، حتى أنه أغفى أكثر من مرة. ارتدى منامة القطـن المكويـة بيـد فجرية ، حديثاً ، على ما يبدو. تعشى ، غسل أسنانه ، بالفرشاة والمعجون ، على غير عادته في الليـل. أشـعل سيغاراً كوبياً سميكاً ، واتخذ القرار.

" *أسهر في غرفتها الليلة. عندها. معها. أولغا. أولاً الحبيبة* "

عندما زارت فرقة الثورة الفنية في الخمسينات ، الاتحاد السوفياتي ، كانت أولغا مرافقته الشخصـية. مـن اللحظة الأولى حددت لها أنها ليست مترجمة بالمعنى العادي ، وإنما مرافقة تقوم لأول مرة في حياتها بهذا العمل ، إكراماً للثورة الجزائرية. وتشريفاً لحضرة مديرها ، الممثل العالمي الذي برهن على جدارته وعبقريته الفذة في الكوميدي فرانسيز ، وأيضاً وهذا يأتي في المرتبة الثانوية جداً ، مساعدة شخصية لها مـن بعـض الأصـدقاء

الأكاديميين ، كمستشرقة عالمة ، تهتم بشؤون الثقافة غير الكولونيالية في الجزائر ، قـدمت الماجسـتير ، ثـم الدكتوراه ، وهي الآن بصدد إنجاز رسالة التخرج على يد العلامة.. وبمساعدة العلامـة.. وإرشـاد الـدهقان.. ذكرت أسماء عديدة ، لم يحفظ منها سوى الحروف الأخيرة ، أوف أو إيف، وفوق هذا وذاك ، ما الفائدة من هذه الأسماء في مثل هذه الحال.

كان فتياً ، ممتلئاً بالتمرد على الاستعمار وثقافته ، وعلى كل المفاهيم الرجعية والمحافظة ، يعشـق الهـدم والتحطيم ، متشعباً بأفكار ماركس وأنجلس ، وبآراء لينين ، وشديد الإعجاب بعفوية وبساطة ماو التـي يشـبهها ببساطة وعفوية السحرة ، و البهلوانين ، يتمثل فيه بأتم معنى ، شباب الخمسينات الثائر ، ولد الانتصارات والمد الأحمر، وحركة التحرر الوطني، التي لم تزن مع الاستعمار بعد. لا يصرح بانتمائه الإيديلوجي ، فقد كان ذلـك يشكل خطراً كبيراً على حياته ، فمهما كان بعيداً عن الحزب الشيوعي الجزائري أو الفرنسي، فإنه أدرك ، ومنذ اليوم الأول الذي التحق فيه بجبهة التحرير الوطني ، أن معاداة الشيوعية إحدى سمات هذه الحركة. لـم يفكـر كثيراً ، فطبعه الاستقلالي – كفنان- عن الانتظام ، والانظباط ، وإيمانه الراسخ ، بأن مصير البشرية ، شـاءت ذلك أم أبت ، هو الاشتراكية ، كل ذلك جعله يؤجل إعلان انتمائه ، بل ويغض الطرف عنه في أحيان كثيرة.

فيه كل صفات وخصال المثقف الثوري المعاصر- كما لاحظت ذلك أولغا منذ اللحضة الأولـى- باسـتثناء راسبين اثنين ، ظهرا لأولغا أساسيين في تركيب شخصيته، وفي كل دراسة للثقافة والفكر في هذا البلـد. لباقـة الفرنسي الراسخة المتوارثة - كما يقول دوستويوفسكي - أباً عن جد ، والتي ليست سوى قناع شكلاني يكسـو الشخصية الفرنسية ، ولكنها مع ذلك تسحر الفتيات الروسيات وتغويهن ، ثم هذه الأنفة العربيـة ، ذات الجـذور الإقطاعية.

لا يسمح لنفسه - على سبيل المثال- باقتحام المطعم ، قبلها ، ينحني قليلاً ، ويبسط يده. "بعد الآنسة البهية ". لكن لا يسمح لها باختيار مقعدها ، وموقعها. يسبقها ليتظاهر بالحذلقة أيضاً ، فيسحب إلى الخلـف ، المقعـد الذي يختاره لها. يجبرها ، وكلمة الجبر ، هنا تقول أولغا ، في محلها تمامًا ، على عدم مواجهة غيره ، خاصة ، إذا كان من الشبان. يبدي ما يمكن نعته ، بدون أية مبالغة ، بالغيرة ، إحدى سمات البـداوة ، والأنانيـة وحـب التملك والسيطرة. يحتج على النادل إذا ما سأله قبلها ، عما يطلب ، أو قدم له لائحة المأكولات دونهـا، يشـعره بفضاضة ، بوجود سيدة على السفرة ، وبأن الأصول والاتيكات والتحضر ، يقتضي ، تشـريفها ، لكـن بعـد مفاوضات شكلية، يقرر الأصناف المطلوبة. يلح على دفع الثمن ، ويستغرب أن تفتح حقيبة يدها في حضـرته، نهض أكثر من مرة على المائدة قبلها ، وسبقها إلى الباب ، مستظهراً للجميع ، تبعية المخلوق الـذي وراءه لـه وحده. حريمه المصون.

أفسح المجال في الأسبوع الأول لنفسه ليتحدث وحده ، يزرع درره ، وحكمه ، وآراءه ، كـنجم عـالمي ، عضو الكوميدي فرانسيز، ورئيس الفرقة الفنية للثورة الجزائرية ، كل ما يقوله ، لا يعرفه غيـره ، حتـى وإن

سبق وعلمه ، فإن المعنى الذي يعطيه له هو ، متفرد ، وينبغي أن ينتبه إليه الناس. لعلع في كل شيء ، في كـل ما يعن. ألجمها. فرض عليها التزام حدها ، كمرافقة أو مترجمة أو ما شاءت ، إنما وبصفة خاصة ، كـامرأة ، بقطع النظر ، عن محتويات ومختزنات رأسها. أحست في الأول ، بشيء من الانتشاء لهذه التجربة المزدوجة ، مرة في الإليزي ، وأخرى في قصر السلام ، كانت أشبه ما تكون في أرجوحة ، تندفع من موسكو ، تحوم على باريس ، ثم تمر على موسكو ، فتحوم من جديد في بغداد. تروح ، تجيء. تروح ، وفي كل ذلك يحلو الضحك ، يحلو الانتشاء ، يحلو تذوق التجربة البريئة. في الأخير قر رت أولغاأن الثقافة الجزائرية غير الكولونيالية ، مها كانت مرتكزة على الإيتيكات البرجوازية الرفيعة ، لا تخرج عن طابعها العربي الإسلامي ، وهي أشبه ما تكون بثقافة الجمهوريات الإسلامية السوفياتية ، تركمانية ، أو أزبيكستان ، أو غيرهما ، وسجلت في دفتر مـذكراتها هذا السؤال: هل كان دوستويوفسكي يشير وهو يتحدث عن الفرنسيين والإنقليز والبولونيين في "المقامر" إلـى أن الثقافة تنتقل بين الأجيال بيولوجياً؟.

أفرغ ما عنده ، وبدأ حماسه في الحديث ، يفتر أمام صدر أولغا الرحب ، أولغا التي قصـرت معارضـتها لحضرته على الابتسام. شعرت بأن الأرجوحة أخذت تتثاقل في حركتها ، وهاهي تتوقف تماما فـي موسـكو ، وهاهي قدما حضرة مدير الفرقة الفنية الثورية ، تستقران على الأرض. تجدان موقعا لهما فتستقران.

بدأ الهجوم المضاد.

عبارة الهجوم في الحقيقة ، في غير محلها ، وفيها كثير من العدوانية ، والتحدي والاسـتفزاز ، وهـي لا تنسجم إطلاقاً لا مع بسمة أولغا السموح ، ولا مع رحابة صدرها. أولغا الأكاديميـة ، عضـو الكومسـومول. الأوروبية المستشرقة التي لم تعرف الفونية والبنيوية ، ومعنى الصبر إلا مع الـنص العربـي ، أو القـواميس العربية ، التي تثبت في الآن الواحد أن هذه المفردة أو تلك ، تستعمل للاستحسان ، كمـا تسـتعمل للاسـتقباح والاستهجان ، تدل على العروس المزدانة ، كما تدل على الناقة الجرباء. وقد أدركت بعد جهد جهيد ، بعد عنت المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة. أن كل كلمة عربية ، إنما تتوقف على سياق المعنى ، وهذا ما ينعكس ، ربما ، ربما ، على السلوك العربي العام ، غير منتبهة على عكس أستاذها ليف إلى قبليـة المفـردة العربيـة ، ومـا يستخلص من تحليل الدكتور الأعمى، طه حسين ، في كتابه حديث الأربعاء ، وفي تحليله للحديث النبوي "نـزل القرآن على سبعة أحرف" وما يحس به كل كاتب مفضي عليه بالتخلي عن لغة الشعب اليومية ، والعـودة الـى الذاكرة و ما رسب فيها من مفردات ، والى القواميس للتأكد من صحة المعنى ، ومن عربية الكلمـة ، وبالتـالي من كونها ليست شعبية ، أو للعثور على مفردة ، مقاربة . على القارئ كي يستوعب المعنى أن يتوقف وأن يفتح القاموس وأن يراجع الكلمة ، ويستخلص من عدة معان المعنى القريب من السياق. يهون ، يهون الأمر. عنـدما يتعلق الأمر بقارئ عربي ، له من قريب أو من بعيد شبه ذاكرة ، يسهل إزالة الصدأ عنهـا ، لكـن إذا تعلـق بمستشرق ما ، فذلك هو قصور اللغة العربية بالذات ، إذا لم تكن يمانيا أو شاميا ، أو شمال إفريقـي، للمفـردة

طنين ما في ذهنك ، وفي وجدانك ، يجعلك تدرك المعنى العام ، ويغنيك عن المفهوم الدقيق الصريح للعبـارة ، فاللهم لغة الطير ولا اللغة العربية ، التي جنى عليها الشعراء ، والنحاة ، واللغويون في العصر العباسي ، بـدل اعتماد لغة القرآن كقاعدة أساسية ، ويضيفون ما يستجد في المدينة من مفردات يحتمها تطور وتحرك المجتمع ، أنكروا هذا التطور وهذه الحركة ، وراحوا يؤمون البوادي يلتقطون معنى من هذه القبيلة، وآخر من تلك ، لنفس الكلمة ، ثم يعودون يملونها على الحياة: هذه لغة العرب فاحفظوها ، احفظوا المعنيين المتناقضـين ، وتـذكروا العروس المزدانة ، في الوقت الذي تصفون فيه الناقة الجرباء ، وكذا العكس.

بدأ تواجدها ، أولغا ، في ذهن الفنان الشاب الثائر كشخص مستقل، له قيمته ، له أبعاد ، وعمق وسـطح ، ورأي من خلال أسئلة محددة ، مدروسة واضحة أنيقة لها قبل ، ولها بعد ، ولها آن أيضـا: مـا هـي الخلفيـة التراثية لرقصة العصا التي شاهدناها البارحة؟ ما هو عنصر الوجدان الشعبي في مسـرحية "أبنـاء القصـبة"؟ كمؤلف ، ومشرف على إدارة وتسيير فرقة فنية ثورية ، كبيرة مثل هذه ، ما هي رؤيتكم لتوظيـف الفـن فـي معركة التحرر الوطني ، وفي نفس الوقت من أجل إيقاظ الحس الطبقي عند الجماهير الشعبية؟ هذه أسئلة بدائية ، في إمكان أي واحد ، يتمتع بقليل من الحذق و الذكاء أن يعثر في القاموس الماركسي اللينيني على أجوبـة ذات صيغ جاهزة ، أو شبيهة لها ، لكن عندما يتعلق الأمر ، بجدلية الشكل و المضمون ، وبيليخانوف ، وجـدانوف وشيللر ، وفيشر وبلينسكي والواقعية الاشتراكية.. ورحابة صدرها ، وما ينتظر من مبـدعي حركـة التحـرر الوطني في افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من الإضافات والإثراءات، بما يقدمونه من أشكال جديدة ، لممارسات ثورية متنوعة ، بدأ يكتشف أن الموهبة وحدها لا تكفي ، وأن الانتماء الإيديولوجي أو الفكـري إلـى فلسـفة أو مدرسة، يحتاج الى مؤهلات ثقافية ، وأنه طال الزمن أو قصر ، سيجد نفسه في حاجة إلى سـلاح آخـر غيـر سلاح العبقرية و الموهبة ، أولغا ، هذه البسمة الدائمة ، من تكون. ماذا تكون؟

أولغا تحتاج الى اكتشاف.

يستمع إلى الأسئلة بإمعان ، ينتبه إلى إمكانية توالد مثل هذه الأسئلة في رأس امرأة جميلة اسمها أولغـا ، لا يقول ذلك ، لكن هذا الصوت المبهم التائه في الوديان والآتي من خلف الصخور الجرداء، يجعله يحس بشيء من هذا القبيل ، كيف كان ذلك؟ لماذا كان ذلك؟ يهرب الى مواضيع أخرى ، يستثيرها ، بروميثيـوس. يحلـو لـه الحديث عن بروميثيوس ، خاصة عندما تبدى أولغا موافقتها لفهمه له ، مع إضافات ترتكز على علم الاجتماع ، وعلى التقسيم الطبقي للمجتمعات ، وعلى المادية التاريخية، وتستشهد بآراء عمالقة الفكر الماركسي فـي سـبيل ذلك ، إن بروميثيوس إله انتمى إلى البشر ، فأعطاهم سر النار ، سر الطاقة ، وهل تعتقد أن السر يتوقف عنـد هذا الحد ، في رأيي بروميثيوس ، يتجدد كل ليلة كل لحظة ، في أولئك الباحثين في جميع الميـادين ، والـذين سينتزعون ، لا محالة كل أسرار الطبيعة والكون. نعم ، كما تفضلت بالقول ، ما الذي أزعج الإله عندما عـرف البشر سر النار؟ أليس هذا الإله رمزا للسيد المستغل المستبد ، الذي يمتلك وسائل القوة ، علينا على كل حال أن

لا نستسهل هذا التحليل ، فننساق فيه إلى ما قد يكون مثيرا للسخرية والهزء ، لكن علينا أن نكون في كل لحظـة من لحظات حياتنا أوفياء لما نؤمن به.

المرعب في أولغا ، هو هذا التواضع ، هذه البساطة التي تبدو بها ، مع أنها أولغا ، لو جزئت إلى أجزاء ، لاستطاعت أن تكون أستاذة بجامعة. وبمعهد نقابي أو حزبي ومرشدة سياسية لفرقة من المقاتلين. وممثلة بارعـة ، ومديرة مسرح ، ومصممة أزياء ، ومترجمة ومرافقة ، وامرأة وساحرة ، تعيش في هذا العصر ، كما تعـيش في قصص ألف ليلة وليلة. كل ذلك في الوقت الواحد ، وفي البسمة الواحدة. في رمشة عين قصيرة.

بدأ يحس بأنها تسكنه شيئا فشيئا.

يستجديها الحديث ، ويستطيب الإصغاء إليها ، يرصد بسمة لها، فيعبر عن الاستيعاب الدقيق الكامـل لهـا، يميز نبرات الصوت نبرة إثر أخرى ، الرخمة الموحية بالألفة والحنان ، الحادة المائلة أكثر إلى الرقـة ، هـذا النطق اللذيذ ، بالعين والحاء وبالخاء ، اشتراك الأنف والحلق ، والهدوء والصخب ، والرضا ، والانزعاج ، في أداء الصوت الواحد والنبرة الواحدة ، حركة الحاجبين المتماثلة تماما ، للحروف العربية ، لا أحد يستطيع رصد ارتفاعها أو نزولها ، ولا أحد يستطيع أن يقول أن *أولغا* لا تكتب بحاجبيها الجملة ، قبل أن تنطق بها ، جبهتها ، صحراء إذا ما تذكر المرء إفريقيا ، وقمم الألب إذا ما أراد أوروبا ، والهملايا إذا ما كانت آسيا ، تنبسط، تلتمع ، تصحو ، تلتوي ، تنبسط ، تتعقد، تشمخ، تنفرج . والعينان؟ آه. يا لعيني أولغا حجمهما يستطيع أن يسـتوعب الكون كله.

عندما تكون أولغا تتحدث تكون عيناها ، تلتقطان شيئا ما تبعثر في القارات السبع.

اشتد اهتمامه بكل مقومات فكر وروح وجسد أولغا ، وطار النوم، ولم يعد السحر يليق سوى لنظم الشعر.

تبدت البسمة في ازدهار حدائق موسكو بمختلف ألوان الزهور والورود ، وتبدى الجبين فـي حيويـة قمـم الأطلس ووقار الكرملين ، والساحة الحمراء ، وتجلت العينان في غابات الزيتون على سواحل البحـر الأبـيض المتوسط ، وفي حساسية نهر موسكو لكل ما يجري في السماء ، من صحو أو كدر ، والضحكة بزغاريد جنيات الشواطئ التي تسكن إفريقيا ، وليل الصيف المزدان بالنجوم في الطاسيلي والهقار.

من ارتعاشة جسم أولغا من هناك. من سحر ليالي موسكو التي لا تعرف الحزن ، ولد الحلم. في سلام أبدي ، وفي اكتشاف الذات الكهربية للكون .

ليمسكا ، هو وأولغا ، بأيدي بعضهما ، ويعبرا الفضاءات الخالدة، زارعين في كل الآفاق ، نسلا جديدا ، لا يعرف حربا ولا لاجئين ، ولا جوعا أو عطشا وعريا ، ولا مبررات للأثرة والأنانية، وإسالة الدم ، ولا حاجـة لاستعمال الدولار معبرا للعلاقات بين الشعوب.

-هيا أولغا هات يدك.

كاد يقول لها ، إلا أنه تذكر أن بلاده في حرب. في حرب غير متكافئة في كل شيء ، يموت فيهـا الرجـال

بالآلاف ، وتبقى النساء يحدوهن الأمل في الرجال الباقين ، وفي نسلهم. يتقوقع على نفسه ، يحـاول إقناعهـا ، بأشياء أخرى.

لا أحد يطمح إلى أولغا دون أن يكون إنسانا كاملا ، سيبيرمانا بحق ، بوسعه أن يكون محافظا سياسيا ، في الجزائر أو الفيتنام ، ومحاضرا في مدرسة إطارات الحزب أو النقابة ، وممثلا يعرف غيرة عطيل ، وعقلانيـة هاملت ، وإنسانية بروميثيوس ، ووجد كازيمودو ، ووفاء بينيلوب ، ذاك أن في أولغا رقة الآسـيوية ، ولطـف الأوروبية ، وإثارة الإفريقية ، وأمومة الروسية ، وكرم الأمريكية .

في أولغا سعة أضلع حواء وقابليتها للعطاء. فيها البدء والمنتهى، فأي رجل في هذه الدنيا يكون في مستوى أولغا؟

ظنها كائنا ملائكيا ، استحم في الكوثر ، على يد ربانية ، وانتزع من قلبه ، كل فوران الدم ، كل انـدفاع ، كل خطإ ، غير أنها أبهرته، بامتزاج عصمتها بالبشرية ، بأنها بروميثيوس ثان. في يدها النـار ، وفـي قلبهـا السلام. رقصت على إيقاعات التانغو ، والفالس والجاز ، وارتوت بالكونياك والفودكا ، ولم تفرط فـي لحظـة الامتزاج به.

سكنته ، سكنته إلى الأبد الآبدين.

قال لها لدي كلام طويل ، تمنع ظروف بلادي من قوله. ملأت الدنيا بابتسامتها وتمتمت:

ويحك المرأة تقرأ كل ما في قلب الرجل ، فما حاجتها لسماعه ، سأنتظرك.

طافت الفرقة في مختلف أنحاء العالم ، لكنه في كل مرة يجد نفسه في فندق راسيا ، في الطابق الثامن عشر ، من المدخل الشمالي، تقابله الكنائس ذات الأجراس الثملة ، والقباب الذهبية ، حاملة الأنجم الحمراء ، وما تزال الدمعة ، شفافية القطرات المنحدرة من نهر موسكو ، على وجنتي الكون ، ما تزال بين عينيه.

ارتفعت أعلام الاستقلال الوطني ، ومثلت الفرقة لبريخت وغوغول ، وابسن ، واسخيلوس ، وكاتب ياسـين ، وألفريد فرج ، وظلت أولغا ، وأنوار مسرح موسكو ، الليلة التي ما بعدها ليلة ، الليلة المتفردة في العمر كله ، كل أكف بيضاء تصفق هي لأولغا ، كل زهرات إعجاب هي من أولغا ، كل ضحكة جهورية إنما هي ضـحكة أولغا.

وضعها. صورتها ، في إطار ، خصص له غرفة بالمنزل ، أعطى الصورة لأشهر رسام ، ليضفي من عند الجميع ، ما يليق بمقام أولغا ، علق اللوحة. أحاطها بمختلف الأنوار والمؤثرات ، علق مبخـرة ، يضـع فيهـا بخورا من حيدر آباد ، يوقدها كل ليلة أحد.

سنة ، سنتان. ثلاث ، عشر سنوات ، فصارت أولغا الحمل الذي لا يطاق ، الحمل الـذي تعجـز البشـرية جمعاء عنه.

تريد الروح المسكونة ، أن تستكين قليلا ، فتستريح إلا أن الراحة الحقيقية تحتكرها أولغا.

قصدت المرحومة أمه فقيها مغربيا اشتهر بكتابة أحجبة ، تحرر الأرواح من ساكنيها ، حلت الرقيـة فـي طست الماء ، وسقتها له سبعة أيام كاملة ، لكنه لم يحجم عن ولوج الغرفة كل ليلة أحد.

أحرق من تلقاء نفسه الصورة ، أعد إناء نحاسيا وقنينة عطر ثمين ، قبّلها بشغف ، أضرم عود الكبريـت ، قدم إحدى زواياها ، أخذت النار تلتهمها مليمترا بعد آخر ، ولما تقدمت سطعت في الغرفة ذات النور الخافـت ، فشكلت مع موسيقى تشايكوفسكي ، جوا ساحرا ، خرافيا ، جمع الرماد ، ذرة فذرة ووضعه في قنينة العطـر ، وأسرع به إلى غرفة نومه ، ليضعه فوق الخزانة قبالة سريره ، أتى بعلب دهان مختلفة الألوان. طلـى اللوحـة بالأبيض وظل يأمل انمحاء أولغا ، غيابها على الأقل.

أبت أولغا الانمحاء.

جرب الأسود ، الأزرق ، الرمادي ، البني الأحمر ، إلا أنها ، أولغا تشبثت بغرفتها ، بالبقاء فيها ، وعـدم مغادرتها.

كانت تطل بعينيها الواسعتين ، وبيسمتها المتلألئة وكأنما تقول:

- ويحك. كيف تخرجني من بيتك ، قبل أن تخرجني من قلبك؟

شهر، أشهر ، سنة ، سنوات ، فسدت كل مشاريع الصداقات مع الـزميلات الفنانـات ، ضـاعت فـرص الزواج. الواحدة تلو الأخرى ، من يتطاول عليها. أولغا؟

أكلت النار من جديد أولغا ، في رسمها ، باللوحة المجللة ، وضعت رفاتها ، في قنينة عطر ، وحملت إلـى المقبرة العائلية ، قبالة السرير ، إلا أنها ، إلا أن أولغا أبت مغادرة غرفتها.

ظلت تنتصب في موضعها. ببسمتها السموح ، وبصدرها الرحب. واجهها بنور مختلف القوى. مائـة واط. خمسمائة. ألف. عدة آلاف ، استعارها من المسرح ، فرقة الإنارة ، وشن هجومه. ظلت تنتصب في موضعها ، تتراقص حدائق موسكو على شفتيها ، ويطل الكرملين من جبهتها ، وترف أجنحة نهر موسـكو فـي عينيهـا ، وتزغرد جنيات الأبيض المتوسط المسحورات حولها.

تعاقبت الألوان على الجدار. كامل الجدار الذي تسكنه ، لكن دون جدوى ، فأحضر(*) منقاراً ومطرقة واقتلع قوالب الآجر ، التي كانت خلفها.

ظلت هناك. كلما دخل ، انتصبت أمامه ، تصغي ، تسأل تناقش تضحك ، تفصح عن التفهم الإنساني ، فـي بسمة ودود.

اقتنع أخيرا بأن أولغا قدره. قدر الفن والإنسانية في هذا العصر.

فتح الباب. امتدت يده إلى الزر ، انبعثت الأنوار تتلألأ بمختلف الألوان ، في سحر غامض ، استلقى علـى

(*) بعض هذه الصور يوجد ما يشبهها عند توفيق الحكيم.

مقعده السريري وواجهها.

أولاّ. أوللاّ! سلاما أولاّ. طوبى لمن أحبك أولاّ.

رسائلك ، ما تفتأ تصل بانتظام ، وسأجد ، أنا العيي العاجز ، الأعزل ، ذات يوم الشجاعة فأفتحها ، فأعرف هل كان ما في بطنك ولدا أم بنتا؟

أعرف ما تقولين. أقدره. أخشاه. أذل أمامه. أخجل. عزائي يا أولا، أن بقائك ها هنا ، دليل على غفرانك.

قولي لحدائق موسكو. إزهري ، مري نهر موسكو ، بشرب السماء. كل السماء يا أولاّ.

هل تسمحين برقصة الفالس هذه أولاّ؟

نهض تناولها. أولغا ، في ثوب السهرة الأرجواني الرجراج ، تذاوب وإياها مع اللحن ، واستسـلم للصـدر الرحب والأنفاس الحرّى.

ما يزعج التينة

على موعد في الليلة القادمة.

أذكر جيدا العبارات التي استعملتها ، البارحة ، أو هذا الصباح ، بالأصح ، فقد كان الوقت لحظتها ، تجاوز بكثير منتصف الليل. لعل الساعة السوفياتية ، في الجدار ، طنت طنتين أو ثلاثا أو أربعا. لا أذكـر بـالظبط ، وليس ذلك لضعف ذاكرتي ، وإنما ، لعدم اكتراثي بالوقت. برصد الزمن يتعاقب. يجيء ويروح. يروح ويجيء. يبيض ويسود. يسود ويبيض. لا يفعل سوى ذلك ، وكأنما كلما اعتراني ضعف أو حالـة بيولوجيـة ، قـدرت الوقت. الصباح. المساء. الظهر. القيلولة. الليل. النهار. أول الشهر آخر الشهر. أول السنة. منتصـف السـنة ، أترى القطط والكلاب ، والحيوانات القادرة على الرؤيا ، والحركة في الليل ، تعير اهتماما لتلون الـزمن. مـا الجدوى بالنسبة لي إذا كنت أدرك تمام الإدراك ، أن ذلك لا يعني سوى تواتر الذات الكهربية السرمدي؟

هنا في غرفة المتخاذلين ، أمارس العملية. هنا أفضل. نعم. نعم.

السلام عليكم أيها الأنذال! ليس الماضي سهلا إلى هذا الحد ، حتى تتمكنوا من اغتياله بمجرد الخروج منه. لا. ليس بهذه السهولة وستظلون هنا.

التينة قيل لها: *نقطع جذعك.*

ابتسمت ساخرة.

لن تقتلوني بذلك ، سأخلف جذوعا أقوى.

إذن نحرقك.

ضحكت هازئة: *لن تحرقوا سوى الشعث.*

نقتلعك.

يا لكم من أغبياء ، سيظل هنالك ، دائما ، عرق يخلف.

غضبوا ، وراحوا يستشيرون جميع الأشرار ، عم يمكن أن يخيف التينة ويرعبها. ثم عادوا إليها يكـررون ما قالته ساحرة شريرة:

نقتل مولاك.

فوجئوا بالدمع ينهار من عينيها والحزن والأسى يستوليان عليها، وبالذبول يداهم المسكينة

انبعثت الأنوار المستترة من الزوايا ، تشع بضوء نهاري ، هادئ مريح. تهالك ، حضـرة المستشـار فـي أريكته المعهودة. "العرش" كما كانوا يطلقون عليه ، هذه سنوات. راح يتأملهم واحدا واحدا.

كعادتكم ، كل ليلة ليس فيها عرض. ها أنتم تلتفون حولي. كل واحد منكم يحاول جاهدا ، إرضاء "الرايس"

، بإدخال الغبطة على قلبه ، وإيناسه ، أو إقناعه بأنه يختلف عن الآخرين ، عن الباقي رجـالا ونسـاء ، بأنـه أنزههم ، وأكثرهم استقامة وصدقا ، وضعفا أيضا. بعضكم يلجأ إلى النكات ، يظل يرصدها ، أو يصنعها ، حتى يلقيها هنا ، فتنتزع قهقهات الزملاء ، وبسمة الرايس.

- كم مرة أعدت علينا هذه النكتة؟!

- ظننتكم نسيتموها. أو على الأقل ، تتحاشون إحراجي ، فتجاملونني وتعيرونني ضحكة.

يتعالى الضحك مرة أخرى. بعضكم يفصح عن حقيقة ، يرى أنها موضوعية ، يحاول دائما أن يجعل حديثه يرتكز عليها. ما مصير المسرح الجزائري ، لو لم يخضع على يديك ، للمعرفة. للعلم والقوانين ومنطق الجمال؟ من في هذا البلد ، تخرج من معهد التمثيل العالي بباريس ، ومثل في الكوميدي ، تحت إشراف كبار المخـرجين العالميين ، وإلى جانب عظماء ، نجوم الكوميدي ، حصل للثورة شرف استقطابه ومنحه قيادة فرقتهـا ، ليقـف على خشبات مسارح القاهرة ، ودمشق ، ولاهور ودلهي ، وبكين ، وبلغراد ، وفرسوفيا ، وبيده بيست. وبـرلين ، وموسكو.

- أعد موسكو هذه. أعدها. هل في الدنيا غير موسكو.؟

- لا تقاطعني. الموضوع جاد ، قلت ، يقف ليواجه العالم ، مؤكدا بعينيه ، وحاجبيه ، ووجنتيـه ، وذقنـه وأنفه ، ويديه وأصابعه.

- ، بكل جوارحه ، وأرحنا.

-قلت لك لا تقاطعني. أنا أعرف ما أقول ، وحضرة الرايس ، يعلم أفضل مني ومنك ، ما لكل الأعضـاء التي ذكرتها ، من أهمية في مجالنا ، هذا. يؤكد ، قلت ، إن الأمة حية. كما يسقط أبناؤها ، طائرات البـي 26 ، يصغون الجمال..؟ سيكون المسرح ولا شك ، مثلما هو جار الآن في القطاعات الأخـرى ، مرتعـا للأميـين ، ووكرا للخونة ، يحطون من الذوق العام ، ويتملقون الإقطاع والبرجوازية ، والفئات الطفيلية.

انظروا إلى الإذاعة والتلفزة ، وتأكدوا أنه إذا كانت في هذا البلد معارضة وثورة مضـادة فهـي هنالـك ، بالأفلام الأمريكية ، والأغاني التافهة والمدائح الدينية ، بدون أية مناسبة، والله العظيم يا ريس لا يوجـد شـعب يطرب على قصيد ، عن الليلة الأولى في القبر ، وهم يريدون أن يجعلوا المدائح والأذكار التي لا يفهم مؤدوهـا معناها ، فن الطرب في الجزائر الثائرة.. إنك يا ريس. أحد الأركان الأساسية ، ليس للثورة فحسـب ، وإنمـا ، لنهضة هذا الشعب.

تسكته الضحكات والنكات ، وأخبار الوسط ، الطريفة و المأساوية ، ثم يستأنف فجأة ، وبدون سابق إنذار.

- كلاب الدوار ما تنبح في السوق ، يا رايس.
- يا سلام. من أي زير غرفت هذا المثل..
- من زير شعبك. شعبنا. أردت يا رايس أن أقول ، أن المجتمع الريفي بقيادة الفلاحين ، الثقافة بالنسـبة

إليه ، لا تعني شيئا ، لا تعني في الحقيقة أكثر من التهريج. لا شك أنك استوعبت المعنى الحضاري الذي أردت أن أفصح عنه

- ومن هم كلاب الدوار هذه. قلها ولا تخف. كلنا هنا "جرابة صافيين" ، كما يقول التونسي.

بعضكم يتظاهر متبجحا ، بأن القوى الديمقراطية ، التي تضمه ، وينتمي إليها ، بالطبع ، ترى في المسرح الوطني الجزائري ، أحد المجالات الهامة ، لممارسة النضال الطبقي. وأنه ، هو صديق المحرر الفني للجزائر الجمهورية ، وراء المقال المصور ، عن دائرة الطباشير القوقازية ، وعن القاضي الشعبي ، والعلاقة بين عاطفته ، وعاطفة "غروشا" أم الحب المستقبلي. لقد كان المقال زخما عميقا.

بعضكن تفرض تأكيد ولائها وولاء "خطيبها" بتقبيلي من شفتي ، أو بالجلوس فوق ركبتي ، أو بتمرير أنفها على خدي ، لتطمئن إلى حدالة ملمسه ، تتناول رأسي بين يديها ، وتنهمك في سحب أنفاس عميقة ، شامة رائحة شعري ، ضاغطة قدر الامكان ، بصدرها على كتفي.

-أيها الأب العزيز. تأمل الغيرة على وجهه. ألا تراه عطيلا فاشلا؟ أتسمح لي ، الليلة ، أن أدفئ ظهرك؟ إنه لا يفتأ يكرر ، أنت لا تحبينني شخصيا ، وإنما تعشقين الرايس في شخصي. تتعلقين بأغصان التينة ، لتصلي إلى حبة ناضجة. كم هو مغرور منذ أعطيته دور الفدائي ، يارايس.

بعضكن ، تحاول من حين لآخر ، أن تكشف عن مكنوز صدرها من الوجد ، وبالتباريح ، برفع عقيرتها بالمقطع المأساوي ، من الأغنية الشعبية *" رولي يا الزرقة رولي ماكي روالة ، غاضني البرقادي ، وأمميته تبكي في حالة "*(*).

-كيف الحال بوعلام؟ دور الشرطي الكولونيالي ، جعل منك رجلا! كائنا يتمتع باعتبار ما. أتذكر؟ كنت جالسا في "طانطن فيل" ، مقهى الجزائر حاليا ، على بعد عشر أمتار من المسرح. كان منع الخمر يومها ، الشرب ، بصفة عامة ، إيذانا بالانهيار ، نحو التأصل البدوي ، بالديماغوجية ، وبالجهل. الواحد منهم لا يتورع أن يقف في منصة ، ليعلن عن افتخاره بأنه فلاح ابن فلاح. لا يدري أنه يعني بذلك أنه لم يعرف الكهرباء والنور ، ولم يعرف الحضارة حتى في شكلها البدائي ، أميّ ابن أميّ ، ابن أميين. لا يبعد عن الذئب والضبع إلا بالنطق. يقتلع شجرة الورد ، ليغرس بدلها الصبار ، جريا وراء المنفعة الآنية ، والمحسوسة. لا يدرون أنهم يقولون للعالم أجمع إننا جئنا من الجبل ، من السهوب والصحاري ، لنخاف أبناء أوروبا ، وأبناء باريس بالذات.

كان النادل ، ورئيس مجلس التسيير الذاتي للمقهى ، قبل أن يستولوا عليها ، وجميع العمال هناك ، يفهمونني ، حق الفهم.

ما أن أجلس ، حتى تأتي "الكوكا" مفتوحة ، جزء مزعوم منها في الكأس مع الثلج. أثار الويسكي المتنكر ،

وأهاج همومي. من يقوم بدور الشرطي ، بعد أن دعي صاحبه إلى مهمة والي، قبل أن ينصب بشـهر ، غـادر الفرقة ، وتركني أقوم بالدورين. دور الأب المحتار من سلوك أبنائه في هذا الزمان الذي يتحتم فيه علـى كـل واحد من أفراد العائلة ، فتق الشرنق بنفسه ، وكما يحلو له. ودور أحد الأبناء. الشرطي المتلبس في أعين الواقع بالخيانة. أجهدني الدوران. أدخل من هنا أخرج من هنالك. غير اللباس. غير الماكياج. السـن فـي دور الأب ، بطبيعة الحال ، تختلف عنها في دور الابن. الابن ككل شباب الخمسينات ، مغرم بالشوارب الدقيقـة ، الممتـدة على عرض الفم. الصوت يجب أن يتغير. الحركات أيضا تختلف. ليس هنالك أي مجال للحظة تنفس.

- ماذا تفعل في الحياة؟

سألتك ، وقد كنت تجلس بجواري ، تحتسي قهوة ، وتلح في طلب كأس ماء بارد ، بينما العامـل المنهـك يتجاهل طلبك ، تأملتني ، بدهشة المسافر الغريب ، الذي لا يتوقع أن يتوجه إليه أحد بالحديث.

- كما ترى. أحاول مقابلة رئيس الجمهورية.
- هكذا! ولماذا تريد مقابلته. لا شك أن قضيتك خطيرة!
- آمل أن يرسلني إلى القاهرة. حلمي كله في هذه الحياة. طلبي كله من استقلال الجزائر ، يتلخص فـي أن أدخل الجامع الأزهر الشريف.
- هل سبق وأن زاولت الدراسة.
- ستة عشر سنة في زاوية سيدي بالحملاوي. أحفظ الستين حزبا ، والآجرومية ، والألفيـة ، والقطـر. وسيدي خليل.
- في انتظار مقابلة رئيس الجمهورية ، هل يسرك أن تجد عملا ، تشغل به نفسك؟

طرتَ فرحا ، قبل أن تعرف نوع الشغل ، وعندما عرفته فقدت كل اتزان ، فنهضت تسعى لتقبيـل يـدي. وتثرثر عن أدوار خالد بن الوليد ، وعبد المطلب بن عبد مناف ، وإسماعيل بن إبراهيم الخليل ، التي قمت بهـا في الزاوية.

حل مشكل السكن. تقطن عندي ، حتى يفرجها الله. لم تكن فجرية يومها تتجاوز السادسـة عشـر ، فكنـت تصر على القيام بكل شؤون المنزل. تغسل الثياب. تنفض الغبار. تطبخ الطعام. تكنس الغرف. لم تكـن يومهـا تعرف مسح القاعة ، أو تلبيق الزليج. علمتك وداد التي حالت بينك وبين الصلاة. في الحق ، نَمَت عندك ، منـذ اليوم الأول ميول تركها. بدأت تتكاسل شيئا فشيئا. تصلي الصـبح سـرا عنـد الظهيـرة ، ثـم تجمـع بـين الظهروالعصر والمغرب والعشاء. تتيمم بدل الوضوء. تجمع كل أوقات اليوم. ثم صرت تقضي. إلى أن التحقت وداد بالفرقة ، فكانت الجنابة تلازمك ، كما كنت تقول. تستغفلاني ، وتظهران الانشغال بالكتب في "دار الحكمة" ، تخونك وداد ، عندما لا تتمالك عن الصراخ ، كلما بلغت ، بين فخذيك الذروة. تعود تضحك. تتناول سـيغارة. سيغارة واحدة في الأول. ثم ، يخاف الله. سيغارة وكأس ويسكي.

ها أنت رجل ، يدخن السيغار ، ولا يخلط الويسكي بالماء. يعرف ماكبث والملك لير وهنـري السـادس ، ويقارن بين بريخت وكاتب ياسين ، ويعجب لتشابه الأسماء ، بين آلهة الإغريق والرومان ، وبين أسماء جبـال الجزائر. أوراس.آريس آرغيس. مؤكدا أن وهران ليس لها معنى آخر سوى أورانيوس. ويقارن بـين بـاريس وروما وبين أثينا وصوفيا ، وبين القاهرة ودمشق. يفرق بين الرأسمالية والاشـتراكية ، ويسـتطيع أن يـؤدي بحماس نشيد الأممية ، رافعا ذراعه ، مهددا بجمعه ، في مقطع النصر النهائي.

كم أنا مسرور بك يا بوعلام. لكنني أسألك ، بكل عناء ، هل تذكرني؟ هل يذكر الغصن التينة..؟

لا يهم. لا يهم يا بوعلام.

مجيد. أنت مجيد! كيف الحال؟ سبحان مغير الأحوال. سبحان من لا ينسى أو يسهو. التقينا بالقصبة. كنـت في حجر موحو ، تتظاهر بخدمة ولي الله، والتفاني في العبادة على طريقته وتتلهف لأعقاب سغائر الحشـيش ، ولمداعبة أفخاذ الحشاشين ، والنوم بين أيديهم ، أو الجلوس عاريا بينهم. كان اسمك هناك ، "نعمة ربك".

استدرجتك ، فخرجت معي ، قبل أن " تزطل ". شربنا شايا في مقهى التلمساني ، ورحنا نتمشـى سـاعات على الرصيف. تأملنا البواخر الراسية ، وتحدثنا عن عواطف البحارة ، عندما يشتد هيجـان البحـر ، وتغيـب اليابسة عن أبصارهم. قلنا إنها "زطلة". حالة "زطلة" مهما كان الأمر. كما تحدثنا عن البواخر الإنكليزيـة التـي يفرح بها حشاشو القصبة ، إذا لا تخلو من غلمان حجم أثدائهم يفوق العادة ، تساءلنا عن مصدر الكهرباء ، وعن مستقبل الإنسان ، عندما يسيطر تماما على الموجات. كنت تسمع أكثر مما تتحدث ، ويقين أنك كنت تنتظـر أن أراودك ، لكن بادرت ، إثر حديث البحارة الإنكليز مباشرة ، أصحح نظرتك لي. سردت سورة يـس ، وسـبح اسم ربك ، وقرأت بسهولة ، عمودا من صحيفة كانت بين يدي. صحيح أن النحو والصرف ، بالنسبة إليـك ، لا معنى لهما ، وأن طريق القراءة غير معبدة. بل وجبلية. ترفع وتخفض وتنصب وتجزم كما يصـادفك. لكنـك ، كنت بالنسبة لي وجها جديدا.

بدأت تظهر على الخشبة رويدا رويدا ، يتغير موقعك في كل مرة ، حتى بلغت دور الفدائي. كم كنت رائعا في أدائه ، قلت في نفسي ، معركة الجزائر لا يحسن أداءها غير أبناء القصبة. تلقيت باقات الزهـر ، هتافـات. هتاف من موحو المزطول ما زلت أذكره: *وأما بنعمة ربك فحدث. صدق الله العلي العظـيم.* جاءتـك رسـائل الإعجاب والغرام ، صور لتوقعها ، تسابقت العذارى في اقتناصك ، تفانت الممثلات في الوله بـك. ذقـت كـل اهتزازات الأسرة ، وتلمست حساسيتهن في مختلف الأعمار. اشتريت سيارة ، أطلت شعر رأسك، أطلت لحيتك.

ها أنت بدورك رجل. نسيت موحو ، والطريقة، ونعمة ربك ، والحشاشين وعالمهم ، وعمليات الامتصاص الطويلة. تتحدث عن جانب الضعف في شخصية هذا الوزير أو ذاك ، بعد الكأس الثالثة ، أو أمـام كـل امـرأة جديدة في المجلس. لا تقول مثلهم الرايس ، وإنما تجهر مزهوا فخورا: بابا الرايس ، بدورك تتحدث عن الطبقة العاملة، عن التسيير الذاتي ، وقرارات مارس التاريخية. صحيح أنك تبالغ في اتباع التقليعة في اللبـاس ، وفـي

النظارات بصفة خاصة وكيفيات عقد ربطة العنق ، ومازلت تتعطر أكثر مما يجب ، لكنك ، وفـي عمومـك ، تدور في فلكي. تحضر الدروس المسائية. تتابع الأفلام ، تلهث وراء مجالس المثقفين.

اسمع يا مجيد. عندما تمر على بناية ساهمت ، عاملا أو مهندسا، في بنائها ، ألا يجب عليك أن تقول: هـا هنالك شيء ما مني. شيء من ذاتي وكياني ، تحول دون أن ينفصل عني إلى جزء لا يتجزأ من هـذه البنايـة؟ هاهنا كياني يمتد ويتواصل ، ويربطني بالزمن. فما تراني أقول ، وأنا أسجل أنك لا تتخلف عن مجالس الأسرة. تتفاعل. تتناغم. تنسجم. تضيف. تستضيف. تتوحد. ترفع صوتك عاليا أحيانا ، فينهرك أحدهم ، وأغمرك ببسمة الأب.

لا. لن أخدع فيك ، مهما كانت الظروف ، ولن أنسى نعمة ربك. عليوات! كيف حالك ، عليوات ، يا رفيق الدرب والساعد الأيمن؟ لم يبق من التينة ، غير عرقين حيين. أنت وأنا. قطعوها. أحرقوهـا. حفـروا تحتهـا وراحوا يقتلعون جذورها ، ثم زرعوا الملح حولها. لكنْ عرقان اثنان ، فلتا. كان لا بد من ذلك ، فانبعثت التينـة من جديد. نمت أغصانها ، وازدهرت ، وباتت تعطي الظلال والثمار.

عندما كلفت بإنشاء الفرقة الفنية للثورة ، كنت أول من لبى النداء ، هجرت مونبارناس ونهـج "لافيتـي" ، وسلمت في مكاسب منتج بالتلفزة الفرنسية ، واستجبت. طلبت عطلة مرضية ، ركبت الطائرة. باريس. جنيف ، روما ، تلفنت من هنالك.

- بروميثيوس.

ذكرني صوتك ، باسمي لدى جمهور باريس ، فخفق قلبي. كنت بتونس ، وبالذات بالحي العتيق منها ، باب سويقة ، بجدرانه المهترئة، وأبوابه المتآكلة الحزينة. خفق قلبي وهزني الشوق إلى مونبارنـاس ، وإلـى كـأس باستيس.

- آه. من هناك. عليوات. أينك يا عليوات ، تأخرت كثيرا.
- في روما ، بالطريق إليكم ، غدا إن شاء الله أكون عندكم.
- اليوم ، يارجل ، وليس غدا.
- تعرف الطائرات ، ثم إن ترتيب أمر سفري ، ليس بيدي.
- تعلم.
- ليتك كلمت من باريس ، فتحضر لي أصل العائلة لأنغلس.
- سأشتريه من هنا. تعرفت على مكتبة ، تبيع كتبا بجميع لغات الدنيا. لا تغتم.

حاولوا سجنك ، بمجرد وصولك ، فقد سبقك ملفك ، عليه باللون الأحمر وبالخط البارز ، "*عضو بالمركزية العامة للعمال. أحمر*". تدخلت ، تدخل كل أصحاب النوايا الطيبة ، وتدخلات بعض جهويات، وحساسيات عرقية. لم يسجنوك ، في انتظار أن يذبحوك ، إنما أرسلوك إلى مركز التدريب. قرروا إلحاقك بالوحدات المسلحة. كانت

المعركة صعبة. اختطفوك من الفندق ليلا. غبت. اختفت آثارك. لا باريس صارت تنبئ عن أخبارك ، ولا رومة تبشر بوجودك.

بعد شهرين ، عثر عليك في "ملاق" ، بالحدود التونسية ، تسير في صف طويل ، بالخطو المنتظم ، الموزير على كتفك ، وأنت تهتف مع الهاتفين من الأعماق "*من جبالنا أطلع صوت الأحرار ينادينا*".

عدت بك.

سكرنا ليلتها ، بالبوخة ، في غرفتي ، قلت لك ، الشرب ممنوع، ممنوع تماما ، وقد يكلف الحياة ، خاصـة بالنسبة لذوي السوابق أمثالنا ، لكن نتعاون على خنق ديدمونة بوسادة الحرير.

استيقظ أبو نواس فيك ، فحاولت أن تخرج عن الموضوع ، لكن سرعان ما غلبك النعاس. كنت تقسم أن لا تنام على هذا الجفاف الذي لازمك طوال هذه المدة ، إلا أنك سرعان ما انهمكت في الشخير. لم تعتذر في الغد ، بل ، تجاهلت الموضوع تماما ، واكتفيت بالحديث عن قوة مفعول البوخة التونسية ، وتقارن بينهما وبين الريكار ، والكريستال ، وتؤكد أنك لم تذق الفودكا بعد ، وأنها إذا كانت في قوة البوخة ، فستحتاط لها ، كـل احتيـاط. تركت أمر الاحتياط مبهما. قلت لك ، سنحتاط جميعا ، هذه المرة.

بدأت الفرقة ، تأخذ شكلها ، شيئا فشيئا ، على نغمات الدهماني ، الذي راح يطرق الذاكرة الشـعبية ، فـي الأوراس وسفوحه ، "*يا عين الكرمة وأعطيني الأخبار على الطفلة الشخمة .. منها ضاق الحال*" ، و"*طيط ـة يـا طيطة غريب وبراني يا طيطة*" ، "*والطلاب يطلب ربي ، جواد الموالى ، واللي حبه أهل الله يرزقوه فـي فـج خالي*". لم نجد مغنيا في مستواه ، لكن مزماره الذي لم يكن من شمع ، وإنما من دم، كان يُغْني عن كل مشحون الكلمات. كان وحده ينطق ، فيفهمه العالم أجمع.

ولدت "أبناء القصبة" ، و"الخالدون" ، وبرزت الإيقاعات واهتزازات وجدان الأجداد ، فبان الوجه الحضاري للجزائر ، بدأ العالم يتذكر ، أن الجزائريين، كانوا جزائريين قبل أن يأتي إليهم الفرنسيون ، بـالأمس القريـب ، القريب جدا ، هذا الذي مازال الدهماني ، يغرف أنفاسه الحرّى منه.

لم تتغير ، عليوات. الشيب وحده يلفت الانتباه ، إلى مرور السنين ، وضخامة التجربة ، أما القلـب ، أمـا الروح ، فما تزال فتية. أتذكر ، صاحبنا الوالي ، الوزير. كم تعبنا في عملية صقله ، وإدخال التغييـرات علـى ملامحه ، وصوته ، وحركاته ، أثناء كل مسرحية. كنت تقول إنه خشبة ، لا تنشر. قولبناه ، بعـد جهـد ، فلـم نصنع منه ممثلا ، إنما انتهازيا ، يتقمص شخصية الذل ، والتملق. لك الحق. نظرتك إليه ، كانت أصـدق مـن نظرتي أنا ، فقد كان موهوبا ، لكن لم يكن بالمرة فنانا. أتذكر ، يوم قرر قتلك في بكين؟ ظل يحمـل الخنجـر، ويتربص بك.

ليلتها نمنا في غرفة واحدة. لعلك بالغت في سقيه مشروب اللفت الآسيوي العتيد ، أطفأنا النـور ، ونمنـا ، لنفاجأ به صباح الغد ، يستل الخنجر ، ويهجم عليك. فهم الجميع ما وقع في الليل ، وقدرنا كلنا الموقف. عرفنـا

أنك تدحرجت من تحت إلى فوق.. لكن لا أحد سواه، وسواك. يمتلك الحجة والدليل.

أنت جزء من التينة يا عليوات. لن تموت. لن أموت. سيظل مولانا ، بروميثيوس ، حيا. لن نـذوب ولـن يرعبونا.

صالح ، مهندس الضوء العظيم. أهلا بك.

كنت لاجئا تتأهب للفرار من الخيمة ، والأسرة الصغيرة ، فتلتحق بوحدات جيش التحرير. استصدرت أمرا لأبيك ، فانتزعتك منه. كنت تعشق البطاطس ، طيلة ثلاثة أشهر ، لا تطلب إلا "بطاطا بـاللحم" ، ويـوم أقسـم عليوات أن تأكل طبقا آخر غير البطاطس ، بكيت. بدأنا في الأول بوسائل بدائية ، وإضاءة بسيطة. نور. ظلمة. نور عادي. نور خافت. نور قوي. ظلمة. أبيض. أسود. قرمزي. أصفر. أزرق. أحمر. نـور. ظلمـة. بـدأت تخترع ، بدأت عبقريتك تتفتق. حتى في هذه الجلسة ، وفي كل مثيلاتها ، كلامك ، يلعب دور الإضاءة ، لكـل الزملاء. تستر عيب هذا ، تخفف وطأة ملاحظة في غير محلها. تهدئ اهتياجا ، تخشى تطوره. بسمتك ، دائمـا هادئة ، وبصرك باستمرار جوال. روحك متيقظة ، وبديهتك حاضرة. كلما ، حصل لي اضطراب ، قلـت فـي نفسي ، لا بأس. سيغير صالح النور، فلا ينتبه الجمهور.

كيف حال البطاطا؟ حتى في موسكو ، طلبتها. أتذكر حادثة الجورجي ، في مطعم باكو؟ قلنا نهرب ليلتهـا من الفرقة ، ومن الرسميات ، ومن الذين يبالغون في الشرب. جلسنا. أولغا. أنت. أنا. على طاولة يجلس عليهـا شخص أصلع. حيانا ، ثم سأل عنا ورحب بنا ، بطلب قنينتي شامبانيا ، واحدة له وحده ، وواحدة لنا جميعا ، ما أن أنهيناها ، حتى راح يحتج على تباطؤ النادل. طلب هذه المرة أربعا دفعة واحدة ، تفاديا للتباطؤ ، كما قـال. اندهشنا. اعترانا الخوف والظنون ، غير أن أولغا ، طمأنتنا بأن المسألة جد عادية ، بالنسبة للجورجيين ، الـذين يفنون أعمارهم. في تأكيد كرمهم. ملأ كأسه ، ورفعها: في نخب الصداقة بين الشعوب. تبعناه. في نخب السـلام على الأرض ، تبعناه في نخب استقلال الجزائر. تبعناه. في نخب السيدة الجميلة ، الوحيدة التـي تجلـس إلـى مائدتنا. تبعناه. نخب ستالين. تبعناه. ظل يرفع عقيرته ، وكأسه ، وظللنا ، نرفع كؤوسنا ، ونتبعه. هات يا نادل. خذ يا نادل. واختلطت القناني ، الفارغة ، بالملأى ، والفودكا بالشامبانيا والكونياك. سكرنا قبل أن نتعشى ، بينما ظل الجورجي الأصلع الأصيل ، ثابتا في موقعه ، مصمما ، على أن لا يخرج كوبيكا واحدا إلا من عنده.

ما أطيبها من ليلة.

تنازلت أولغا عن وقار العلماء ، فضحكت كثيرا ، وفي الفندق ، غنت لي "أنت عمري".

نزعت معطفها ، وتأملت ساعة يدها.

- لا مجال للعودة. الوقت متأخر جدا ، ولن أجد سيارة. أتأذن لي بقضاء الليلة في غرفتك.

طارت السكرة ، وزال كل أثر ، لكرم الجورجي الأصلع ، توهج بياض جسدها. مسّتني رعشة العضـلات الفائرة.

عرفت لحظتها أن أولغا ، تحبني ، وأنني سأسكن بها إلى يوم يبعثون.

صالح. كيف تحولت "يا وحد الخبيث" ، إلى صقر أحمر ، يتكتم، يعرف فائض القيمة ، والمادية التاريخية ، وحتمية انتصار الاشتراكية في العالم أجمع؟ أين مستك اللوثة ، يا صالح؟ أين وقعت؟ أفي بكين ، أم في موسكو؟ ضاعت ببكين يا صالح. الفلاحون لم يصمدوا للنظرية العلمية يا صالح. سألتني ، على ما أذكـر فـي بلغـراد، فأفهمتك أن الجبهة ، لا تتسامح في هذا الأمر. تعادي الشيوعية، وتقتل المنتمين إليها كما تقتل الخونة ، وأعـداء الثورة. ترصدهم ، وتطاردهم في كل مكان من العالم.

- لماذا؟

سألتني ، فلم أجد ، ما أجيب به ، سوى هذا:

"الأم الجحود ، تأبى أن تبيح للابن سر بنوته ، والأب الماكر يستدرج ، الابن إلى العربـة الجانحـة ، ذات الخيول المجنحة الأقدام." القضية يا صالح ، تتعدى عقدة أوديب ، وتتجاوز سرقة النار ، وأكثر من حقد "هيرا" على "أيو" ، واختلال التوازن بين داناؤوس ، وبناته الخمسين ، وبين إيجيبتوس ، وأبنائه الخمسين.. أو تعـرف "المستجيرات" ، أحد أسرار بروميثيوس؟

- لا. لا. يكفي أن أعرف الضوء وألوانه. لا دخل لي في داناؤوسك أو غيره.

- كيف كتمت سرك حتى الآن؟ وفي أي مستوى قيادي أنت حالياً يا صالح يا مهندس الضوء ، هل تنبـأت يوماً ، بطريقة مصرعك؟ وهل ظننت في يوم من الأيام ، أن العاشق يمكن أن يخفي عشقه إلى الأبـد ، مـع أن العشق ما خلق إلا ليظهر؟

صالح! هل تستطيع أن تنسى ، هذا الوجه؟ ملامحه. تقاسيمه. تقاطيعه. تعبيراته؟ ألا يحضرك مـن حـين لآخر وأنت ترسل أنوارك في غيابه ، على ملامح تحاول ، عبثاً ، أن تكون صادقة؟

وداد. فطوم. سلوى !

أيتها القطط الأليفة. من أغواكن؟ لا. أكون جحوداً إذا استعملت الغواية. كلا ، ومليون كـلا ، فالمغويـات والمغويون في هذا البلد كثيرون. لكن أن تختار "الريميتي الغليزانية" ، الغناء بالذات ، وتظل تصـدح وتصـدح بتباريح جروح قلبها ، تضمّد صدرها ، وصدور عاشقيها ، وكل المهانين والمهانات عبر التاريخ ، فهذا ما يفوق ذالكم الشيء الشبيه بالغواية.

في كل نفس بشرية ، معدن أصيل ، والروح الحية ، هي التي تنساق وتنجذب لقوة أصالة المعـدن ، ولقـد كان في إمكانها "الريميتي" أن تتزوج من أثرى أثرياء الغرب الجزائري ، وأوجه وجهائـه ، وأجـل ضـباطه وموظفيه ، وكان في إمكانها أن تجمع أكبر ثروة ، وأن تبني قصوراً وعمارات ، وتمتلك عبيداً وجواري ، لكنها ظلت تتطاول. تتجاهلهم وتتطاول. تدوس على أعناقهم ، وتتطاول. تراهم منبطحين ، يلثمون أقدامها فتتطـاول. تصدح وتصدح. صاحية تصدح. سكرانة تصدح. *"أنوشم في الصرة. الضرة مرة. أنوشم في ظهـري. هـذا مـا*

أعطاني زهري". تعلم الريميتي يا بنات ، أن عشاقها، لا يحبون فيها المرأة ، فالعالم مليء بالنساء ، إنما يحبون فيها التميز والتفرد الإنساني. عشتروت ، عليس كوثير التي تسكنها. تغترب إلى الشيء الذي يسكنها ، ويميزها ، فتعشقه بدورها. تفرغ كأسها فتستزيد. وتتوجه إلى الذات الكلية ، منطلقة فيها ، هاربة منها ، وتصـدح: *آه وإذ مت.. ابكوا على الريميتي ورحموا*". تعلم الريميتي يا بنات أن ما تعطيه يفوق حد ما تعطيه المرأة العادية. العالم مليء بهن ، لكن البشريات فيه قليلات.

لا تحاول أية واحدة منكن ، إبراز الأنوثة فيها ، إلا بقدر ما تتجاوز حد الرجل و المرأة ، ومـا يمكـن أن يجمع بينهما ، وتقترب من سحر المزج بين الذات والكون. لا أستطيع أن أفصل في شأن كل واحـدة مـنكن ، فأنتن لا تثبتن بمكان ، ولا تتحن لي جمع خيوط كل واحدة بمفردها ، ثم إنكن ، واسمحن لـي ، صـراحة الأب والأخ الكبير، ما تفتأن تستحممن ، في نهرها. نهر أولغا العظيمة. نهر الاحتواء والشمولية.

إنما أولغا ، تغفر الزلات. أولغا تبارك فيكن الإنسان.

آه. ما أشد ما كانت حياتي ، تمتلئ بنا.. حتى في حالة تفاقم أنانية الواحد منا.

أغتر أنا. أنتصب مظلة تحجب عنكم أبداً الكون. تعيشون أتباعا في الظل ، أو تموتون.

ينبهر أحدكم بتصفيقات القاعة له ، فيقرر أنه ليس بينه وبين العملقة ، وملء الدنيا ، سوى الرايس. يوجه له نظرات الحقد والبغضاء. ويغتاله سبعين مرة في الليل قبل أن ينام ، إلا أنه سرعان ما يستسلم لنداء الفنان فيـه ، لنسغ التينة التي انبثق منها ، فيرى في الرايس ، مجداً وطنيا ، لا يمكن التفكير في نكرانه ، أو في البناء علـى هامشه.

تستيقظ الثقافة و الحضارة في النفس ، فتستصغر حالها ، أمام ضخامة التراث الإنساني.

أنتم ، جميعكم ، بقوتكم ، بضعفكم ، بانتصاراتكم ، بهزائمكم ، بالحقد والغرور ، وبالتواضـع والتسـامح ، بضيق قلوبكم ، وبسعتها. فنانون. تتشكل نواة الحق والخير والجمال ، في هذا البلد منكم.

لكن لِمَ تخليتم ، عني ، بمجرد استلامي للقرار. بمجرد أن أدركتم أن التاج الذي على رأسي ، لم يصمد أمام حمق نيرون. لقد احترقت روما على يديه ، حريقاً بحجم التاريخ ، فهل زال مجد روما في يـوم مـن الأيـام؟ أسألكم. أسالك يا صالح ، ويا بنات ، وياعليوات. ويا بوعلام. أسألكم جميعاً. لم تخليتم عنـي. لـم تركتمـوني وحدي؟

شيئا فشيئا ، بدأت سهراتنا تقل. بدأ الكثير منكم ، يتخلف عنها. شعر البعض منكم ، شعرتم جميعـاً ، فـي الحقيقة ، أن المسألة ذات طابع انتقام بين المدير القديم والمدير الجديد ، "مجيد" ، "نعمة ربك" ، الـذي أضـحى اسمه مقروناً بسي.

أفرغتم غرفتكم. تركتم الغبار ، يتراكم على أرائككم. نسيتم عادة السؤال ، هل استيقظ الرايس؟ هل وجد ما يأكله؟ هل أعد أحد قميصه؟ هل سوي سريره؟ هل لاطفه أحد بالحديث عن أولغا؟ نسيتم، حتى التهنئة بالأعياد.

آه. أيها المتخاذلون. رأيتم أكمة ، فتصورتموها في لحظات الخور ، حطاما لجيـف ، ورحـتم تتجنبونهـا. تنسونها.

نسيتموه. الرائحة اللفسة ، ملأت أنفاسكم ، فأحطتم بها ، دون أي تأمل للوضع!

لم تعمر غرفتكم هذه ثلاث سنوات. ما أقبح فعلكم. ما أقسى قلوبكم. ما أرذلكم. توهمتم أن التينـة تمـوت ، بمجرد قطع جذعها أو إحراقها. لو كنتم جذورا أصيلة في التينة ، لهزأتم من العالم أجمع ، قائلين:

بروميثيوس لا يمكن أن يموت ، لأنه يملك سر موت الآخرين.

لكنكم ، توهمتم أن الفنان يمكن أن يقتل. مولى التينة ، يمكن أن يقتل ، فرحتم تتباكون ، وتذبلون.

آه! ما أشد شوقي إليكم جميعا. وما أشد حبي لكم جميعا.

الكابوس

عندما غادر ، محموما ، قاعة الجلوس ، أو غرفة التخاذل ، بعد غرفتها ، لا أحد - وفي الحقيقة ، لم يكـن هناك أحد غيره- انتبه الى عدد الطنات في الساعة السوفياتية ، النابضة بالحركة ، في الجدار الميت ، مرسـلة تكتكة ، متناغمة ، مع حركة الزمن ، وتواتر الذات الكهربية للكون ، ومحدثة أصواتا موسيقية ، رغم رتابتهـا ، فإنها تملأ المنزل الفسيح ، بنبض الحياة ، وتبدو أشبه ما تكون بطفل وحيد ، لدى أم مهجورة ، كل مافيه ، حتى الإزعاج ، الذي يسببه مرضه وارتفاع الحمى المفاجئ ، يؤشر إلى صلتها بـ الزمن. بالحاضـر ، بالماضـي ، بالمستقبل. إلى غريزة الامتداد ، والتواصل والتجدد والتفاعل، الكونية في المادة. إلى الضعف في الكائن البشري ، الذي لا بد أن يأتي يوم يتأله فيه ، يمتلك فيه كل الأسرار ، فيستغني عن رحمة من كائن آخر ، بجرعة ماء ، على فراش الموت ، أو العجز، أو مد يد نجدة عند السقوط ، في حفرة ما. تنقطع دقات الطمطام الإفريقية ، حول أسد محاصر ، في حاجة إلى حصار ، أكثف ، وأضيق ، واستغاثة المرأة العربية ، مولولة ، تتناقلهـا صـخور الوادي "*وينكم يا نشامة*" ، أمام غارة الغرباء ، وسريان الرعب الأزلي في العروق. تموت البدائيـة ، وينقضـي عصر مئات ، وآلاف الخلايا العاملة في المخ ، ليحل عهد الملايير. عهد التوحد الكلي مع الذات الكهربية للكون.

مع الزمن فلا يبقى هناك ماض وحاضر ومستقبل. إنما النبضة الواحدة ، التي هي إرادة الإنسان.

لربما طنتان ، لربما ثلاث ، عندما وجد نفسه ، يتناهض ، مهزوما ، مبتل الوجنتين ، مرتعش الأوصـال ، مقشعر البدن ، ويسارع إلى إطفاء الأنوار ، ودخول الفراش.

كان إلى جانب ذلك ، حزينا. حزينا جدا ، لكنه ، لم يكن يشعر بأي يأس. مولى التينة أبعد ما يكـون عـن متناول أيدي الأعداء والخصوم. إنه هنالك ، في صلب الذات الكهربية ، وإلا كيف لم ينتبـه زيـوس ، إلـى أن استلال قلب بروميثيوس ، يكفي؟ إنها لعبة مكشوفة بين اثنين. بين عارف الحقيقة ، وبين الخائف منها ، بين من يمتلكها. من تكشفت له فامتلكها ، وبين من يريد شراءها لتشويهها.

لعبة العذاب.

يتحمل جسم بروميثيوس ، لسع السياط ، ونهش الكواسر ، وكي حمم البراكين. يتلقى ، ذلـك ، ويتحملـه ، وتتحمل روح زيوس ، آلام انتظار ، مصير جهل الحقيقة.

الجلاد يدرك أن نهايته حتمية ، بينما تتأكد الضحية من خلاصها. هات ، وهاك. هات الجزء ، وهاك الكل. الحقيقة هي مولى بروميثيوس ، وهي ملك له وحده ، يحلو له أن يوزعها على الجميع ، ماعدا ، زيوس. لذا لـم يخش الموت. لم يدمع. لم يذبل. لم يشعر بالفناء يداهمه ، أو باليأس يتهدده. يعرف أن الجـذور ، والعـروق ، ستظل تنبثق ، وتنبثق ، لتؤكد للنور ، أن الحياة تدب فيها، إنها تشترك معه في الحياة. في الاتصـال ، بالـذات الكونية.

على عكس ما كان منتظرا ، قرر الرايس ، أن لا يتنازل عن قيادة المركبة ، حتى وإن كانت جانحة ، ذات خيول مجنحة الأقدام ، على الرغم من الحسرة التي بعثها المتخاذلون في نفسه. لم يأذوه ، بقدر مـا أشـعروه ، بأنهم آذوا أنفسهم. سلموا في الحقيقة ، تركوها تفلت من بين أيديهم على أمل أن يجدوا ، أن يصادفوا ، في موقع حوافز البقرة ، في طريق هروبها الطويل ، تحت وطأة لسعة الذبابة، جزءا منها.

سلموا في بروميثيوس. شذوا عن سكان كهوف ومغاور الأطلس، ولعنوه ، بدل أن يباركوا مأساته.

اللئام ، وحدهم ، لا يكترثون لانتزاع الحياة ، لمغادرتها ، لجسم ما. ذلك أن حياتهم هم ، لا قيمة لها.

سأسحقهم. سأجتاحهم كالطوفان فأطمرهم إلى الأبد. أؤسس فرقة. أنا وفجرية ، وبعض شبان ، ربما عيلوات يلتحق بنا. وأكتب لها أول عمل.

ابتداء من الليلة القادمة أشرع في تأليف مسرحية العمر. نعم.

أفكر بالحرف ، بدل أن أفكر بالتأمل. يتواصل بروميثيوس ، في معاناة أشيل جديد ، متجدد. طافت هامتـه في التاريخ والزمان ، والأجساد والأرواح ، وسكنتني ، لتظل ، خفاقة ، تواقة.

أصفع التخاذل. أدوس عليه. يدلع لساني ، من جديد ، في وجه زيوس.

من أفوسك من لمسة يدك الخشنة ، تحبل البقرة بمن يقتلك. أيها الوغد.

نمثلها ، في كل مكان. تنشر ، بجميع اللغات ، أرسل نسخة منها إلى أولغا كي تترجمها. ستكون مقدمتها الأساسية ، العلاقات بين الذات والموضوع ، أو كما يقول المثل الشعبي"*إكس خشبة ، تبدو جميلة*". نعم أمامي خشبة ، لا يكسوها الغير فحسب ، إنما تكسو نفسها ، بنفسها أيضا. بل ، أخشاب ، وكم عرفت منها.

أكتب. نعم سأكتب ، لقد قال لي فيما قال ، على ما أذكر: أكتب. أمرني حبيبي ، ولا شك ، بالكتابة. سأفعل.

ليظهر عروة بن الورد ، وأبو العلاء ، وطه حسين ، واإبن المقفع ، وابن خلون ، وابن الرشد ، وابن سينا ، والجاحظ ، وابن عربي ، مع جديد ، في هذا الصقع ، وهذا الصقيع.

كان ذلك ، لا هو بالعزم ، ولا هو بالامتثال ، بين اليقظة ونوم. لكن المؤكد ، أنه *حديث ليل ، زبدة ، يطلع النهار فتذوب* ، يقع لها ، ما وقع كل هذه السنين. لكن من يدري؟ من يدري؟ حبر وأوراق بيضاء ، وقلم ، وتصميم في قطع الخطوة الحاسمة ، كما يقول ويليام جيمس ، ثم "هوب" ، وثبة فانتحار.

أصفي معه الحساب. زيوس الكاب. عن عمد وعن تصميم ، وسبق إصرار. ثم من جديد ، أقف على قدمي. أستعيد ، بالأصح موقع القدمين. هنا كان. ها هنا. ما يزال. وسيظل ، يشمخ ويشمخ ، فوق الأقزام. لن يغيب عن الأعين ، لن يحجبه ضباب ، تنشره النفس الشريرة لايزيس. سيظل حاضر في الأفئدة ، وسيظل يملأ الأنوار. لم تصفقوا البارحة ، وأول البارحة ، جزافا ، لم أخدعكم في أي ليلة، ولم أدجل في أي موقف. لم تفتحوا أفواهكم مشدوهين أمام هول العاصفة ، مسلمين له رقابكم ، ولم تركبوا معه السفينة ، وهْما.

الرايس رايس ، والمركب مركب ، والبحر بحر. حاجتكم إلى الرحيل أكيدة ، وها هو السر بين أيديكم. سرقته منه ، لأجلكم. خذوه. تفضلوا ، خذوه. اسموا فوق مستوى الفلاحين الحمق. تألهوا. تألهوا. دقوا الصوان بالصوان ، وسترون. يفلت جزء من الذات الكلية ، يسري في المادة. تلكم هي النار. ذلكم هو السر. الطاقة. الطاقة. حركة الأرضين والسموات.. "*خلقتني من نار ، وخلقته من طين*". و"*نفخنا فيه من روحنا*" و"*تحول إلى رجل-امرأة ، بذر في الماء بيضة ذهبية ، لمعانها كالشمس*".. خذوا. إليكم السر. فلا تتوانوا عن التأله.

نام ولم ينم. في حين كان في منتهى الاستسلام ، للحمى ، وللاسترخاء ، يتابع تكتكة الساعة السوفياتية ، ويلتذ لطنينها الذي يقترب بصفة أو بأخرى ، من طنين الإيذان برفع الستارة.

هاهي الستارة ترتفع. وهاهو ، منبطح بين ماء وماء -هكذا يخيل إليه. مشطا قدميه ، يلتقيان ببرودة ، ورطوبة ماء ما. أصابع يديه ، تغطس من حين لآخر ، في نفس الشيء. ما تحته يصعب تحديده بدقة. لا هو بالجمر ، ولا هو بحرارة رمل الصيف. أشواك حينا ، وأوتاد حينا آخر. ثلج وصقيع هنا. مسامير ، ومراجل هناك. العينان المغمضتان ، المغروزتان ، في شيء لا يشبه أعماق السباخ، ولا قار النفط ، أو الصمغ ، تلحظان في الوقت الواحد ، بدقة عجيبة، تفاصيل الأعلى.

له رجل واحدة. لعلها ليست طبيعية ، من خشب ، أو من فولاذ، أو زنك ، أو ورق ، أو رخام ، أو ما شابه ذلك ، يتمكن من التماسك عليها بشكل طبيعي جدا ، وبتوازن يثير الإعجاب. له سبعة أعضاء تناسل ، بكل

لواحقها. بطنه شفافة تطل منها ملايين البطون الشفافة ، العامرة بدورها ، بالبطون الشفافة ، العـامرة. صـدره مستدير. دقيق ومستدير. لا هو بصدر امرأة ، ولا هو بصدر رجل ، أو حتى صدر ضفدعة ، به ثدي واحـد ، في حجم بحر ضخم ، ذو سبع حلم. إلى جانب الصدر ، سبعمائة يد. ليس له رقبة ، ولا رأس ، ولا أذنـان ، أو فم أو أنف. أعلى الصدر المستدير مباشرة ، تنتصب عين في حجم كوكب ، ليس فيها سوى البؤبؤ. يبول لبنـاً ، وطيناً ، ونفطاً ، ومنياً ، ومذيا ، وقطراناً ، وويسكياً ، ونبيذاً وبوخة وعرقاً. في كل يد من أياديـه السـبعمائة ، أداة مسلطة على الجسم المنبطح. بل ، إن كل أصبع من أصابعه الأخطبوطية ، ملايين العلق العطشى ، منغرزة في كامل الجسم.

تنزل ، مرة معاً ، ومرة منفردة. النار. الكهرباء. السكاكين. الملح. الحامض. السيوف. النشاشيب. الرماح. السياط.

من يستطيع أن يحصي. سبعمائة أداة ، تنزل ، وتنزل ، كلما تعاقبت ، تسارعت ، أكثر؟

لشد ما يشبه ذلك ، محاولة تصور قطرة الماء الأولى ، في البحر ، وذرة الرمل الأصلية فـي الصـحراء. حيث تتحول عملية التمييز ، هنا ، إلى صرف خاطر ، إلى تلهي هروبي ، لتجاوز الوضعية.

الثدي ينز ، من حلمه السبع ، ومن خلال أذرع ، وأفواه ، ومصاصات ، أخطبوطيـة ، بكـل السـوائل ، المعروفة وغير المعروفة. الحوامض مركبة. الرصاص وكل المعادن مجمعة ، القيح الدم ، الويسكي العـرق ، الغاز.

عينه تتبع بنشاط ، حركة ، كل مسام الجسم.

رجله. الشيء العجيب فيه فعلاً. لا تعمل على حفظ التوازن فحسب ، إنما ، تسهم بنشاط ، في العملية فـوق جسمي. تنتقل من الماء للماء. تدوس ، بتعنت وإصرار على كل ذرة في الكائن المنبطح ، ويبدو أنها على صـلة وثيقة ، بمحتويات الأرض ، وتعمل بتنسيق بالغ معها.

كان. يصحب العملية ، الغناء.

أم كلثوم في الرباعيات ، أو ولادة في النونية ، أو فيروز في موشح ، زرياب أو سيد درويش ، أو الشـيخ إمام أو حمام ، أو مارسيل خليفة ، لعلهم جميعاً ، في كورال واحد.

عبد الباسط عبد الصمد ، أبو العينين شعيشع ، وآلاف غيرهم ، في يس ، والحاقات ، والكهف ، والقارعـة والكوثر ، والناس ، في جنازة تشبه العرس وفي عرس يشبه الجنازة.

وكان المتنبي يقرأ ، إلى جانب نزار ، ومظفر والعيسى ، وأبي فراس وابن تيميـة ، المـدح ، والهجـاء ، والرثاء والغزل ، والوقوف على الأطلال ووصف الناقة ، أصوات تجمعت كلها في صوت واحد، يخـرج مـن دبره في شكل غاز كيماوي خانق.

تحمل الجسد المسكين ، كثيراً ، صبرت الروح ، وصابرت. تحملت كل شـيء ، عـدا أن تظـل العينـان

المغمضتان المغروزتان في الأسفل تلحظان بدقة تفاصيل الأعلى.

آه ، كم هو مسيء ومهين ومذل ذلك. آه لو أن الوهن النهائي يصيب بصر الجسد الطريح.

انبعث صوت قوي ، لعله من المنفذ الوحيد فيه ، كأنما يرد على الآهات:

" *يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون* " ردد ذلك ساعات وساعات ، ثم توقف ، فجأة ، وكأنما يصغي إليّ أسأله ، عما يضيره ، إذا كان مقتنعاً بذلك ، ليزأر من جديـد: "ولـم لا تعدل ، وتكف ، عن أقيموا بني أمي صدور مطيكم ، وعن خفف الوطء ما أظن أديم الأرض.. وعن القدح فـي بني أمية ، وترتيل القرآن ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والله نور السموات والأرض ، واذكـروا نعمـة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، وادعاء حداثة كلام الله ، وبخلود آتي الكبيرة في النار ، وأمرهم شورى ، والرحمان على العرش استوى ، ويده فوق أيديكم، ثم إن رضوان ، مهما غالط الأعمى ، وسواء أكان ممنوعا من الصرف أم لا ، عربي ، من قحطان ، وليس من عدنان ، لم يكن هناك ، أصل لقبيلة ، أو لطائفة أو لملـة ، أو لمذهب لا لكنعانيين ، ولا لآشوريين أو فراعنة أو بربر ، أو فرس أو أعاجم ، أو أحباش كل من تكلم لغـتكم فهو منكم. حسان تاب وكتب الوحي ، زهير ابن أبي سلمي أخرس ، المغنون و المغنيات ، لم يوجدوا في المدينة إطلاقاً ، وخالد بن الوليد ، لم يوقف حرب الردة إكراماً لعيون امرأة ولتجربة في العشق ، وعمر ابن الخطاب ، كان يعني شيئا آخر لن تفهموه.. خير أمة أخرجت للناس. خير أمة أخرجت للناس. إذا ما اعترفت بكـل هـذا ، بهذا فقط ، أرحتني بتذاوبك في الأرض ، بين الماء ، والماء ، وأرحت رجلي وأتحت لي فرصة الاستلقاء.

كان الحوار يتواصل ، بجميع اللغات ، وبجميع الأساليب وكانت الساعة السوفياتية ، تشاغب بطنينها ، الذي يتحول الى زمزمة رعد ، تهز سكون الليل ، وكان الجسم المنبطح ممتد الأطراف ، بين الماء والماء ، يعاني من وعيه الحاد ، بالزمان والمكان.

يذكر لمن يكون هذا الجسم. وفي إمكانه ، أن يسرد اسمه ، واسم سعد الله ونوس ، وممدوح عدوان ، سعدي يوسف ، وفريدة النقاش ، وألفريد سمعان ، وغائب طعمه فرمان ، وجمال الشرقاوي ، ومحمود أمـين العـالم ، وعبد المحسن طه بدر ، وحمده خميس ، وعبد اللطيف اللعبي ، كما في إمكانه أن يتلو ، والشـمس وضـحاها والقمر إذا تلاها.. وتبت يدا أبي لهب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب. ويتحدث عن الحـلاج ، وابـن عربـي ، ويمزق الجبة ، لكي لا يبقى هنالك شيئ آخر ، سوى نور السماوات والأرض ، وبالإضافة إلى ذلك ، يعلن عـن عدد طنات الساعة السوفياتية في غرفة التخاذل ، واسم وزيره ، وأسماء بعض ضباط المخابرات ، واسم السائق واسم كاتبته الخاصة ، نجاة ، وأسماء مساعديه من الشعراء ، المتحاشين لكل مصدر معاناة ، المتخمين بـالنقود والوظائف ، وأسماء الغاضبين في باريس ، ولندن ، يشربون ، دون أن يرتووا محاولين عبثاً ، إطفاء حريـق ، شب في قلب أبي ذر الغفاري ، هذه قرون ، ويتحدثون دون أن يسمعوا ، ويأكلون دون أن يشبعوا ، أكثر مـن ذلك، بإمكانه ، أن يتحدث إليه، هو الجثة الضخمة ، ذات القدم الواحدة السيلوفانية ، والعين الواحـدة الخزفيـة ،

عن إمارة موناكو ، وعن عدد كيلومترات السكك الحديدية في الربع المنخفض ، مع مقارنـة ، بينهـا ، وبـين نظيرتها من الماء للماء ، عن تاريخ تأسيس الأمم المتحدة ، وتاريخ إعلان حقوق الإنسان.

المصيبة. تكمن هنا. في منزلة وعي الإنسان ، بين اليقظة والنوم ، بين التفكير الممنطق في أمره ، وبـين المعايشة الإجبارية للكابوس. بين المعرفة الموضوعية للحالة والمعايشة العاطفية لوقعها.

ارتفع صوت مرعب ، يهز الأوصال ، وخيل إليه أن الهيكل الضخم ، ذا العين والرجل الواحدة ، قد طعـن بحربة ما ، في عينه. شعر بالخوف الشديد. همد لحظات جامد الأنفاس ، الى أن تبينت بعض عبارات الصـوت المرعب ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح.

ثلاثة مساجد ، رغم أن لكل واحد منها صومعة تناطح السماء ، فإن المؤذن لا يكلف نفسه ، إطلاقـا قطـع الدرج ذهابا وإيابا ليعلن من هناك ، بصوته الإنساني المهموم ، كما كان بلال يفعل ، *الصلاة خير من النوم.*

لقد استعد أحدهم الاستعداد الكامل ، وأدخلوه غرفة معزولة ، ووضعوا أمامه آلات وراح يسجل في أسطوانة سوداء ، من مادة قابلة للالتهاب والانكسار ، الآذان كاملاً ، ثم قبض نقودا، وهاهم يكتفون قبل أن يستيقظوا تمام الاستيقاظ بمد أيديهم من تحت اللحاف، والضغط على زر ، لتمتلئ السماء ، بصوت بلال المشوه ، ولشدة مكرهم ، وحرصهم على أن يتميز كل مسجد عن الآخر ، وكل آذان عن غيره ، لا يديرون الأزرار في الوقت الواحد ، رغم أن ساعاتهم، التي لا يفعلون في الحياة ، سوى النظر إليها وضبطها ، لا تختلف في توقيتها ، ينتظر أحدهم ، حتى تقترب أسطوانة الأول من التوقف ، ليضغط على زره ، فيملأ السماء من جديد ، وكأنما يهمه أن يقـول: *نحن أيضا هاهنا ، وليس الله أكبر الله أكبر.*

لينقطع كل شيء ، الأفضل أن ينقطع ، الآن. وليس بعد. الاستماع الى تكتكة الساعة السوفياتية ، في غرفة التخاذل ومتابعة أصوات المآذن الثلاث ، تردد كلاما واحدا ، اتخذ منه رهين المحبسين ، موقفا هـذه قـرون ، والتجاوب مع الهيكل ذي الرجل الواحدة ، المنتصب فوق الجسم النبطح من الماء للماء ، والوعي الكسول بالذات ، وظروفها ، ومحيطها ، وحوافزها في الشروع في تأليف مسرحية عن علاقة الـذات بالموضـوع ، عنوانهـا *تجربة في العشق.*

هذا قرار اتخذ منذ سنوات ، وسينفذ الليلة القادمة ، مساء نهار اليوم بالأصح.

ليعشق المرء ، بدل أن يثرثر ، في الحديث عن تفاصيل التجربة، يذهب السائق المتواعد معه على السـاعة الثامنة ، الى الجحيم ، ولتظل نجاة سيدة الهاتف كامل اليوم أيضا، وليناور الشعراء ، من أجـل الوصـول الـى الديوان ، ومن أجل دعوة رؤساء تحرير المجلات الأدبية ، "الآداب" و"أقلام" و"المعرفة" ما أمكـنهم ووسـعهم ، ولتغلق أبواب المسرح الوطني في انتظار فتح منافذ النجدة، وليتلاش الجسدان ، المنبطح فوق المسامير والأوتاد الحادة ، والرمال الساخنة ، ومداخن البترول ، وأشجار الأرز ، والصنوبر والواقف على الرجل الواحـدة ، ذو الأعضاء المتعددة.

المعشوق المنظر.

عله في حاجة أكيدة إلي ، يحيل علي أسلاك الهاتف التي يحملها، أو يقول خاطرة ، عنت له في الليل ، وفي عنت الوحدة ، أو يرسم قبلة الرضا على جبيني.

ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر ، والليل والنهار علاقة نسبية بين توتر الأعصاب ، وبين ارتخائها ، وهناك في القطبين ، ليل لا حصر له ، ونهار لا حصر له ، كما أنه في موسكو ولينين غراد ، ما يسمونه خطأ الليالي البيضاء ، وهي في الحقيقة أيام رمادية أو أنهر زرقاء.

لم يأمر حبيبي بلباس معين ، أو بهيئة خاصة ، استوى الماء والخشبة ، والطالب والمطلوب.

اشتعلت الأنوار وانطفأت. انفتحت الأبواب ، وانغلقت. قطعت المسافة المكانية والزمانية. التحق العاشق بالمعشوق. التأمت الروح بالروح.

بوركينافاصو تتدخل

سلاما ، صاحب الزمان والمكان. سلاما ، عارف الحق. برد العظام يزول بالنسغ. عطش الروح يرويه ريق النحل. وحشة الدم تذيبها ، حرارة العودة إلى النبع.

لم تسطع الشمس بعد. لكن ما الحاجة إليها ، عندما لا يكون هنالك ظلام.

تعرف العين موقع القدم ، وتعرف القدم أنها في غنى عن موقع.

تأخذ الذرة ، حجمها الحقيقي في الكون ، وتضحي المدارات أمواجا ، فما الزمان سوى المسافة بين نقطة ، ونقطة ، بين بداية ونهاية. بين ميلاد وموت ، بين يقظة ونوم. وحين تضحي الأمواج في اليد ، ويكون المسافر في كل البداية والنهاية ، تزول المسافة ، ويتوحد العاشق بالمعشوق.

- كيف يرى العاشق المعشوق؟
- العاشق ليس في حاجة إلا لأن يحس.
- بكم رجل يتصوره؟

- التوازن هو الأساس.
- بكم رأس يجده؟
- الرؤية أهم ميزات الرأس.
- بكم يد يظن أنه يعالجه؟
- الشعور بالاحتواء ، يغني عن إحصاء عدد الأيدي.
- كم ثديا ، يلهث لسانك؟
- أنا أرتوي.
- كم جهاز تناسل تتعامل معه؟
- عندما تزول المسافة ، يزول الزمان. والعاشق والمعشوق ، عضو واحد.
- ما المسافة بين الخليج والمحيط؟
- إدراك الرطوبة.
- التحقي أيتها النفس المطمئنة ، راضية ، مرضية ، بالنفس، وامتزجي أيتها الدماء الظامئـة ببعضـك ، وادفئي ، يا أيتها العظام البردانة بالنسغ. لا زمان بعد الآن.

لم تتم عملية التوحد ، بالسهولة المعتادة ، أو المتوقعة. المعشوق سأل. أول مرة يسأل ، ولقد فعل ذلك فـي ذعر. والعاشق ، تجرأ على الإجابة. أجاب ببلاهة بالغة.

هكذا تراء له.

لعله كابوس الليل ، يأبى الانقطاع. ولعل التصميم على الكتابة ، يخرق الثقة. حتى التوحد ، ليس كاملا. ها هو السمع يلتقط أزيز محركات السيارات ، في خطي الطريق المزدوج ، ويميز بينه وبين أزيز طائرة مروحيـة تروح وتجيء ، وهاهي أصوات الأولاد والبنات ، يحكون أحلام الليل ، وهم في طريقهم ، بالسـطول ، مـن الأكواخ إلى الفيلات ، لملئها بالماء ، البعض يحث على التمهل ، حتى تمر شاحنة القمامة ، فحينها ، تكون على الأقل الخادمات مستيقظات ، البعض يستدرك موضحا ، أن مرور شاحنة القمامة ، لا تعني أبدا أن الرجال ذهبوا إلى الشغل. سكان الفيلات ، لا يبكرون مثل سائر من يعمل. هم لا يعملون وإنما فقط ، يكتبون فـي المكاتـب ، ويعطون الأوامر ، لمن يشتغلون. النساء أرحب صدورا من الرجال. لم يطردننا أبدا.

نور الصباح -على حد الاصطلاح المعهود- يملأ الدنيا ، بل إن البصر لينبهـر ، علـى غيـر العـادة ، بالصحو. الطقس جميل اليوم. لا شك أن المذيعة ، تعلن ، في مذياع أحدهم.

أنا حاضر ، والغياب يستعصي اليوم. المعشوق غاضب ولا شك. لعل الأجوبة لم تكن مقنعة. كانت عفوية ، نابعة من الاقتناع القوي ، بوعي الإحساس ، أكثر من اللزوم ، وهذا أغضبه. أكيد أنه لم يكن يسأل ، فليس مـن عادته أبدا أن يفعل ذلك. لعلها ، مجرد دعابة ، بعض تنازل منه ، أوهمني أنني ند له ، كل سؤال منه ، يقابلـه

جواب مني. كل كلمة ، تقابلها أخرى.

هذه هي الكبرياء بعينها ، ففي حين يعلن الإنسان صغارته المتناهية ، وعظمة المعشوق المسؤول عن الكون وما فيه ، يضخم نفسه ، حتى يقول إنه ، المعشوق ، مهتم بأخباري ، إلى حد جعل مخبرين عليّ، واحـدا عـن اليمين يسجل الحسنات ، وثانيا عن الشمال يسجل السيئات ، وسيكون ملفي الشخصي ، وحده ، محل اهتمامه في اليوم الموعود ، وسأكون ، شخصيا ، مسئولا أمامه.

تواضع كاذب ، وفردانية مفرطة ، الهدف من ورائها ، الهروب من الانضباط ، ومن المسؤولية الجماعية.

لعلها أول خطوة ، نحو التأله. نحو الحلول محل المعشوق. تعظيمه ، ثم استصغاره ، ثم إزاحته عن مكانه ، والاستيلاء على مهامه.

ما أشد غبائي ، فمتى كان العاشق ندا للمعشوق ، وكيف غاب عني ، أن حدوث ذلك ، إيذان بتغير العلاقة. تطغى أنانية العاشق. يحلم به ، بكماله ، فيصير يستقي من ضعفه ، ثغرات في المعشوق. يسبغ مـا فيـه علـى الطرف الآخر.

نعم أقول بالصوت العالي: يضحي هناك طرفان.

يحصل التنكر ، لمسعى التوحد والذوبان الدؤوب. يجد طرف الفرصة ، لينقطع إلى تدوين منعرجات السبيل ، لبلوغ سر المعرفة. يتوفر له الوقت الكافي ، للتقنين والتبويب ، والنصح والإرشاد.

تنقطع أنغام ناي العدوية ، لتتحول إلى سولفاج. يذوب شمع المزمار ، فتتبعثر الأنفاس ، وتسـتيقظ أعـين آرغيس. يكشف أبو حامد الغزالي ، عن فشل عشقه ، فيستجدي الآخرين ، بممارسة العشق أمامه. يتحول إلـى قاصر ، لا مجال له لبلوغ المرمى.

يذوي قطب الأقطاب ، النور الشعشع ، فيأتي المريدون من بعده، بالطبول والدفوف ، والمزاميـر والكـلام الموزون المقفى ، في محاولة يائسة لتجديد التجربة. لتجسيدها ، على الأقل.

لعلها. تجربة العشق. ليست سوى ومضة واحدة ، في العمر كله، تخاف التصادي المـزمن فـي الـروح ، واليقين الأبدي ، في النفس، بضيق المسافة ، بين الوهم والحقيقة ، بين أصابع اليد ، وأصابع الرجل.

يميزهم من هنالك. على امتداد المسافة بين الجسر الحوال ، وبين مدخل الطريق المزدوج. أجساد صغيرة ، ملتصقة بأعالي الأعمدة ، قرب الخيوط المتوازية ، والكؤوس الداكنة الخضرة ، تتشبث بالأيدي والأرجل ، وكلما نزلت إلى الأسفل ، خلفت خطا في السماء، ينزع لونه الوردي ، إلى الحمرة .

بعض أعمدة ، ويصلون إلينا. متى بدأ هؤلاء الناس ، هذه العملية ، ومن أمرهم بها؟

سيارة صفراء ، تربض في الخط. أحدهم يذهب ويجيء ، يتابع العملية. يقودها ، ويعاينها ، على الأغلب.

سيارات الشرطة ، التي كانت قبل قليل ، أكدت سيطرتها على المنطقة ، اختفت. الاختفـاء ، هـو التعبيـر الصحيح ، فقد تكون ما تزال، بشكل من الأشكال ، في المنطقة. عدساتها المقربـة ، مركـزة عليهمـا ، وآلات

التصوير ، تغمز مطاردة لمختلف أبعاد الصورة الواحدة. الهيليكوبتر ، ابتعدت. نعم ابتعدت. فلا أحد يجزم فيقول ، انصرفت.

إذن ، هناك علاقة بين انشطار الطرف الواحد ، إلى طرفين ، وبين تهلهل عرى التوحد ، وتمييز أصـوات المحركات ، والأطفال ، والطائرة ، وأشعة الشمس ، وبين المؤامرة. لتسم هكذا. مؤامرة. فمتى كانت الأعمـدة الهاتفية ، في العالم كله تطلى وتصبغ ، مهما كان اللون؟

الكابوس إذن ، لم يكن سوى رؤيا ، ها هي ما تنفك تتواصل. سأله ما العمل؟ لم يجبه. لم يتاق إجابة. سمح لنفسه بالالتفات إليه ، فوجده مغتما.

نعم هذا ما يريدون.

لقد رفض اللون الذي اختاره رفضا باتا. صاحب الزمان في الزمان ، لا يمكن أن يبدو إلا في لـون النقـاء والنور.

ليوقفوا العملية ، أو ليتفهموا الوضع.

انفصل. استقل بطرفيته ، لم يقل ، حتى بعض كلمات طمأنة. بالعودة إلى المعشوق ، ركبه الغضب ، وغمه الانشغال ، فقصدهم.

السيارة الصفراء هي بؤرتهم ، وهذا الذي لا يفتأ يرفع رأسه إلى فوق ، كأنما يستعجل الإجهـاز ، ينبغـي التفاهم معه.

أبدى في الأول من التجاهل ، ما يثير أعصاب بروميثيوس ، ثم خانته عيناه ، وراح يفصح عن حياديتـه ، في العملية كلها ، مبررا ذلك بالأوامر ، والبرمجة ، وآخر ما توصلت إليه ، دراسات أحوال الهاتف الخشـبية ، في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ، حيث ينعدم التوازن بين حالات الطقس ، في مختلف الفصول ، وفـي الليل والنهار ، مرحلة دفن الأسلاك الهاتفية ، في قنوات ، تحت الأرض ، لم تحن بعد ثم إنها مكلفة ، بالإضافة إلى أن التخطيط النهائي للمدن والطرق ، لا يمكن أن يتم ، قبل ضبط نسبة التزايد الديمغرافي ومتانـة التبـادل التجاري والتعاون بين دول الجنوب ، وإغلاق الأبواب بصفة نهائية ضد الأفكار المستوردة ، إن شئت الحق، في بلد مثل بلدنا ، يتمتع بزيارات وفود أجنبية عديدة ، من أهم ما ينبغي أن يبرز فيه ، أعمدة الهاتف ، فهي في هذا العصر أحد دلائل التقدم الحضاري في العالم. لو لم تكن هناك في أفريقيا وآسيا ، وأمريكـا اللاتينيـة ، مـدن وحواضر وعواصم كاملة ، لا تتمتع بميزة الهاتف الحضارية ، لهان الأمر ، ودفنت الأسلاك ، واسـتغني عـن الأعمدة ، ووظفت مبالغها من العملة الصعبة التي تستنزفها البلدان الشمالية ، بصفة خاصة وفي المزيد من شراء المعدات العسكرية ، تقول الدراسة وهي لعالم أمريكي ، جليل ، أن نسبة تساقط الأعمدة في العالم الثالث ، فـي منتصف هذا القرن ، أقوى وأضخم بكثير من إمكانياتها الحقيقية ، مع أن الرياح والعواصف ، وتراكم الثلـوج ، أقوى بكثير ، في بلدان الشمال. تكفي ريح ، بسرعة جد عالية ، بأوروبا ، لاقتلاع عدة أعمدة مـن قواعـدها ،

وإلى اقتلاع كل تواصل تاريخي ، وعلى رغم التجربة في أندونيسيا ، والتشيلي ومصر وبعـض بلـدان العـالم الثالث ، فإن العملية ستنجح في بلادنا أيضا. إذا أردت رأي الشخصي ، فثق أن العملية خاطئة من الأسـاس ، إذ أن بلادا منتجا للبترول ، والغاز ، والحديد ، ويمتلك صناعات تحويل هذه المواد ، بامكانه الاستغناء كلية ، عـن الأخشاب في العملية ، والمسألة كلها تتوقف على قوالب ، تضبط المقاسات والأحجام ، يومها يصير في الامكان ، وضع اللون أو الألوان حسب الذوق ، وحسب خصوصيتنا في المادة قبل أن تنتصب ، بدل لون الصدأ هـذا ، الذي يقال وهذا سر أبوح به اك ، بما أنك تبدو في منتهى الطيبة والكرم ، وضعه ساحر كبيـر مـن "بوركينـا فاصو" قصد طرد الأرواح الشريرة، التي توشوش من حين لآخر الخطوط الهاتفية.

فاوض كثيرا ، بكل ما يمتلك من مواهب الأداء والتعبير هدد بالتطبيق الفعلي ، لثورة أبي القاسم الشـابي" *ليتني كنت حطابا فأهوي بفأسي*" – ليت هنا ، على ما يبدو جاءت فقط لضرورة الوزن- سأحمل فأسا أو منشارا ، وسأهوي على الجذوع. سأرفع المسألة إلى وزير البريد ، وإلى صاحب الأمر نفسه ، سأستنجد بمعارفي مـن ضباط المخابرات ، وهم كثيرون ، وستندم يوم يجوع أولادك على عدم سماع الكلام. والله العظيم ثلاثا ، سأكتب مقالا ، في صحيفة "لوموند" سأذهب أبعد من ذلك ، وأنشئ جمعية ، ذات طابع سياسي ، لحماية لـون الخشـب الطبيعي ، سترون في السوق مناشير ، تندد وتكشف وزارة البريد والبرق والهاتف ، بيد أن المفاوض ، كان في منتهى طول البال ، وسعة الخاطر ، والعناد ، وكثير التردد على العربة الصفراء ، حيث يقول إن عليه أن يـرد على مكالمات هاتفية.

انحصر الحديث أخيرا ، حول عمود بعينه ، ينتصب على الطرف الأيمن ، للجسر الحوال.

عبر عن استعداد محتمل ، للتهاون في أداء المهمة ، مقابل رشوة تعوض الخسارة ، التي قـد تلحـق بـه وبزملائه ، وبعد حديث مطول في الهاتف ، عاد يقول كلاما غريبا ، وكأنما هو شخص آخر، تماما. ينبغي عدم إزعاج سكان منطقة الطريق المزدوجة ، وخاصة واحد منهم بالذات ، هكذا بصيغة النكرة ورد الواحـد هـذا ، الأمر الذي جعله يعني شخصا معينا ، في المدينة كلها ، له علاقة استثنائية بالموضـوع، هـذه هـي المسـألة وللجزائر علاقة ما شاءت أم أبت ، بالخلافات المركزية في دمشق وبغداد ، وشعاراتها وألوانها ورموزها فقـد كان لكتامة دور مهم في تأسيس مدينة القاهرة ، في العهد الفاطمي ، رغم أن ألوان صاحب الزمان ، فـي فـتح رقادو كانت شاذة، أملتها ظروف الحصار العامة ، النقاوة والنور في اللون الأبيض ، عكس الـون الرمـادي ، الذي يعلن عن حيادية سلبية تجاه الألوان ، وعن قابيلية تلاؤم لا تخلو من انتهازية ، الأبيض يقف بثقـة نفـس واعتداد بين الألوان ، لا ليؤكد الأصالة فحسب ، وإنما التفتح الواعي ، عل جميع الألـوان الأخـرى ، ثـم أن كريات الدم ، في المفهوم العلمي المجهري ، لا تعطي اللون الأحمر فقط ، إنها فصيلتان ، قائمتا الذات ، تتكامل بنسب ثابتة ، يختل توازن الحياة باختلالها ، من يستطيع أن ينكر أن البياض أحد لوني الدم الرئيسـين ، وهـو بالتالي يجب أن يكون لون الثورة.

لقد قالو كلاما كثيرا ، هذا ما وسعني حفظه منه ، ونظرا لطيبتك ولكرمك ، لم أبخل عنك بالشيء الأساسي منه ، لكن أسمح لي قليلا ، فقد حلت الساعة العاشرة.

- العاشرة. استراحة.

نزل جميع المتشبثين في السماء. إلى الأرض ، سارعوا إلى جرابهم ، استخرجوا زادهم ، من أكل ، وماء وقهوة وراحوا يزدردون في تكاسل ، والتذاذ.

العاشرة ، عندهم ، تعني ولا شك ، اللون الأبيض ، حيث يجدون أنفسهم ، في استقلالية كاملة ، عن الغير ، وفي انفصام العلاقة بينهم وبين الامتثال للأوامر، وإنجاز المهام والمخططات المضاوطة سلفا ، يرتدون إلى ذواتهم ، يطعمونها يسقونها ، يتحايلون في بعث الجهد لها ، وخلق الشعور بها، كما يرتدون إلى ع والمهم الخاصة ، بين مضغة وأخرى: أم البنين ، تصر المسكينة ، على النهوض باكرا ، لتشحن الجراب بكل عطفها وولائها ، الأطفال لم يبق لهم مليم واحد ، يصرفونه نهار اليوم. مسعود مزق حذاءه ، ولا بد من تدبير آخر يدخل به المدرسة. لو لم تكن هناك أعياد وأعراس، لكان بإمكان الميزانية أن تستقيم ، ننفق في مناسبة عابرة ما ننفقه بعشرة أشهر كاملة. لو أن ما ينفقونه في تعليق الشعارات الثورية ملونة ، مزدانة بالأنوار ، تفنن الإيطاليون ، أو الفرنسيون فيها ، يوزعونه علينا في كل موسم لاقتنعنا بفائدة الثورة الاشتراكية ، تكفي أضحية عيد تفرح وتشبع الأولاد ، أو ثلاجة تحفظ المواد ، وتسقينا ماء باردا ، لإقناعنا. وزارتنا هي الوزارة الوحيدة ، بعد وزارة المالية ، أو الضرائب على الأصح ، التي لا تنفق فيها شعارات الثورة ، الوحش يكشف عن أنيابه ، مهددا كل من يحاول الاقتراب من مليم ، *الزيت من الزيتونة والحوت من البحر*" ورقة أو ختم ، تسمى الطابع ، رسم على كلام اثنين ، في أسلاك موروثة من عهد دقيانوس. هات. هات. هات. ولا هاك أبدا ، حتى لهؤلاء المتفانين في صقل أنيابه وشحذها.

- اتكلوا على الله يا رجال ، دعونا ننه هذه الشغلة فاربما نتمكن من الدخول قبل الوقت.

يلمون الفتات ، بعناية ، يجمعون شمل الأجربة ، يبالغون في التزود بجرعات الماء ، ينظر كل واحد ، على حدة إلى سلعته ، يسترقون النظر إلى بعضهم. يشعلون سغائر جديدة ، تلتف نملات لا أحد يدري أين كانت تختبئ ، بفتات الخبز ، ونويات الزيتون. يستحثهم رئيسهم ، بالنظر المتكرر إلى ساعة يده. يقررون فجأة ، وبحماسة غير متوقعة ، الالتحاق بعملهم.

لم يبدو اعتراضا كبيرا ، على استثناء عمود واحد ، أو حتى عدة أعمدة ، من العملية. قال. أصيب المكلف به بتقلص عضلي ، حينها ، أو بدوار ، فنزل ، ثم نسيناه ، والسلام ، أو علق العمال أغراضهم فيه ، على نية أن يتركوه الآخر ، ففاتتنا الوقت ، وليس من المعقول ، إضاعة يوم فرقة كاملة ، بالتنقل ، نحو عمود هاتف غير مصبوغ. ثم لو أن هناك رقابة ما ، على إنجاز الأشغال ، أو كيفيات الإنجاز ، أو على الحالة ، بصفة عامة ، لكانت الأمور ، على أحسن ما يرام. وبيني وبينك ، العملية ، برمتها. لا تخلو من إن، وربما وحيثما. النقابة

كشفت عن تورط صهر الوزير ، في إنتاج كمية كبيرة ، من صبغ ، فاسد التركيب ، هو هذا. اشترت الوزارة ، منه ، بناء على دراسة مزعومة ، لأمريكي مزعوم ، الكمية كلها. مئات الأطنـان ، يظهـر بعضـها ، هنـا ، وبعضها هنالك ، ويلقي بالباقي في بحر الظلمات. "*من لحيته ، افتل له شكال*".

لم يبدوا اعتراضا كبيرا ، في الحقيقة ، إنما استغرابهم للطلب ، أو على الأصح ، عدم اقتناعهم بشـرعيته ، وبضرورته ، أثار جدلا كبيرا بينهم ، وكاد يفسد الاتفاق الذي حصل بيني وبينك.

صحيح أن مصائب قوم عند قوم فوائد ، وان هناك من ينفق في السنة على سرواله ، كـي يظـل محتفظـا بمظهر الجدة ، ما يكفي لشراء عدة سراويل ، وان أحدهم ، يترك أطفاله جياعا ، عراة ، ينتزع منهم لقمة العيش ، كما نقول ، ليشتري تذكرة ذهاب وعودة إلى باريس ، لا لشيء ، سوى أن يتفرج علـى الواجهـات المنيـرة المزدهرة. لكن أن يضحي بمبلغ ، ضخم ، مقابل ، أن لا يصبغ عمود هاتفي ما باللون الضارب للحمرة ، أو أن يصبغ بالأبيض ، مع التعهد بشراء الصباغ واللوازم ، فهذا أمر لا يدخل، حقا، بسهولة في الرأس.

تعهدت في الأخير ، جميع الأطراف ، بتطبيق واحترام نص الاتفاق. يدفع الطرف الأول ، مبلغ سبعة آلاف دينار ، نقدا ، ويحضر عشرين كيلوغراما من الطلاء الأبيض ، مع فرشاة غير مستعملة ، وغير ملوثة بأي لون آخر. على أن يتم كل ذلك ، قبل الساعة الرابعة من نهار اليوم.

يلتزم الطرف الثاني ، بطلي عمود الهاتف القائم عند الجسر الحوال ، على الجانب الأيمن ، والذي يحمل في سجلات وزارة البريد والبرق والهاتف ، رقم مائة وواحد.

إن كان صاحبك مجنونا ، فكن أنت عاقلا. الصاحب مجنون ما في ذلك ريب. اسمعه ، واظهر تفهمه. داره ما استطعت. وإذا ما استفاق يوما ، فاعرف كيف تجعله يتحمل مسؤولية ما حدث. فلو لا الجنون، أكان الهـاتف يحل في بيوت لا تضم إلا العواتق والمطلقات ، أو في جحور لا يسكنها غير العجائز ، قطعن سن اليـأس عـدة مرات.

حقا ، لولا الجنون ، لما أكل أحد لقمته في هذه الدنيا ، أو بالأصح لما طابت لقمة في فم أحد بهذا البلد.

أنجز الطرف الأول ، كل ما تعهد به ، حرفيا ، وفي الوقت المضبوط ، بل ، وقبله ، بساعة ونصف ساعة ، مع إبداء السرور والرضا التام.

أبدى الطرف الثاني استعداده التام لتنفيذ بنود الاتفاق ، شرط تغيير طفيف فيه ، فبدل أن يطلى العمود باللون الأبيض ، يتركه على لونه الطبيعي ، فقد اتضح بعد تفكير وروية ، أن عملية الترك ، يمكـن أن تنسـب إلـى النسيان أو التهاون ، فتكون العقوبة خفيفة ، وربما تنزل بشخص واحد ، أما أن يصبغ بغير اللون الذي اشـترته الوزارة ، ففي ذلك ما يمكن أن يؤدي بنا كلنا إلى غياهب السجن. إنه تمرد صـارخ ، وتحـد لمؤسسـة مـن مؤسسات الثورة.

تردد الطرف الأول ، قليلا ، لكن ما لبث أن رضخ ، وتنازل حتى عن كمية الطلاء التي أحضرها ، ومـا

معها من أدوات. استعملوها في بيوتكم. قال.

التفاوض كان عسيرا ، لكن الاتفاق وتنفيذه ، كان هينا ومريحا ، هكذا شأن كل الاتفاقيـات والمفاوضـات المهمة ، التي تغير مجرى التاريخ.

ركبوا السيارة الصفراء. ودّعوه بتلويحات الأيدي الحارة ، وبالبسمات العريضة الرضية ، ولقد بلغ الحماس ببعضهم ، أن قال إن تنفيذ الاتفاق ، مسألة شرف ، بالنسبة إليه وزملائه ، فالعمال لا يخونون العهود أبدا. بلـغ التودد ببعضهم أن طلب منه عنوان منزله ، وعمله ، لأن لديه قضايا ، معقدة ، يحتاج حلها ، إلى أكتاف قوية ، وركائز متينة.

-ألا يهمك عمود آخر ، هنا أو في موضع آخر؟ نساعدك هذه المرة.

عاد مرتاح الضمير ، بعد أن بادله نظرة شوق وحنين ، وبعض الامتنان: الحب هو الذي ينتصر في نهايـة الأمر.

وجد فجرية ، ما تزال تتعاطف مع الغرف ، وأثاثها ، وثيابه هو. عانقته بحرارة. أبدت أشواقها. سألها عن صحتها ، وصحة أمها. انكبت مشمرة الساقين ، مسدلة الشعر الفاحم ، تواصل الشغل:

- سأتفرغ بعد قليل.

لعن في قلبه المبلغ الزهيد الذي تأخذه منه ، كل رأس شهر ، مقابل إشعارها ، كل مرة ، بأنها آخر ما تبقى له ، ومقابل حسد الجارات العوانس لها.

دائرة الطباشير الجزائرية

فلتكن الليلة. من أطول الليالي ، تبدأ من العصر بدل المغرب. فجرية تعرف أنه لا أمل في إخراجـه مـن الحالة ، كما تسميها ، إذا ما دخل أحدى الغرف ، غير غرفة النوم أو الأكل وأغلق الباب خلفه.

حاولت ذلك منذ أربع سنوات ، فلم تفلح ، فهمت أن كل ما في هذا البيت الطقوسي ، وكل من يدخله يصاب بمسة ، لا نعت لها سوى أنها مسة الطقوسية ، تتغير نبرات صوته ، وتهدأ حركات بصره ويشعر بأنـه لـيس وحده ، وأن عشرات العيون تراقب حركاته، وسكناته ، كذلك كل ما يجري في هذا البيت لـه طابعـه الخـاص

الطقوسي أيضا ، يقول إنه لا يحبني ، يزعم ذلك. أنا واثقة ، لكنه ما يفتأ يردد أنك يافجرية حبيبتي ، آخـر مـا تبقى لي. الجزيرة التي ألجأ إليها في ليلي العاصف.

يأكلان في صحن واحد ، ينامان في فراش واحد ، يغتسلان معا في حمام واحد ، تـزوره متـى شـاءت ، يزورها متى شاء ، حدد لها مهية بخمسمائة دينار ، لكنه يعطيها ماهيته كلها ، لتدبر شؤون المنزل ، والمنـزل بالنسبة إليه ، يشمل منزلها هي أيضا ، بالأم المريضة ، وأدويتها وكهربائه ومائه ولباسـهم وبـالأخ الصـغير وتكاليف دراسته.

شاع في الأول بالحي أنه خطيب ، واستغربت العذارى بصفة خاصة ، أن يختار هـذا الفنـان العبقـري ، فجرية بالذات ، رغم سواد لونها الفاحم ، ثم شاع أنه قريب ، واقتنع الحي في الأخير بأنه مهما كانـت صـيغة العلاقة ، فإنها ضرورية ولا غنى عنها بالنسبة للجميع ، ثم إنها في أول وآخر الأمر، سترة لشرف الحـي وإلا كان الرجال الأغراب ، يترددون على المنزل ، وربما أغوت هي وأمها بعض بنات ونسـاء الحـي ، ودخلـت السوسة اللعينة باقي المنازل ، إنهم فجرية وأمها وأخاها ، وما من دابة إلا ورزقها على الله ، رزقوا بهذا المغفل الذي ربما انتهى أمره إلى أن تتزوجه فجرية ، تنتفخ بطنها ، تتستر بالألبسة العريضة الفضفاضة ، مـدة، ثـم ترفض الاستسلام ، فتركبه، وقد يهرب عنها، يتركها ويغادر البلد مثلما فعل أبوها ، عندما فوجئ بابنته ، سوداء فاحم ، على رغم من أنه لا أحد في الأسرة يميل مجرد الميلان إلى السمرة ، ابتلهت الزوجة متضرعة بأن الأمر لا يخلو إما من غش في المستشفى ، سرقوا مولودها ليعطوه لابنة ضابط أو غني ، وإما من اعتداء جن أسـود من"الفلاشا" عليها، وهي نائمة ، ثم من يدري ، فلعل أحد أجداده أو أجدادها ، من هنالك والعرق دساس.

بصق عليهما معا فجرية في القماط وأمها في سرير المستشفى وارتمى في أحضان الغربة:

- مهما كان العرق دساس ، فإن هذه البنت ، لن تكون إلا ابنة سينيغالي.

لكن اللعنة ، طاردته إلى بلجيكا ، حيث أنجبت له البرتغالية ، الولد الخامس ، أشد سوادا من فجرية ، ومـن إي أفريقي آخر.

تركتهم له ، جميعا ، وهربت ، قائلة:

- أنت مسحور. في ظاهرك بشر ، وفي حقيقتك. دب أسود.

عندما أغلق باب "*بيت الحكمة*" خلفه ، لم يقل لها ، أبقي يافجرية فإنني في حاجة إليك ، كما لم يقـل لهـا ، يمكن أن تنصرفي يا فجرية، فلدي كتاب يتوجب أن أسهر معه الليلة. هذه عادته ، وبامكانها أن تبقى ، تسـتحم، تغير ثيابها ، تتزين، تطبخ شايا أو قهوة ، أو تستلقي في السرير ، بعد أن تفتح المذياع ، بصـوت خافـت ، أو تواصل قراءة كتاب ، فتحته البارحة ، أو قبل ذلك ، كما بامكانها أن تتفقد أمها وأخاها ، وتعود. البيـت بيتهـا. وسيكتفي عندما يشعل الضوء ويطفئه ، بسرعة مفاجئًا بها بأن يهمس ، "أميمة أنت هنا!" أو " هل أنت نائمة ، يـا عزيزتي؟" أو "آمل أن لا أكون أزعجت بنيتي المرهفة ، بشؤون أبيها الكثيرة ، لم تقولي إنك سـتبقين ، حسـنا

فعلت ببقائك يا عزيزتي".

يدخل تحت الغطاء ، بعد أن يطبع قبلة رشيقة ، على الجبين ويتحايل على الوصول إلى الصـدر ، فيسـند ظهره إلى الثديين الدافئين، بعد أن يسحب الذراع إلى رأسه ، ويضع الكف الساخنة على أذنه الباردة.

- أذناك دائما باردتان.

تهمس ثم تحضنه ، بود وحنان.

أول مرة ، تسمعه يتحدث ، بالصوت العالي ، في بيت الحكمة. من عادته أن يفعل ذلك في غرفتها ، أولغا ، وكذا في غرفتنا ، قاعة السهرات ، التي أصبح يسميها غرفة التخاذل.

أكتب فيما بعد ، الليلة القادمة ، لكن علي أن أوصل التسجيلات التي بدأتها. نعم.

دوري يا حبيبتي دوري.

ما دمت أفكر ، فلأحتفظ ، بتفكيري. ليخرج *"من حد القوة إلى حد الفعل " فالصور ليس قرنا" طولـه مـن مشرق الأرض إلى مغربها، فيه ثقوب بعدد أنفاس الخلائق أجمعين ، إنما هو ما يتصور في نفوس أهل الحقائق.*

أنت جاهزة ، وأنا جاهز ، المكتب مفروز ، كما ينبغي سلمت يداك يافجرية.

توقفت البارحة ، عند قرار الطرد ، وآثاره المباشرة في التخاذل، حسن ذلك كله ، فلعله أصـل الأصـل ، العمود الفقري للمسرحية التي سأكتبها ، هو ما تلاه في الحقيقة.

سأبدأ منه ، ثم أعود الى الأحداث الأخرى ، بعد ذلك ، لن يبقى سوى دراسة الديكور ، والمناظر ، وتسليط الضوء ، على بروميثيوس ، وتتبع الحوار.

نعم لم يكن مفاجئا. سبقته ترتيبات شيطانية ، ترتكز كلها على دائرة الطباشير القوقازية ، فبعـد العـرض الافتتاحي مباشرة ، تقدم مندوب الوزير.

نهض من الصف الأول ، وسحبني من كتفي ، لم يصافح لاحظت ذلك. كان الموقف في منتهى السـخف ، وانعدام الذوق ، معاكسا للعواطف التي ألهبناها ، كأنما يحاول بذلك ، أن يحولها الى جمرة تلقى في الماء.

" سعادة الوزير ، لم يستطع تدشين الافتتاح ، كما هي العادة. مزاجه متوعك بعض الشيء ، ثم لمـاذا أنـتم سلبيون الى هذا الحد ، تجاه الأصالة والوطنية؟ إنهم يستغبوننا بوقاحة، قال معاليه ، كان بإمكانكم تقـديم قـيس وليلى ، أو أهل الكهف أو السيد لكورناي ، التفتح على العالم ، لا يأتي إلا بعد رسوخ الروح الوطنية ، الأممية ، لعبة صهيونية ، معاليه شديد الحساسية تجاهها ، المؤلف ألماني ، والعنوان روسي ، ماذا تريدوننا أن نقول أمام هذا التهور؟ ثم إن بريخت هذا، له ملف أسود في الولايات المتحدة الأمريكية ، ونحن بقطع النظر ، عن سياستنا وأديولوجيتنا ، لا نريد أن ندخل في صراع مكشوف معها "

في الليلة القادمة ، وأثناء الانشغال بالعرض ، وزعت مناشير ، تدين الحكم ، وتستنهض الطبقـة العاملـة ، للاستيلاء على السلطة. بقدرة قادر ، كان هناك من الشرطة ، ما يكفي لجمع كل المناشير ، قبل أن يقرأها أحد.

تحولت أنظار الجمهور الى الخلف ، اضطرب الممثلون حاولت عبثاً ، السيطرة على الوضع ، حتى مهندس الضوء. صالح العتيد. الذي لا يسهى ولا يغفل. جفل باله ، وترك الضوء الأحمر يتساقط شلالا على الخشـبة ، ويغمر وجهي ، شرع البعض ، خاصة محتلو الصفوف الأمامية ، في مغادرة المقاعد ، بصفة مثيرة احتجاجيـة بل استفزازية واضحة ، فكرت أن العملية محض صدفة ، وإن كانت صدفة غير سارة. لم أطلع علـى فحـوى المنشور ، لأتأكد من المخاطر التي ستواجهنا.

أنقذنا الحالة ، بكل صفة. اختفى رجال الشرطة. بسرعة خارقة، وكأنما أنهوا مهمتهم التاريخية. هدأ صـليل وضجيج المقاعد ، وصراخ المحتجين. تراقصت الألوان في الضوء. تكاملت الدائرة الطباشيرية ، وفشـلت الأم فاقدة الأمومة ، أمام حب الخادم للطفل.

في الليلة الثالثة ، أدركت أن هناك مسرحية ثانية ، على هامش مسرحيتنا ، تمثل في نفس القاعة ، عنوانهـا دائرة الطباشير الجزائرية.

عند نفس المشهد ، امتلأت القاعة ، بنشيد الأممية. كان عددهم ، ستة أو سبعة ، مـوزعين بإحكـام علـى القاعة. هتفوا في وقت واحد بالنشيد ، وكأنما استجابة لأمر أو إشارة. تأملتهم. تمكنت من ذلك ، رغم كل شيء. كانوا فاتري الحماس ، أحدهم راح يقرأ من ورقة يخفيها في يده. أكثر من ذلك ، لم يكونوا يؤدون النشـيد فـي لحنه الحقيقي ، الذي ينبع من أعماق قلب الشيوعي الحقيقي بالسليقة. مجيد، ما الذي أخرجك إلى الحلبة ، وجعلك تهتف: هبوا. هبوا. أنت ممثل ، ولا أحد يشك في جودة أدائك ، لكن ، في أية مسرحية ، كنت لحظتها تمثل؟ أو بالأحرى ، في أية دائرة كنت؟ القوقازية ، أم الجزائرية؟

عليوات ، رفيق الدرب ، كان في مستوى اللحظة التاريخية ، فقد همس ، متقززا ، ما إن انسدل الستار:

- انتهى عصر النهضة ياراييس. الجسد يرفض القلب المزروع، وما على "أصدق" سوى الانسحاب.

استخلصت بدوري ذلك ، في أعقاب "أوديسية" النهار التالي. استدعاء ، من مديرية الأمن الوطني ، لجلسـة أخوية ، دامت من التاسعة ، حتى الواحدة. حديث عام حول الوضع السياسي في العالم ، عن حـرب الفيتنـام ، خاصة ، ثم عن باتريس لومومبا ، ومساهمة بعض الدول العربية في عملية اغتياله. جولة غير مباشـرة ، عـن الوضع في البلد ، وتأكيد صريح من المدير نفسه ، بقناعته الشخصية المطلقة ، في أن الاشتراكية واحدة ، وأنـه كما قال سيادة الرئيس ، لا يمكن اكتشاف البارود مرتين، غير أننا ، مسلمون ، ثم ، وهم ، عموما ، إمبريـاليون أيضاً ، وليس من صالح المنطقة ، أن تكون محل صراع القوى العظمى ، أو بؤرة حرب باردة. نحن لسنا ضـد الشيوعيين ، لكن شيوعيينا ، غفل ، بلداء ، وعملاء ، واستفزازيون. شيوعيو اليابان ، أفضل الشـيوعيين فـي العالم. لا يدعون أبداً إلى إضراب ، بل إن إضرابهم ، يتم بمضاعفة الإنتاج.

بعد فنجان القهوة ، والدرس الاستطلاعي ، أحلنا ، بكل أخوة ، على قسم الشؤون السياسية. مـلء متمهـل لاستمارة شكلية ، كما قيل. في أي حزب كنت قبل الثورة؟ هل سجنت في تلك الفترة؟ *العربي البوهالي ، عمـار*

أوزقان ، البشير حاج علي ، هل ارتبطت بأحدهم في فترة ما؟ نقابة السي جي تي ، هل انخرطت فيها؟ هل لـك أصدقاء من الحزب الشيوعي الفرنسي؟ بعد اندلاع الثورة ، ماهو نشاطك السياسي كله؟ هـل أنـت سـجين أم معطوب أم جندي أم عضو بالمنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني؟ هل انقطعت ، وإن كان نعم ، مـا سـبب ذلك؟ هل التحقت بالاتحاد العام للعمال الجزائريين؟ وباتحاد الطلبة؟ باتحاد النساء؟ باتحاد التجار؟ من 5 جويليـة 1962 حتى اليوم، ماهي المهام التي قمت بها؟ ماهي المسؤوليات التي أسندت إليك؟ هل سجنت؟ ما سبب ذلـك؟ أذكر مصادر مداخيلك؟ هل لك أملاك؟ كيف اكتسبتها (إرث ، شراء)؟ ماهي جنسية زوجتك؟ ماذا تشتغل؟ هـل هناك نشاط أو سجل تجاري باسمها؟ كم عدد الزوجات والأبناء (أذكر الأسماء والأعمار والمهن بالتفصيل)؟ هل انقطعت عن نشاطك الثوري سنة1965؟ هل أرسلت برقية تأييد للقيادة الثورية في إحدى المناسبات؟

تأمل الضابط الاستمارة ، بعناية ودقة ، ثم حمل قلما ، وراح يسأل شفوياً: طبعا زرت الاتحاد السـوفياتي؟ كم مرة؟ هل تشرب؟ هل تؤكد أن مؤسستكم ، لا صلة لها بأحداث اليومين الأخيرين؟

جلسة المساء ، كانت في الوزارة. معاليه لم يأت بعد. أكد أنه سيأتي ، لكن لم يأتي بعد. لابـد أن يحضـر. الكاتبة ، ومدير التشريفات، ورئيس الديوان ، والفراش ، واثقون من أنه سيأتي.

حولت بلباقة ، من مكاتب مديرية الثقافة ، إلى قاعة الانتظار الصغيرة. النظرات المصوبة نحوي ، جديدة. هكذا تهيأ لي ، ولا بد أنها كذلك ، اعتذارية ، إلى حد صارخ. نعم. اعتذارية ، العبارة في محلها. تحاول كلها أن تؤكد أن العين بصيرة ، واليد قصيرة ، وأن كل مصيبة ، إما بإذن الله وإما بما كسبت أيديكم ، وهم ، لا ذنب أو دخل لهم فيها. حقا أنت بطل ، لكن ، يا حسرتاه ، البطولة في هذا الزمن ، لا أحد يقدرها. كيف تريد أن يقـدر الجبناء ، أو الأنذال ، البطولة؟

التحق زائر بالقاعة ، سلم وقال إنه من كبار المعجبين بعبقريتي. أعاد قراءة كناشه ، وترتيب محفظة جيبه. أشعل سيغارة ، عرض علي واحدة ، وانهمك ، في البحث عن الصيغ المناسبة. سيادة الوزير، شعبي ، ونزيـه، وملتزم ، وسليل عائلة العلم والنضال. شاهدت دائرة الطباشير ، ليلتين متتاليتين. كيف كانت الأسماء في الـنص الأصلي؟ أحقا كانت جزائرية؟ إن "أصدق" لا بد وأن يكون جزائريا. مع الأسف ، عكر المشـاغبون ، الجـو ، بعض الشيء ، لكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تفويت المسرحية علينا ، نحن المحبين الحقيقيين ، للمسرح والفن. كان بالإمكان إصدار بيان في الصحافة الوطنية ، يدين الشغب ، ويتبرأ منه ، ويجدد الالتزام للقيادة الثورية، اتقـاء لكل الشبهات ، هل لك موعد مع معاليه؟ *"الرأس اللي ما تقطعوا بوسو خير"* قال الأجداد ذلك. السلام عليكم. يبدو أنه سيتأخر، لن أنتظر أكثر. ربما عدت غدا.

يبدو أنه جاء. معاليه. عينا فراش الجناح ، أكدتا ذلك. كانتا ، تعتذران ، تتحدثان عـن البطولـة ، وغـدر الزمان ، وساعة الخلاص الموعودة ، ومرارة الخبزة ، وثقل الرأس من جراء الانحناء ، وتشـتت الثـوريين ، أولئك الذين ، عرفوا وحدهم علقم الكفاح من اجل الاستقلال الوطني ، وها هم اليوم فراشون في جميع الإدارات

، ينحنون للخونة ، ولأبناء الخونة والعملاء. ركبهم حمار الليل ، كلهم، فصاروا يضربون في الظلمـة. إنمـا لا حال يدوم ، والحي يروح.

انقضى المساء ، ومساء المساء ، قررت قبل ذلك بكثير ، الانصراف لكن الفضول شدني. قلت اتبع الكذاب حتى الباب. الإهانة حاصلة لا محالة ، لكن بقليل من الحكمة الفيتنامية ، يمكن للنفس أن تسجل انتصارا. غير أن انفتاح باب القاعة ، وإطلالة رأس مدير الديوان ، متسائلا بتعجب كبير ، أما زلت تأمل في الاستقبال ، وتتعـب نفسك بالانتظار. ثم اختفاؤه المفاجئ ، قبل أن أقول له إنني مدعو ، ولست زائرا ، يطلب استقبالا ، وضع حـدا لكل شيء ، ولكل حكمة.

نزلت إلى المديرية ، فلم يسمح لي بالدخول على المدير بمكتبه ، أول مرة ، يحصل ذلك معي. قيل لي ، إنه على اتصال هاتفي ، بسعادة الوزير.

- هل انتظره؟

- التعليمات التي لدينا ، أنه ليس هنا هذا المساء. لقد علم بوجودك ، لكن ، قال ، أنا غير موجود هنا.

لم أنزل إلى المسرح ، كنت مجهدا ، مثقل الروح بالاغتياظ مثقل الرأس بالنوم ، محتارا في تقدير السـلوك الصحيح ، تجاه الموقف المستجد.. أكملوا دائرة طباشيرهم ، ومع ذلك ، يقترحون أن أرسل برقية تذلل ، وتنكر ، وبراءة ، لا لن أفعلها. وإن فعلت شيئا ، فسيكون كشفهم ، سأقول للعالم أجمع ، إن دائرة الطباشير الجزائرية، من تأليف الوزير والأجهزة ، لقد صبغوا غرابا باللون الأحمر ، وأطلقوه في المسرح الوطني ، عليهم اللعنـة ، أكون استرحت ، إن أقالوني أو طردوني ، سأتفرغ بعدها ، للإبداع. متخلصا من كل مسؤولية إدارية.. لا. لـن تبلغ بهم الوقاحة ، هذا الحد. بل ، إنهم صبروا أكثر مما يجب ، لقد صفوا كـل الجيـوب ، أغلقـوا الصـحف اليسارية ، حلوا النقابات، حتى حزبهم المزعوم صفوه من كل العناصر الوطنية وملأوه بالعسكر.

كان علي أن أفهم قبل اليوم ، أن ريق النحل ، لا يمكن أن يوجد في أعشاش الزنابير.

كانوا كلهم في المنزل ، أدخلتهم فجرية إلى قاعتهم ، وأعدت لهم ثلجا وكوامخ ، وأطلقت شعرها الأشـعث الفاحم ، وأفسحت المجال ، لثوب الغرفة الأصفر الشفاف، كي يساقط على كتفيها ، كاشفا عن نحرها ، وجـزء من صدرها ، ولبسمة صارمة ، كي تتراقص على ثغرها الممتلئ ، وعلى عينيها الواسعتين اللتين يتبارى فيهـا البياض والسواد.

بادرتها طابعا قبلة على جبينها ، ذلكم الموضع الذي يحلو لي دائما أن اعرف كمية الرضا والاطمئنان التي يحويها ، سحبتني إليها ولثمت خدي بأخوة تنم عن حسرة وتضامن، فخيل إلي أنها همست في روحـي ، أنـت أقوى من هذا التفاهات.

لا. لم يكونوا كلهم ، ليلتها ، هنا. مجيد لم يكن بينهم ، ولقد شعر الجميع بغيابه ، وبخلو أريكتـه ، شـعروا بالحرج ، وكأنما يخشى كل واحد منهم أن يضطر إلى التصريح بعدم براءته.

- لم نراه ، عندما تجمعنا ، واتفقنا على المجيء.

- افتقدناه.

- لا. لم يظهر كامل النهار.

- إشاعة أن يكون لبى دعوة الوزير ، مبالغ فيها برأيي. كاذبة من الأساس. أستطيع الجزم بأنها مغرضة ، الصحيح أن يكون لبى دعوة الأمن.

-لقد هرب به الحصان البارحة ، فراح يهتف مع الجمهور ، هبوا. هبوا عبيد الأرض.

- ربما احتفظ به ، هنالك عندهم.

- المسألة لم تبلغ هذا الحد ، سيجيء حالما يرى المسرح مغلقا.

انفجرت:

- ماذا المسرح مغلق. تقولون؟

كان هذا هو أسلوبهم ، لإعلامي بما حل.. المسرح مغلق ، والشبابيك مغلقة ، حتى الإعلانات ، أزيحت ، أو غطيت ، بشعارات ثورية.

اقتحم في الظهيرة ، رجال الحماية المدنية ، المسرح ، وسألوا عن منافذ الإسعاف والخروج الاضـطراري. قلنا لهم إن الفرنسيين ، رضي الله عنهم ، هم الذين هندسوا وبنوا ، وقدروا عدد المنافذ ، إلا أنهم أصروا ، على أن الفرنسيين كانوا خاطئين ، في كل ما فعلوه أو أنجزوه ، بالجزائر.

أغلقوه في الأخير ، أخرجونا ، وشمعوا جميع الأبواب وعلقوا القرار البلادي: يغلق بسبب عدم توفر وسـائل الحماية والإنقاذ ، وهاهو استدعاء لك لنهار الغد.

"كيف تجي تجيبها شعرة ، وكيف تروح ، تقطع السلاسل" تمتم عليوات ، وهو يفرغ سؤرة كأسه في جوفه ، لو فعلنا ما فعل الجميع يا رايس ، طي الصفحة والبدء من جديد ، لكنا أسعد حالا ، أنت وزير ، أو سـفير ، أو على الأقل وال ، وأنا عقيد ، أو رائد أو على الأقل صاحب مطعم وخمارة ، لكننا شددنا إلى الشهداء. أتظن أنهم أغبياء إلى هذا الحد؟ إذا كان الجمهور الحاضر ، فهم ، فتجاوب بحماس ، كيف لا يفهمـون ، وهـم خريجـو السوربون ، والمعاهد الفرنسية ، إننا نضم صوتنا إلى دعاة التطهير ، من الخونة وأعداء الثورة والعروبة.

لقد رحنا ، *ننقي الدود من دبر القرد* ، يارايس.

كان يتحدث ويشرب في نفس الوقت ، كان الاغتياظ يتراقص على وجهه كأنه الموت.

ماذا قلت لك في الصباح؟ يراعون ظروفك أنت ، ينصبونك في واجهة ما ، وتتهدم أسسنا نحن ، يزرعـون الملح في قرطاج ، يارايس ، ننكمش في القصبة ، نسكر ونحشش ونموت ، وننسى أنفسنا قبل أن ينسانا النـاس. *"لا حفرنا عليك يا جربوع ، ولا نتقت"*.

- قررت قبلهم ، إيقاف العرض في العاصمة. لو لم أجدك هنا ، لاتصلت بكم هاتفيا ، ننتقل إلى المسـارح

الجهوية ، عنابة. قسنطينة. وهران. بلعباس. نخرج إلى الخارج أيضا تونس ، دمشق ، القاهرة. بغداد إلى أن يتم الفتح. من دخل الكعبة فهو آمن. من دخل..

- أتمم لماذا سكت يارايس؟ من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن أيضا.

لم أتمم مع ذلك. فهموا جميعا ، أنني عنيت بسكوتي ، أن الكعبة ودار أبي سفيان شيء واحد ، وأنه هنـا لا توجد سوى دار أبي سفيان، رحت أغير الموضوع.

- مجيد لم يحضر ، ينبغي أن نفعل شيئا من أجله.

- ربما هو في الزنزانة الآن.

- قد يتلفن. أو يحضر بين لحظة وأخرى.

- سلمنا فيه.

- فكروا في أنفسكم ، لقد تلفن لي في الصباح ، وقال إن لديه أشغالا مهمة اليوم ، وإنه لن يمثل مرة أخرى في دائرة الطباشير القوقازية.

قالت وداد ، وقد ضاقت ذرعا ، بسذاجتنا.

- ماذا تقولين؟

- ينبغي أن يعرف الرايس الحقيقة ، مجيد خائن ، وأنتم كلكم تعرفون هذه الحقيقة.

- فهمت شيئا من ذلك يا وداد ، عندما راح البارحة يهتف بدون موجب ، وبحماس كبير: هبوا هبوا معذبي الأرض ، مع ذلك ينبغي أن نسأل. تلفنوا ، وأسالوا عنه.

لست أدري ، كيف استعدت هدوئي ، كنت ، ربما ، أحاول أن أخفف عنهم ، خاصة ، عليوات الذي يكـاد يحطم كأسه بأسنانه، هذا التوتر الذي عجز الويسكي ، عن تخفيفه.

- إن لم يكن في بيته ، يكن ، عند ضابط البحرية ، أو أمين وزارة الصناعة والطاقة ، أو صاحب الضـبط والربط ، على مستوى العاصمة...

- كفى. كفى. نعرف جميعا أصدقاءه.

- قال صالح ، ثم راح يغير الموضوع كلية:

- ياريس. هل يمكن. أن نفكر في الانفصال عنهم ، هكذا مثلما نحن الآن ، حتى مجيد ، نعمة ربـك ، إن أراد ، ننشئ جمعية مسرحية ، لنا وحدنا ، نتدرب في هذا المنزل ، ونكتري قاعات العرض ، وننتقل من مدينـة إلى أخرى ، ومن قرية إلى أخرى ، نعود إلى ما كان عليه الأسلاف في الثلاثينات والأربعينات. نبيـع للتلفـزة. ننتقل إلى العواصم العربية. نكون تعاونية ، يارايس.

- أتعرف مايقول المثل في مثل هذا الموضوع؟ طبعاً لا. *"ألقاها تبكي من هم الرجـال قـال لهـا أسـكتي نتزوجك."*. هأ هأ. تلزمنا دبابات، وطائرات ، وحدود ، وعضوية في جمعية الأمم. يلزمنا استقلال آخـر. كـل

شيء ، يمكن أن يسلم فيه هؤلاء للقطاع الخاص ، ماعدا وسائل التعبير. لا. اللعب بعشاء السلطة. لا وألف لا.

انبرى عليوات ، محتجا بسخرية ، ثم رفع كأسه:

- أقترح أن نشرب نخب آية الله في هذه الدار. فجرية.

- نخب آية الله.

- اسمعي يافجرية. اسمعوا كلكم. حتى أنت يا رايس. لو لم تكن فجريـة ، إحـدى معجـزات الـرايس ، لتزوجتها الآن. الآن. أقرأ الفاتحة، وأقودها من يدها إلى منزلنا. أتحسبون أنني سكرت ، ونسيت الفاتحة. بوعلام هنا، وسيقرأ هو الفاتحة. تصوروا أنني منذ ثلاثين سنة ، وأنا أبحث ، دون جدوى عمن يمكن أن أحب. فتحـت مناقصة وطنية ودولية: المطلوب امرأة بإمكانها أن تستولي على قلبي، فلم أجدها. طفت مختلف أنحاء العـالم ، فلم أجدها.

- ربما لم تفتح عينيك.

- اسكتي أنت يا وداد. دعي الزير بغطائه.

- لو قلت المطلوب امرأ ، بدل امرأة ، لربما.

- بوعلام. نعرف الزوايا وشيوخها ، وما يجري عندهم. صفّا صفّا. دكّا دكّا. لاتحرجني.

- الأزمة الحقيقية يا ناس. اسمعوني جيداً. إذا وجدتها جميلة ، أجدها جاهلة ، وإذا وجدتها مثقفة ، أجـدها مسطحة ، وإذا وجدتها جميلة ومثقفة، أجدها برجوازية الحياة والطموح. أعتقد أنه لا تليق بي سـوى "*إيـديت بياف*" أو "*الريميتي*" ولماذا الضحك. هل عرف أحدكم ، ماعدا الرايس ، الحب ، أو معنى الحب. هـل وقـع أحدكم في تجربة عشق حقيقية. أنا من ناحيتي ، اللهم لا. اللهم لم تظهر في هذه الدنيا المرأة التـي تصـرعني. الريميتي. هي وجدان هذا القطيع السكران ، وأنا مستعد لأن أتزوجها ، الآن. حالاً. إقرأ الفاتحة يا بوعلام.

- لكن ما علاقة الريميتي ، وإيديت بياف ، بفجرية؟

- اسألوا الرايس. فهو الذي أبصر المنارة في الأفق ، وهو الذي يرصدها.

- أنت مستلب بالرايس ، ولا شخصية لك ، كما يقول مجيد.

- *اللعنة على آكلة الثعابين التي لم تذق في حياتها طعم النوم المريح.*

- دع أوفيد جانبا. وعد إلينا.

- فلتقفأ إذن ، كل أعين آرغيس الديوث.

- " *رولي يالزرقة رولي. ماكي رواله. غاضني خويا في زيو ، وأميمته عواله* ".

الله أكبر..

غنى كل واحد. أغنيته. وأنشد صالح ، نشيد الأممية. من أعماقه، وبكل تفاعل ، حتى أن الدمع انحدر مـن عينيه. أعقب ذلك مباشرة ، الصمت ، فافترقنا. ذهب من ذهب. وبقي من بقي. ربما لا أحد ذهب. أذكر أن وداداً

وقطوماً وفجرية ، نمن في سريري ، عليوات ، وبوعلام ، ناموا في قاعة التخاذل.

أما أنا فقد أخذت أولغا من ذراعها ، وأنطلقنا نزرع شوارع موسكو ، المتباهية برجرجتها ، في ليل صـيف رمادي اللون ، ووسط عبير الأزهار.

مر ما تبقى من الليل بسرعة ، لم أتفطن أصلاً ، إلى أن هناك ليلاً ، بين نهار الأمس. ونهار اليوم ، ولـولا الساعات الطيبة التي قضيتها ، مع أولغا ، ما انتبهت أصلاً إلى انقضاء نهار الأمس ، وليلة البارحة.

اصطحب فجرية ، ونزلت . لست أدري ، لماذا شعرت يومها ، بمثل تلك الغربة وتلك الوحشة ، فقلت لها ، دعيها معي ، يافجرية. لم تكن إدارة المسرح ، مغلقة. كانوا كلهم هنالك بما في ذلك مجيد.

كان في نيتي أن أقول لهم كلمتين:

- استعدوا لجولة طويلة داخل الجمهورية.

ثم أضبط برنامجاً ، نبرقه الى جميع المسارح الجهوية ، ثم أتوارى أسبوعا أو يزيد. ربما أصطحب معـي فجرية وأستبقهم الى عنابة. ربما ، هذه لا محل لها. فقد قر قراري ، على اصطحاب فجرية. يومها ، قررت أن أغطس في بحر فجرية ، إلى الأبد.

احتسينا شايا منعنعا ، كعادتنا في المقهى المقابل ، ثم قصدنا بناية إدارتنا. لاحظـت أن الشـرطي ، الـذي اعتدت أن أجده عند الباب، منذ سنتين ، قد تغير ، خلفه شاب ، مفتول العضلات ، لولا البدلة ، لما كان لـه أي شبه بالشرطة البوابين الذين هم عادة من الشيوخ الأميين. كان يتفرس في الوجوه ، بفضول غريـب ، وكأنمـا يبحث عن وجه معين. وعندما وقع بصره علي ، استوقفني بإشارة من يده:

- أنت حضرة المدير؟

- نعم. ماذا هناك؟!

- عندي أمر بمنعك من الدخول.

- أتدري مع من تتحدث؟ إنه مدير كل مسارح الجزائر ، من عنابة حتى تمنراست.

قال عليوت ، في ثورة ، فابتسم الشرطي:

- أعرف حضرة الرايس. أحفظ كل الأدوار التي مثلتها. لكن الأوامر ، أوامر.

وجه لي ، نظرة ، وترك عينيه ، تقولان " ما العمل؟ العين بصيرة ، واليد قصيرة. في هـذا الزمـان ، لا يسعنا إلا أن نمتثل. لقد عشنا كثيراً في الفوضى لكن حان وقت الانتظام. قد يصحب العملية، أخطاء أو تعسف ، أو جروح ، *لكن لا ختانة ، بدون دم.*

لست أدري ، لماذا رحت أستنتج كل ذلك ، من مجرد نظرة ، صوبها نحوي.

- أريد أن أرى أمر منع دخولي أيها الشاب.

- ليس هناك أمر معين ، بمفهوم الأمر. كل ما هنالك ، أنهم نصبوني ، في الصباح هنا ، وأطلعوني علـى

صورتك ، رغم أنهم يعرفون ، أنني بحكم تخصصي ، أعرفك تمام المعرفة ، وأعطوني اسمك ، وقالوا لي: ينبغي أن لا يضع رجله داخل البناية.

ارتفع الصياح والضجيج. نزلوا جميعهم من فوق. تركوا مكاتبهم، ونزلوا. بينما أخذني مجيد من ذراعي ، وراح يحاول جرجرتي إلى المقهى. وينهر العمال والموظفين ، طالبا منهم العودة إلى مكاتبهم. غير أن أصواتاً عديدة ، ثارت فيه:

- لن نعود إلا والريس معنا.

- تقول للكلب ، هش ، وتقول للسارق ، خش.

- ستندم على هذا الكلام ، يوم تلعقه كالكلب.

لم يكن مجيد ، جاداً في إبعادي من وسط البلبلة التي راحت تكبر وتتسع ، بل ، كان يراوح ، متظاهراً ، بأن الأمر يستعصي عليه. أعترف بأن رشدي بدأ يغيب عني ، وبأنني ، أحس ، بضرورة الهيجان ، ضرورة الخروج عن الطوق ، وفعل شيء ما. إلا أن عليوات ، وصالحاً ، خاصة صالح ، تفطنا ، كما قالا فيما بعد ، إلى المؤامرة ، بجميع أدوارها. فدائرة الطباشير الجزائرية ، لم تنغلق بعد، وهي تمثل ليس في ليلة واحدة ، وإنما على آماد طويلة.

- هذا فخ منصوب. عودوا إلى الداخل. فقضايا من هذا النوع ، لا تعالج ، في الشارع ، استدعوا الفرع النقابي ، لدراسة هذه المسألة، إن هذه المظاهرة التي تدفعون إليها ، تشبه توزيع المناشير ، والهتاف بنشيد الأممية ، إنها استفزاز رجعي ، رغم أنه مكشوف ، فانه خطير.

استلم ، صالح وعليوات ، مقود السفينة ، فكانا بحق نعم الرايس، فوتا الفرصة ، على سيارة الشرطة التي حضرت ، بطلب من سيارة مدنية ، كانت تربض قبالتنا ، الأمر الذي جعل بالتأكيد وجه مجيد نعمة ربك يصفر.

تخلصت من قبضته ، بحركة احتجاجية منفعلة ، وبصقت. امتلأت بالقرف من الأخوة الكاذبة التي كان يبديها ، خيل إلي لحظتها، أنه عارٍ ، تتقاذفه أيدي السمار ، في غرفة موحو الملآى بدخان الحشيش والبخور.

استسلمت ليد فجرية التي قادتني ، نحو السيارة ، لسبب ما رحت أتأملها ، وكأنها أراها للمرة الأولى ، عيناها الكبيرتان ، الممتلئتان سواداً وبياضاً ناصعين ، تذرفان دمعتين ، تنزلقان على الخدين المستديرين ، في الوجه المستدير ذي الشفتين المكتنزتين ، والأنف القصير المنحدر بانسجام مع الجبهة والوجنتين والذقن ، فيجعلها لبؤة سوداء ، بقدر ماهي جميلة ، تبدو عظيمة ، مهيبة ، عليها هالة من سحر أخّاذ. ليست *نجمة* البرنزية التي يصفها كاتب ياسين ، وليست إطلاقا أميرة من أميرات تولستوي ، أبعد ما تكون عن خلاسية ، التقت فيها خلاصة السلالات ، هي فوق كل ذلك ، متفردة عن كل ذاك ، هي أصل الأصل ، وكل شيء عداها ، تفرع عنها ، من خلال لونها ، تشعر بإنسانيتك ، مهما كانت نسبة اللون الأصلي في جلدك ، قليلة أو كثيرة تتعرف على عالمية باريس ، وعلى حميمية البشرية في سانت ياغودي كوبا ، تقرأ في سفر دمها ، روح الأرض ، في

جروح أورانيوس ، وتلثم بسمة الطفل في محاريب المساجد والكنائس ، ودهشة الرجال في حلقات نضالية سرية ، وفوران الدم في إيقاعات راقصة بأدغال أفريقيا ، تنشد براءة جوزي مارتيني ، وباتريس لومومبا وقوستي نيتو ونلسون مانديلا.

فجرية ، راكبة عربة الألم المجنح ، تطوف الكون ، وتزرع النسل والجاز والحب ، وذكريـات الماضـي الحزين.

معبودتي.

ها قد صارت ، وستظل معبودتي ، أنا وحدي ، سأسكن هذا الدم، وسأبقى هناك. متدفئا بالحنان.

أجهشت في السيارة ، استسلمت لبكاء ، تخزن في صدرها ، منذ انفتاح عينيها ، على الحياة ، منذ أدركـت أن أباها ، هجر القارة ، بسبب لون بشرتها ، منذ عيّرها ، ربما أول طفل ، وهي تحبو ، أمام بـاب المنـزل " ياكحلوشة ".

لم أبك ، لم أقل شيئا ، كانت تفعل كل ذلك ، نيابة عني ، وكان ذلك يكفيني ، غير أن بخارا حـارا ، مـلأ صدري ، وظل يضغط على روحي ، أشعر بالذوبان ، كما أشعر بالفوران ، حتى أنه يتهيأ لي من حين لآخـر ، أن حل جميع مشاكل العالم ، يكمن في انفجار صدري ، بحيث يغطي هذا البخار الحار الذي به ، كـل صـدور الناس ، في لحظة واحدة ، ويجعلهم يحسون إحساسا واحدا ، بأهمية وقيمة الحياة، ببشاعة الظلم واللؤم ، بحقارة الاعتداء على الأبرياء.

آه. حبيبتي السوداء. حبيبتي فجرية ، أجهشي أجهشي فان الكون يهتز في صدرينا.

لم يكن أمامنا سوى العودة إلى المنزل.

اقتحمت غرفتهم ، أمرت بروميثيوس بالتنحي ، جانبا. تعريت. وضعت الشـعر الأشـيب علـى رأسـي ، تسربلت خرقا من كل لون. سارعت فجرية الى أدوات "الماكياج" وانهمكت في تشويه الجسد المسكين.

تعرف طريقة غضبي تعرفني ، عندما أكون في ذروة الثوران. آخر مرة حدث لي ذلك ، كان يوم اسـتيلاء الفلاحين المعسكرين على السلطة. كما تعرف شغلها ، وتدرك سره. قرأت كثيرا من الكتب والوثائق المتعلقة به ، وتعد مذكرة حوله ، لتقدمه الى الجامعة. في حالة ما إذا التحقت بها. ذات يوم.

ساد الصمت. انكفأت هي ، في غرفة النوم ، بعد أن أغلقت علينا باب غرفتهم.

كانو معي ، كلهم ، كل الأبطال من *عهد ايسخليوس الى شكسبير وابسن وبريخت ، وبوشكين وكاتب ياسين ، وسعد الله ونوس وايميل حبيبي.*

رحنا ننفخ فيه ، الصور ، نعيد الحديث القوة ، بين بروميثيوس وخصومه وأنصاره والمتعـاطفين معـه ، حول الحقيقة ، وسر المعرفة وعلاقة التينة بمولاها الذي غرسها.

كنت ضمنهم. بشعري ولباسي وهيأتي، أركب الآلام وأعبر الزمن ، أسمع في الوقـت الواحـد ، هامـات

والبنات المستجيرات ، وآرغيس ، والعم هو ، والقاضي أصدق ، أشارك معهم في الحديث بالصـمت ، أقـول بدوري ، كل ما قالوه ، وأضيف إليه ، أن التينة كانت بريئة ، عندما كشفت عن سرها لأعـدائها ، أن الصـدق والنزاهة سر العشق.

قد أكون مستيقظا ، وقد أكون نائماً ، عندما وضعت فجرية كفها على جبهتي ، كأنمـا تـتلمس حرارتـي هامسة:

- غريبان يقولان إنهما مبعوثان خاصان من طرف فخامته. قلت لهما ، إنك ، تعب ، فألحا على الاتصـال بك.

أحضرت لي البرنس ، فلم أرتده ، اقتحمت عليهما غرفة التخاذل في حالة بروميثيوسية ، محضة.

لم يفاجآ ، على العكس ، شعرا ، على ما قدرت ، بارتياح بالغ ، لم يقصدا شخصاً آخـر ، غيـر الفنـان ، ظننت أن ذلك ربما يعود ، إلى كونهما ، لم يجداك تحرر مناشير ، أو تنظف بندقية ، ربما كانا ينتظران مجابهة محارب.

على كل حال ، هاهما أمام فنان ، تمكنت فجرية ، من إضفاء الجو العائلي علينا ، بسرعة أحضرت إبريـق شاي ، مع كأسين وحلوى وضعته أمامهما ، وقدمت لي كأس لبن ، وتسللت خارجة.

- الحالة خطيرة. فخامته ، ينتظر منك المساعدة ، هو على علم بكل ما حدث منذ اللحظة الأولى ، القـوى الأخرى ، أعدت ظرفاً استفزازياً محكماً ، الهدف من ورائه ، نسف آخر الجسور بين القوى الوطنية ، المؤامرة خطيرة ، تتشعب خيوطها ، من باريس إلى واشنطن ، إلى لندن ، فعمان ثم الرياض. إنهم يكادون يتهمون ، كل وطني نزيه ، بالشيوعية ، بل ، إن بعضهم ، يروج بأن فخامته أيضاً، كذلك.

- ما المطلوب بالضبط؟

- في صراع التيارات ، والقوى ، دفع الوزير. إلى اتخاذ قرار عزلك ، دون الرجوع إلى المصادر العليا ، التي وضعت أمام الأمر الواقع ، فإما عزل الوزير ، وفتح جبهة ، مع قوة أنت تعرفها ، وإما، تمرير المسـألة ، بدون ضجيج ، وهذا يتطلب مساعدتك ، أنت.

- وماذا بوسعي أنا أن أفعل.

- أن تلغي أمر الإضراب الذي أصدرته نقابتكم ، نهار اليوم. تعلم أن قطاعات أخرى ستتضـامن معكـم ، وستحدث أزمة ، نحن في غنى عنها.

- أنا لم أشارك في أي فعل.

- نعلم ذلك.

- هل تتصور أن حماس مجيد لفكرة الإضراب ، كان أقوى من حماس صالح وعليوات؟

- وماذا تعرفان ، عن مجيد وصالح وعليوات؟

- نعرف مجيد نعمة ربك ونعرف صالحاً ، ونعرفكم جميعاً ، يارايس. أنت إنسان طيب جداً.

- أنت لست نسراً أحمر.

- تريد أن تقول ، إنني حمامة أو دجاجة حمراء.

- معاذ الله.

- فليكن غراباً أحمر. أتعرف ما يروى ، عن أن الغراب حاول تقليد مشية الحمامة ، فأضاع مشيته. وأنا ، ربما ، قلدت المشية ، واللباس أيضاً...

لم تكن ضحكتنا ، جميعاً ، إلا تغييراً للجو الثقيل ، الذي أحدثته ملاحظتهما ، حيث سـرعان مـا ذابـت ، ليخلفها الجد:

- لا نريد مزيداً من القمع ، ولا من نزوح المثقفين ، فخامته ، متوجه بصدق نحـو تعـاون كـل القـوى الوطنية. إنما هذا أمر لا يمكن أن يتم إلا على أساس الثقة ، واليقظة.

- أريد أن اعرف ، ما المطلوب مني بالضبط.

- لك أن تحتفظ بإدارة المسرح ، نزولاً عند إرادة النقابة وتفتح بذلك ، معركة ، لا أحد يتنبأ بنتائجها. ولـك ، وهذا هو المطلوب منك، أن تفشل خطط القوى المضادة ، فتستقيل ، فخامته يعدك بالانتقام ، حالما يحـين أوان ذلك.

ما إن ودعناهما ، حتى حضر عليوات ، ملوحاً ، بلائحة النقابة. وبرقيات التأييد من فروع عنابة وقسنطينة ووهران وبلعباس ، وبرقيات عمال المناجم ، وشركة الصوف والجلد ، ومؤسسة المياه المعدنية ، وعمال الطاقة والمحروقات ، وعمال النسيج.

- إضراب شامل ، لا يتوقف ، إلا بخطوة ثورية جديدة ، يارايس.

قال عليوات ، فتدخلت فجرية ، وكأنما ، ترد على الكلام الذي كان يجري بيني وبين المبعـوثين ، والـذي بلغها ، بطريقة ما ، فالنساء يعرفن دائما ، ما يقوله الرجال ، حتى وإن كانوا في القطب المتجمد.

- أنت لست رخيصاً إلى هذا الحد ، يارايس. من رأيي أن يتحمل ، كل أحد في هذا البلد مسؤوليته. النسور تهاجم ، والغربان تأكل الجيف يارايس.

فهمتها. فهمت رسالتها ، تمام الفهم. تأملتهما معاً. الغضب في عيونهم. غضب صـادق وجميـل. غضـب الحياة في حركتها. لم أتساءل ، عن إمكانية مجاراة الحركة ، وعن مخاطر الاستسلام. كنت أتوق للعـودة إلـى غرفتهم، لأواصل معهم الحديث ، وكنت ما أزال في حالة بروميثيوسية.

- الرايس في حاجة إلى أن يرسو بمركبه في ميناء أثينا. لقد استقلت.

شهقت فجرية، ولطمت خديها الجميلين، بينما خرج عليوات، مبديا حركات احتجاج، كأنما يقول إنك تهـين كل عزائم الرجال. وصل الباب الخارجي، ثم عاد. نظر إليّ وهتف:

- الذين اتخذوا قرار إهانة الضمير الوطني، بمنعك من الدخول، ثم بعزلك، كـانوا علـى درايـة تامـة، بخصمهم. هذا تخاذل، لم يحدث في تاريخ الجزائر.

تراك.. طراق.. انتهى الشريط. استريحي. أنا بدوري تعبت أتناول قدحا، ثم أقلب الشريط، وأواصل.

المشي إلى الخلف

دق الجرس مرة ثالثة. خرجت فجرية وعادت.

- غريب يسأل عنك.

- أدخليه.

- شكله لا يعجبني.

- لنر من يكون يا أولغا.

- سامحك الله يا رايس، وسامح أولغا.

أغلق باب التخاذل بنفسه، تأمل لحظات طويلة، ساعته، ثم أعلن عن رغبته في التحدث على انفـراد تـام، أكدت له، أنه ليس هناك، انفراد أكثر من هذا. نظر إلى الجدران، إلى السقف، إلى أثاث الغرفة قطعة فقطعة، إلى ساعته مرة أخرى.

- الرفاق يأسفون لما حدث، ولو أنهم كانوا يتوقعونه. على كل حال، سيشرح لك رفيق من المستوى العالي، الموقف، الحالة الاستعجالية، والظرف الخطير، و...

- عن أي رفاق تتحدث؟ لقد كان عليوات، وصالح، هنا قبل قليل، ثم إنهم يعرفون المنزل، ويسهرون هنـا كل ليلة، ماذا يريدون عندي بعد أن قدمت استقالتي، لم أعد مديرهم، ولا مخرجهم، ولا رايسهم، لم يبق في هـذا الهيكل الذي ترى سوى بروميثيوس، أو بالأصح، هامة ايسخيلوس، من تكون أيها السيد؟

ضحك. اليقظة أساس نضالنا، كما تعرف، ثم راح يعدد أسماء شيوعيين قدامى، من الشرق ومـن الوسـط، والغرب، بن زين، بوعلام خالفة، يونس كوش، الشيخ مبارك، وظروف تحول حركة المقاومة الشـعبية، التـي اندلعت غداة الانقلاب العسكري إلى حزب ماركسي لينيني.

- طبعا أنت تعلم بكل الأمور.. ربما يلتقي بك عضو من المكتب السياسي ، قد تكون تعرفه ولا شك.

أوقفته عند حده ، لم يكن يصعب علي أن أمثل أمامه دور الخالي الذهن ، رغم التردد الذي يعتمل في نفسي ، صحيح أنني لحد الآن ، لازمت حيادية تامة ، تجاه التنظيمات السياسية ، لكن لم أعلن في أيـة لحظـة مـن اللحظات ، عن تنكري لقناعتي السياسية والايديولوجية ، أو لماضي. ألتقي بهم جميعاً ، أتحدث معهم في جميـع الشؤون ، بنفس لهجتي ، ومن نفس منطلقاتي ، ولقد لف صالح حولي مرارا ، غداة الانقلاب ، لكننـي عرفـت كيف أصرفه.. أوهمته في الأول ، بأنه يطرق بابا مفتوحا ، ويحاول تنظيم رفيق منظم ، تخلى عني مدة ثم عاد يلوح بإشارته من جديد ، إلى أن النضال بدون حزب ، عبث برجوازي ، صارحته ، تظـاهرت بمصـارحته ، بأنني أمتلك ، معلومات وافية ، على أنه عميل للمخابرات ، وأنني بدوري عضو فيها ، كل ما في هذا البلد يـا

صالح ، يسير بعيون آرغيس ، وإلا كيف يتماسك نظام لا يسنده شعب. بم يحكم هؤلاء الناس ، هـل يعقـل يـا صالح ، أن يكون في هذا النظام ، من يحتل منصبا مثل منصبي ، دون أن يكون من السلك؟ قهقه صالح. وقـال إن الموساد تحاول إيهام العالم أجمع بأنها تسيطر عليه ، وأنت يا رايس ، ربما أصبت. نعـرف أنـك تركـة ، ونعرف أنك ستصفى طال الزمن أو قصر ، كل ما أتمناه ، أن تكون بحق نسرا أحمر. – يومها ، لا أحد- تنبـه إلى الغراب أو الدجاجة- عاد بعد أشهر ، يلف ويدور ، ويردد مأثرة هاملـت: *كـن أولا تكـون* ، صـارحته بالحقيقة. فنان عالمي مثلي لا تحويه التنظيمات ، يكفي أن يظل يتصارع مع الإديولوجية ، يخرق حجبها يوما ، وتخرق روحه يوما ، بروميثيوس ، لم ينظم عصابة لسرقة النار ، إنما تناول بيده الجمر ، وراح ينثـره علـى البشرية.

ما قيمة بروميثيوس ، لو لم يكن إلاها ، يحب البشر. هل سيكون له ذكر ، لو لم يخرق أديولوجيته نفسها ، ثم إنني التزمت منذ الخمسينات أن أعمل في إطار هذه الحركة ، تارة كريشة في جناح وتارة كريشة في جسـد. لم أفكر ، ولن أفكر إطلاقا في الانفصال عن الجسد ، ولا يهمني ، ما يجري فوق. هنالك ، عفلق أو البكر ، بن بلله ، أو بومدين ، كريم بلقاسم أو بن خدة ، كل ذلك أوجه متعددة لعملة واحدة. صحيح أنني أتألم ، لكل انتفاض غير طبيعي ، يصيب الجسد كجزء منه ، لكن كلهم بالنسبة لي سواء ، والمهم عندي هو الحد الأدنى مما يمكـن أن تعطيه التينة ، لقد أدركت على خلاف الشعب الإنكليزي ، أن بيت *يورك* ، مثل بيت *لانكسـتر* بشـعاريهما ، الوردة البيضاء والوردة الحمراء ، لا ينتميان إلى الشعب ، وأنه لا فرق بينهما ، وبـين وردتيهمـا ، وبالتـالي فالاقتتال من أجلهما منتهى السخف ، المعارضة نعم. الإصداح بالحقيقة ، نعم. كشف الأخطـاء ، نعـم. يمثـل *رويشد* مسرحياته ، نمثل مسرحياته ، ونخرجها ، واجب ، *قاضي اشبيلية وألفريد فرج ، والملك هـو المالـك* ، *وسعد الله ونوس* ، واجب. *ولد كاكي وعرائس الكراكوز* ، واجب أيضا ، شأنها شأن *رأس المملوك جابر* ، نفتح الآفاق ، نمهد السبل ، نيسر العمل للرجال. معقول.

هذا دورنا يا صالح ، أما الاجتماع في الخلايا السرية ، والمواعيد بعد الغروب. وتلقي الأوامر والتعليمات ، وتوزيع المناشير، فهذا قليل علي. قليل جدا ، أقول الحق ، وأرجوك يا صالح، أن لا تحرجني مرة أخرى ، وأن لا تتبجح أمامي ، بأنك شخص خطير ، مهدد بين لحظة وأخرى ، وليكن في هذا الكفاية.

اتهمني بالسلبية الثقافية ، وباليسارية الانتهازية ، لم يقل ذلك ، وإنما راح يسرد رأي *لينين* فـي الانتهازيـة الشريفة ، لكن كفّ عن تلميحاته ، بضرورة الانتماء ، والعمل المنظم ، اكتفى بالابتعاد عني، وتجنب الجلـوس معي ، أو الحديث المطول ، وحضور السهرات الليلية ، حتى حركاته في تغيير ألوان الأضواء على وجهـي ، صارت بطيئة ، وثقيلة ، إلى حد أزعجني ، لكن سرعان ما تغير.

همس لي مرة ، بأن الحزب ، يباركني ويبارك نشاطي ، ليس هدفنا أن ننفرد بالعمل الثوري ، أو أن نحتكر الثورية ، والمهم ، أن يعمل كل منا في ميدانه ، من أجل المصلحة العليا للوطن.

والآن. الآن ، في هذه اللحظات المحرجة ، التي يشتكي فيها ، من ضغط القوى اليمينية ، حتى مـن كنـت أظن أنه أقوى قوة في البلد. هل أظل أرفض. لعلهم ، رفاق الأمس ، وشباب اليـوم ، هـؤلاء النسـور الـذين يطيرون في العاصفة الهوجاء ، ولا أحد منهم واثق من الرجوع إلى وكره. لعلهم في حاجة إلي لإفشال مؤامرة ، تدبر ، ضد الزملاء ، ضد الوطن كله ، أولإنجاح خطة ، تخرجنا ، من هذه العاصفة السوداء.

هذا الشخص الملتحي ، الجالس أمامي ، يداعب نظارته السوداء، وينظر إلـى سـاعته ، وإلـى السـاعة السوفياتية ، في الجدار ، كيف أرده خائباً.

أعرف العمل السري ، ومقتضياته ، ومعنى أن ينتقل عضو قيادي ، من مكان إلى آخر. الخروج من المخبأ ، التنكر بأقصى ما يمكن ، شق الشوارع ، المظلمة والمضيئة ، المرور أمام الشرطة ، الالتفات إلى اليمـين أو إلى اليسار ، كلما حاول مارّ ما ، التثبت في الوجه. الحضور بمكان الموعد ، بخمس دقائق على الأقـل ، قبـل الوقت ، لإلقاء نظرة على المكان والتأكد من سلامته. من يدري. الشك في صلابة الرفيـق المنتظـر ، اليقـين الإجباري في إخلاصه ، استعراض ماضيه والمواقف الحرجة التي عرف فيها كل أنواع الاختبـارات. تتـذكر تهديد الضابط بتتبع آثارك ، وإلقاء القبض عليك. قال في جلسة ، يعرف أن ما يجري فيهـا سـيبلغك ، سـأقلي خصيته في الزيت لو يقع بين يدي. لا لن يخون. تقول تطمئن نفسك. لكن الخطر أن يلقى عليه القبض ويضطر للاعتراف. أن يكون البريد ، اكتشف ، حتى بمجرد الصدفة ، وتكون العقدة ، قد حلت ، بالنسبة للمتفـانين فـي عملية الرصد.

تمر دقيقة ، دقيقتان. قد يأتي. سيأتي.آتٍ لا محالة. يمر أحدهم. لعله هـو. لا. إنـه لا يكتـرث بالزمـان والمكان. لعله هذا القادم. كلا. لا يحمل الصحيفة في يده اليسرى. لا يشعل السيغارة ، ثم يلقيها. قد يفعل ذلـك. ثلاث دقائق. مرت. ما الذي أتى بسيارة الشرطة ، في هذا الوقت بالذات. خطوات قصيرة ، في هذا الاتجـاه ، حتى يكون المرء، على مقربة أكثر من الزقاق المدرج ، المنحدر. من يدري. قد يكون الزقاق ، محاصـرا فـي أسفله. قد تكون سيارة أخرى تنتظر. خطر لا بد من خوضه. لا. إنهم ليسوا أغبياء ، حتى يأتوا بسيارة شـرطة مفضوحة ، مثل هذه. تتذكر ، أن كل عمليات القبض التي تمت ، إنما استعملت فيها سيارات مدنيـة ، لا تلفـت الأنظار. خمس دقائق. ما يزال بعض متسع. لعل الحافلة التي استقلها ، تعطلت. أوقفت ، وأنزل ركابها. طالمـا حدث ذلك. حصل مرة معي ، أن تأخرت عن موعد ، بسبب الحافلة. صاحت امرأة : سـرقت ، يـا إخـواني سرقت. يا إخواني سرقت. أوقف السائق الحافلة ، قائلاً ، سندور إلى أقرب مركز شرطة. صعقت. سيلقى علـي القبض ، لا محالة. احتمال كبير. حاول أحدهم أن يقفز من النافذة ، ارتمى عليه مخبر ووضع الغل فـي يـده. وأمر السائق بمواصلة الطريق. لم أركب من يومها حافلة. ربما ، دعاه مخبر ثقيل الظل ، إلى دفع ثمن بيرة في أحد البارات. يعرف المهلة ، ويقدر قيمتها ، ولا شك أنه آت. سيأتي لا محالة. المهم الآن، الابتعاد عـن مكـان الموعد ، والرصد البعيد ، إذا ما حضر ، تكفي ، مراجعة لساعته ، لتنبئ عليه. ثماني دقائق. هذا السكير الـذي

يتبول عند الحائط ، لم يجد مكانا غير هذا. أهو سكير حقاً؟ من يدري؟ لعل رشاشا أوتوماتيكيا ، فـي جرابـه. مزعجات الليالي كثيرة. لأتخف خلف هذه العربة. هاه. يواصل ، تدحرجه. إلى الشيطان.

الدقيقة العاشرة. لم يحضر. الأمر لله. لكن لا بد من عدم الرجوع إلى المخبأ الذي قد يكون محاصـرا. قـد أكون في هذه اللحظات ، مراقبا. عليّ انتظار الأوامر. الرفاق رتبوا كل شيء ، لكن من يدري. المواعيد الليليـة ، مثيرة للشكوك والأحزان. ليكن ، ما يكون ، فالموت واحد ، والسجن واحد ، والغائب عذره معه.

- أيها السيد الغريب ، أراك أخطأت العنوان. حكاية الرفاق ، هذه ، كانت وانتهـت. أضـحت ماضـيا ، وذكرى. ماضيا ، ضمن كل ماضي هذا البلد وذكرياته. كان ذلك في الأربعينات وبداية الخمسـينات. الإسـلام يجبّ ما قبله ، كما يقول الفقهاء ، وأنا الآن موظف سام ، بأجهزة الدولة ، اضطرته ظروف خاصـة لإرسـال برقية ، يعلن فيها استقالته. استقال الموظف ، لكن الفنان ما يزال في، لم يخرج مني. أنا لست بحاجة لأي موعد أو لقاء ، أو أوامر أو تعليمات. "" ، *و" من لم يشبع من القصعة ، لن يشبع من لحسها". "ومن ركبهـا ، ينكزهـا مولى البقرة ، يوالي هرارها*". أراك أحرجتني، أحرجت فيّ الموظف السامي بالدولة.

قلت في قلبي ، لو كان الرفاق ، يحتاجونني ، في مثل هذا الظرف ، لما أرسلوا غير صالح ، وهذا الملتحي ، المتبجح بنظارته السوداء ، لن يكون ، إلا ثالث المبعوثين. لا ، لن أقع في أي شرك.

هاهي البسمة التي ترتسم على شفتيه ، بدون مبرر ، تؤكد لي ذلك. كان عليه أن يبدي الشعور بـالمرارة ، والهزيمة ، بدل أن يبتسم. إنها هربت منه ، لتفضحه هذه البسمة البلهاء.

انصرف ، مخلفا ورقة مطوية ، مكتوبة بقلم الرصاص.

- هاتي نظارتي ، يا فجرية ، لأقرأ ما هو مكتوب هنا. لا. اقرئي أنت أفضل.

"الرابعة والربع ، قبالة محطة الأبيار ، بساحة الشهداء. يدك اليسرى تحمل خبزة ، ويدك اليمنى ، سـيقارة غير مشتعلة. يسألك الشخص الذي يكون بدوره مشغول اليدين ، بجريدة وطنية ، ونظارة بيضاء الزجاج: هـل مرت الحافلة ، فتقول له ، في الاتجاه المنتظر".

ضحكت فجرية ، لسبب ما ، من أعماقها ، فجأة ، تحول حزنها وأساها ، إلى هذه الضحكة الساخرة.

- أيتها البنت الجميلة ، ما يثير فيك هذا الضحك.

- لست أدري ، لكن كتفا هذا الشاب ، تقولان إنه ضابط ، ألم تنتبه إلى خصره يا راس؟

- وهل هذا يثير الضحك؟

- كثرة الهم يضحك يا رايس. أنسيت ، أنني أتخصص على يدك في الديكور. في علاقة الشكل بالمضمون. لو كانوا هم يا رايس، لأرسلوا إليك ، شخصا لا يلفت الانتباه أصلا ، أما أن يحسبوك طالبا فـي السـوربون ، فيرسلوا تشي غيفارا هذا ، فأمر يثير الضحك ، فعلا.

- أحبك أيتها الزنجية العظيمة.

كان ذلك ، أول تصريح لي ، بأنني أحبها. ابتسمت ، غير مفاجأة ، وسألتني:

- ألم تقل لك أولغا أن المرأة تعرف بالضبط ، متى وقع الرجل في حبها؟ أكنت في حاجة إلى أن تقول لـي هذا الكلام السخيف.

- ذاك ، أنني أريد أن أقبل ذلك الجبين الجميل.

- أنت هذا المساء في حاجة ، إلى أم ، أكثر من أي شيء آخر.

كانت ، تلكم ، هي القبلة الأولى ، بيننا ، ابتسمت لمعت عيناها ، اعترتها رجفة ، اقشعر جسـدها ، مـددت يدي تقدمت مني ، بخطو بطيء ، سبقتها الحرارة ، شعرت بتيارها يسري في كياني ، نهضت، فخيل لي أننـي أحتضنها ، لا أذكر شيئا آخر ، غير ما صار يتكرر ، كل ما حاولت الاقتراب منها ، تهزني الرعشة ، يغمرني نور أبيض ، شبيه بسحابة متلولبة. ألتف وأخرج من الزمان والمكان.

ساد البيت الصمت. خرجت وعادت ، ترددت على المطبخ ، ثم عادت ، عيناها مازالتـا تتألقـان بانبهـار غريب ، تهيأ لي أنها تحدق خلف الأشياء ، وأنها الآن ، في هذه اللحظات ، تسير فـي شـوارع بـاريس ، أو سانتياغو دي كوبا ، أو داكار ، وأنها ترى أناسا من مختلف الأجناس ، يسترقون إليها النظر ، بإعجاب شديد.

- اجلسي يا حبيبتي.

- نحتفظ ، بهذه الورقة مع نص البرقية ، لننشئ بدورنا ، ملفا للقضية.

- تخفين في ذلك الرأس خيالات كثيرة يا فجرية.

- صالح ، علّمني أشياء كثيرة.

سكتّ. أحسست بوخز عبارتها ، جعلتني لهجتها ، أحس بأنها تعمدت وخزي ، لم تتعلم منـي أي شـيء ، بالتالي ، ليس لدي ما أعلمها إياه ، صالح ، لأنه نسر أحمر ، علمها ، هذا ما أرادت أن تقول ، تنهدت ، مبتلعـا للوخزة ، وسكت. أدركت أنني تألمت ، وربما شعرت بالندم ، فراحت تغير الموضوع ، الذي انطلقنا منه:

- لقد أخافني مجيد هذا الصباح ، كانت عداوته حادة أكثر من اللزوم ، أكثر من واحد ، اتهمـه صـراحة بالخيانة.

ظللت ساكتا أتحسس الوخزة ، فواصلت:

- اهتمامي بالديكور ، يجعلني أثق ، في أن المسرح ، ليس فحسب ، نصا جيدا ، وتمثيلا متقنـا ، ولباسـا مطابقا...

- إذن ماذا؟

- ظروف خاصة ، تنشأ بين المتفرجين والممثلين ، لست أدري ما صلة هذا الرأي بمقولة أحـد الفلاسـفة القدامى ، ولا أخاله سوى أرسطو: الفن خدعة ، عملية الانتزاع ، واردة ، مؤكدة ما في ذلك شك ، لكن الكيفية ، هي محل الدراسة ، هل الخدعة وحدها ، والخدعة بأي شيء بالذات ، وفي أية لحظة ، وهل تتم لأننا مسـتعدون

نفسيا لها. إذا ما نجحت في الباكلوريا هذا العام ، ودخلت الجامعة ، سيكون تخصصي سهلا.

- كم مرة تقدمت الامتحان الباكلوريا يا فجرية.

- تعلم. خمس مرات ، هل تركتني أنت ومسرحك ، أهتم بالرياضيات.

- وصالح ، لا دخل له في الرياضيات.

- صالح يحبني.

- وهل هناك احد في الدنيا لا يحبك؟

- أبي.

- فجرية ، هل أعرف كل شيء عنك؟

- لا أبدا.

- كيف ذاك؟

- الإنسان لا يمكنه أن يعرف كل شيء ، حتى عن أبسط الأشياء.

- أنا مسكون بك يا بنت.

- أعرف ذلك ، ولا داعي لأن يفقد الرايس وقاره ، ماذا لو تستحم ، وترتدي ثيابك ، حان أن تستريح مـن بروميثيوس هذا.

- انحنت ، وألهبتني بالدفء ، ثم اختطفتني من الزمان والمكان.

- استعدت وعي لأجد نفسي أفكر ، في ما مر بي: كان يوم تعقل كبير. يُحسب في أيام العمر ، تبدت فيـه من الشجاعة على المواجهة ، بالسير إلى الخلف ، كلما اقترب الخطر ، ما يذهل ، ويفـوق الحـدود القصـوى المتصورة عن العقل ، وقوته. المصاب في الحادث ، ما أن يستفيق ، حتى يروح يحصي ما تبقـى ولـيس مـا ضاع. ضياع ذراع أهون من ضياع اثنين ، الأم التي يتمزق فؤادها، لمجرد خدش يصيب ابنها ، هـاهي تجـاه نفس الابن وهو ذبيح أو مطعون ، ترسل الزغاريد تلو الزغاريد مشاركة له في حماسة افتداء الآخرين.

بين الموت اليوم ، والموت غدا ، ليس هناك أي فرق ، سوى الاحتمال اليائس للنجاة من الموت. لذا يظـل أحد ملفوظي المراكب ، يتحايل على البحر وأمواجه وحيتانه ، وعل جوعه وعطشه ، حتى ينجو أو حتى يغمـى عليه ، فتتجاوزه المسؤولية ، يبتلعه البحر أو يلفظه حيا في أحضان أحد الشواطئ. لو يخير الإنسان بين المـوت جوعا ، والموت برصاصة ، لاختار الجوع ، متقدما ثانية فثانية ، نحو بريق أمل ما ، لكن عندما يقول له ، إنك مجند ، لمعركة ، حظ الموت والحياة فيها متساويان يلبي ، بارتياح ، تنهزم الفرقة ، يبقى وحده فـي الخنـدق ، يعلم أنه يستطيع أن يرفع العلم الأبيض فينجو ، آن يتسلل موليا ، فينجو ، يحتمل جدا أن ينجو. لكنه يفضـل أن يصوب آخر قذيفة في حوزته ، قبل أن يداهم ويطحن ، تحت جنازر الدبابة ، أو يتطاير شظايا مع قنبلة. يفعـل ذلك عن طيبة خاطر ، عن وعي وسبق وإصرار ، يطغى عليه الإحساس ، بأنه جزء من كل ، والمهم فـي مـا

يتبقى ، وليس في ما يضيع.

أي وقت وأية لحظات تفكير ، يتيح للأم أن تقرر أن عليها أن تندب خديها وتمزق شعرها ، أو أن تزغـرد؟ من يعينها على ذلك؟

من يقول للمتخبط في البحر ، أن إغلاق الفم ، واستراق التنفس، واجتناب هجمات القرش ، قد تكون نهايـة لعذاب ، وليس بداية له.

التعقل والشجاعة ، والتفويت عن النفس ، لحظة الاستسلام ، لحظة ، ربما لن تكون مرة أخر في العمر. لذا لهذا السبب ، ربما ، لاقتناعي بأنني اخترقت الحد الفاصل بين الألوهية والبشرية ، شعرت براحة كبرى.

سرحت. لست أدري ، ما إذا كنت أستشعر وخزة فجرية ، أم أصنع توازنا داخليا، كي يكون ما قلته لها عن حبي ، وعن أشياء أخرى ، ينسجم ، والظرف الذي نحن فيه.

- لماذا تبتسم؟

- سألتني فجرية ، ولم أكن أدري أنني ابتسمت حقا ، مع ذلك ، قلت لها:

- تذكرت العجوز التي وقعت منها الزبدة في النار ، فقالت: صدقة على المرحوم والدي.

- أنا ضد الاستقالة يا رايس ، وضد التضحية من جانب واحد. وضد الصدقة المغتصبة.

- اسقني كأسا ، دعينا من الحسابات ، أريد أن أغرق في حبك يا فجرية ، أرين أن نمارس بشريتنا ، بملء قلوبنا.

- ماذا تعني يارايس.؟

-أعني. أن نخترق الزمن ، فنخرج من نهار اليوم ، ننزل إلى المدينة ، نذرع شوارعها وأنهجهـا كامـل الليل. يدك في يدي. نتوقف عند كل خمارة ، نشرب. أريد أن أشرب الليلة. نقترح موسيقى ، نـرقص. يحـاول أحدهم انتزاعك مني ، فأصرعه ، بضربة من رأسي، أو أستظهر الخنجر ، فأنتشلك ونخرج.

أريد أن أغضب يا فجرية.. أريد سببا حقيقيا للغضب ، يجعلني، أتعرف على نفسي.

نواصل السير. نتعب ، فنجلس ، على الرصيف ، نتحدث. أشبعك كذبا ، عن مغامرات الصـبا والشـباب ، وحكايات عن عواصم الدنيا. أصف لك تاج محل ، وبيتا كوبيا انفتح فجأة ، ودعاني أصحابه لتناول فنجان القهوة ، وقدح روم. عن حنان الأم في موسكو. عن غيرة الرجل في بغداد. عن حلبية ، رأيتها في مطعم بدمشق ، يأبى خيالها أن ينمحي من بين عينى. عن اللبناني الذي قضى خمسين سنة من عمره في البرازيل ، ولم ينس التبولة ، والنارجيلة ، عن العاهرات الأجنبيات في شوارع باريس. عن المصري الذي يغطس في النيل طـوال النهـار ، ليستخرج سلال الطمي ، يزرعها فوق الرمل، ليزرع فيها فيما بعد. عن أجلاف النفط في العواصـم العالميـة ، يمشون بجلاليب ، دون تبان ، متهيئا لهم أن الناس ستفهم ، أنهم ، متواجدون هنا ، كالثيران في حظيرة بقـرات حلوب. عن بريق الدولار ، في بعض العواصم المعادية للدولار ، عن غضب المرأة الليبية ، عندما يعود زوجها

بثلاثة أرطال لحم ، بدل عشرة. عن رب الأسرة الأعمى الذي يكابر في بومباي ، ليجد قوته وقـوت أسـرته ، بدرابكته ، وناي ابنه ، وخصر بُنيّته الراقصة على إيقاعاتهم. عن سائق التاكسي الكوري فـي بـاريس، يشـكو النظام الرأسمالي ، ويلعن وطنه الاشتراكي. عن الشعراء في الجزيرة والخليج ، قاسم حداد ، وحمدة خميس ،عن المثقفين العرب ، الهاربين من القمع ، يناقشون ضرورة الوحدة العربية ، من نهر السين الى نهر السـين. عـن الغربان في عدن ، تنعق صباح مساء ، وعن اليسار في باقي الوطن الكبير ، مذكرين بأسبانيا ، وفرق التطـوع الأممية ، وتشبث الأوربي ، بكل شبر من أرضه انتصرت فيه الديموقراطية. عن العجائز المتصـابيات ، فـي شوارع مدريد. عن إحساس الانسان في روما بضرورة فعل شيء ما ، أمام تحدي الزمان. تسألين ، فأجيبك. لا. لا حاجة إلى السؤال ، فإنني ، لن أكف عن الحديث.

ننزل الى الميناء ، نغامر بالاقتراب من حشاش ، نرجوه سيغارة زخمة ، تعدينه بقبلة. تقبلينـه ، أستصـغر القبلة ، فألح ، كي تعيديها ، يحلم بأنه يركب قارباً من ورق ، وأنت عملاقة ، تتخطين الأمواج ، وتنفخين فـي شراعه. نتركه للحلم ، ونصعد الى القصبة ، نستظهر في أنهجها الضيقة ، معلوماتنا فـي اللغـات الأجنبيـة ، ونستدرج المارة إلى الكرم العربي ، وإلى الشهامة والأنفة. نضحك على ذقونهم ، ثم نجد أنفسنا في جحر موحو ، نسأله ، عن العلاقة بين اللغة الفرنسية ، بين مونتيسكيو ولامارتين ، وبين الاستقلال ، ومونيك ، مديرة المركز الثقافي الفرنسي ، التي يطرق بابها في منتصف الليل ، ليطلب علبة تبغ " جيتان " ويقرأ لها آخر قصيد نظمه.

لا يا فجرية. نركب السيارة ، ونصعد إلى جبل الشريعة. نتعشى هناك. نعمّد حبنا ، ثم ننـزل إلـى مينـاء *قوراية* ، نأخذ قارب صديق لي، ونخرج الى البحر. ننتظر استهلال القمر من خلف القمم التي مهما أحصـيت ، ومن أي موقع كنت ، تجدين أن عددها سبع. تشعرين بالبرد ، تقضقضين ، فأدثرك بسترتي ، تظهرين المـلل ، واستهجان هذا الجنون ، فأحاول إلهاءك بالقبل ، والحديث عن الريح الشرقية ، ومعجزة عدد أيامها ، التي تكون إما ثلاثة ، وإما ستة ، وإما تسعة...

- الحمام جاهز يا رايس.

قالت فجرية من هنالك ، ورغم تأكدي من أنني كنت أهذي وحدي ، وشعوري بقشعريرة حمى ، تسري في كياني ، فإنني واصلت الحديث.

- الريح الشمالية ، أخت الشرقية ، وعادة ما تخدع ، مثلما يقول صيادو *قوراية*. لكن أسـوأ ريـح ، قـال صديق لي ، هي الريح الغربية. عندما سألته لماذا ، استغرب كيف نسيت أن الأجداد قالوا "*ما يجي من الغرب ، ما يفرح القلب*" قلت له ألهذا السبب فقط ، فهز كتفيه ، الأجداد يعرفون أكثر منا.

أتعرى ، وأثب من القارب. أغطس إلى العمق ، كي أعود ، بغصن مرجان. تبحثين عني في الظلمة ، ثـم تصرخين مذعورة ، فأفاجئك ، وغصن المرجان ، في يدي.

أريد أن أشعر ببشريتي ، يا حبيبتي. لقد فقدت الخوف والغضب منذ مدة طويلة ، وأحس أن سـيري إلـى

الخاف في كل مرة يجب أن أسير فيها إلى ألمام مواجها متحدياً ، قد تكرر ، وأنني لم أعد أغضب، ولـم أعـد أخاف. لم أعد أخيف كذاك. أريد أن يسكر "*جازين*" مدينة الأموات إحدى سكرتنه السنوية ، يافجريـة. أريـد أن يسكر *جازين* اليوم. هذا المساء ، ورفقتك يا فجرية.

- الحمام جاهز يا رايس.

- نعود. نستحم. نتعاطى قنينة نبيذ أحمر. لا أريد غير النبيذ الأحمر ، لهذه المناسبة. نضحك ملء صدورنا ، على مستوانا المتأرجح بين الطفولة والاكتمال. بين العقل والجنون. بين ندب الأم وبين زغردتها. ترتدين ثياب *أزميرالدا* ، وأرتدي حدبة *كازيمودو*. ونصعد الصومعة. تحلمين بعنتر بن شداد ، عشرات العنترات بين ذراعيك ، وأحلم بأولغا واحدة.

يعطي كل واحد منا للآخر ، فرصة الحلم القصيرة. ثم نستسلم للنوم الهادئ.

من العدل أن يصادف أحدنا يوماً ما ، حلمه ، وأن يشعر بالسعادة.

- أفضل أن تستحم ، قبل أن يمتلئ البيت بهم.

جازين يسكر

- هيا تستحم يا رايس.. ستمرض إن أنت استمريت عارياً هكذا.

كررت فجرية ذلك ، أكثر من مرة ، لكن لم يعرها أي اهتمام ، ظل يشرب ويشرب ، يتحدث ويتحدث ، في رأسه فكرتان ثابتتان ، الأولى أن يسكر ، أن يبلغ إحدى قمتي جازين ، فيخرج من وقاره ، ويكسر كل شـيء. يقتل الميجور ، يقتل من حوله من السجناء ، ينهي هذا الموت البطئ. الثانية ، هي أن يحب فجرية ، حباً أعمـى ، يصيّرها أولغا ، يتزوجها هذه الليلة ، بدون قاض ، وبدون فاتحة ، وبدون أية مقدمات ، يسكن في بطنها جنيناً ، يولد في بضعة أسابيع، ويكبر في بضعة أسابيع ، ويحمل عصا ويدافع عنه وعن أمه.

رن الجرس. اقتحموا البيت كلهم. تسابقوا على المقاعد والأماكن، توالت التعليقات:

- بروميثيوس متوهج.

- قال عليوات ، فأضاف صالح:

- قليل من نور أحمر ، على الجنب الأيمن ، ليبرز الجرح ، وقليل من النور ألأصفر على الوجه ، ليبـرز تألق اليقين.

- ألا ففئت عيون آرغيس.

- قال مجيد ، محاولاً ، استشفاف أثر كلمته ، على وجه الرايس.

- اليوم خمر يا فجرية.

- خاطبها الرايس فتساءل بوعلام:

- وغدا...؟

- خمر أيضا. جازين؟ إما بائع خمر ، وإما شاربها.

- من هو جازين هذا يا رايس؟

تودد مرة أخرى مجيد ، فبادره الرايس ، وكأنما يحاول تجريب أثر غضبه في الآخرين:

- نعمة ربك.

قهقهة مجيد ، يتفادى أمرا ما ، يخشى أن يصل إلى الآخرين ، بنفس الحدة التي حملتهـا نبـرات صـوت الرايس. وتحول بالكلام إلى فجرية:

- اليوم خمر ، طبقي أمر الرايس.

رن جرس الباب أكثر من مرة ، فامتلأت القاعة الكبيرة ، وشعر الرايس ، بالرضا التام ، وقال في نفسـه ، هذه القاعة كالنيل كلما امتلأت ، شعرت وشعر أهلها بالسعادة.

لسبب ما ، أحست فجرية ، بضرورة ، إجراء لمسات زينة على وجهها ، رغم أنه نبهها أول مـرة رآهـا تفعل ذلك ، إلى انه يتضايق من الماكياج ، عندما يراه خارج خشبة المسرح ، ربما لهذا السبب بالذات ، اكتفـت بوضع زيت معطر في كفها ، ومررته على وجهها ، ليتألق في المرآة ، مضيفا عليه إلى جانب البهجة ، سيماء الإنهماك الطفولي ، فيما حوله.

ابتسمت وتسللت إلى غرفتها ، غرفة أولغا.

لأول مرة تقدم على هذه الفعلة التي حذرها منها الرايس ، من أول يوم وطأت فيه قدماها عتبة البيت.

أغلقت الباب خلفها ، واجهت الموضع الذي قال الرايس لها إنها تسكنه ، تأملت لحظة ، أحست بنسمة خفيفة تهب على الغرفة ، تحرك طرف ثوبها وشعرها الذي انتصب كالإبر ، شمت رائحة عطر ، لم تشممه قبل اليوم أصلا ، لم تشعر بأي خوف بل على العكس من ذلك فرحت ، لحضور أولغا.

- سأحبه.

ابتسمت.

- سأتزوجه. وسأملأ هذا البيت أطفالا يملأونه بدورهم ضجيجا، وصياحا.

- رفعت أولغا حاجبيها ، متعجبة ، ومع ذلك ظلت تبتسم ، اشتعل النور وانطفأ ، كانت أولغا بعيـدة عـن الباب ، لكن مع ذلك ، أشعل شخص ما غير فجرية ، النور ثم أطفأه ، أحست بيده تتناول يدها ، وتسحبها إلـى القاعة ، دخل بها الرايس ، متألقة. وقال مزهوا:

- أبت إلا أن تسهر معنا ، أولغا حبيبتي.

- صفق الجميع ، ارتفع صوت وداد: "*رولي يا الزرقة رولي أماكي روالة*" فردت فطوم ساخرة "*غاضـني البرقادي في عمره واميمتو عوالة*" .

- اقتنعت فجرية بأنها أولغا فعلا ، فراحت تبتسم للجميع ، وكأنما تراهم للمرة الأولى ، ثم اتخـذت مقعـدا جنبه ، وصبت كأسا لنفسها

رن جرس الباب، دخل وفد من الوزارة ، الكاتب العام ، مدير الثقافة ، كاتبة الوزير الشخصـية ، ضـابط بالزي العسكري ، سلموا بحرارة بالغة ، جعلت الرايس ، يندهش ويتساءل في سـره حانقـا ، هـل جـاؤوا ، يسهرون على الميت؟ لم يستقبلوني أمس ، وهاهم اليوم، أنفسهم هنا ، لا وجوه المعزين يحملـون ، ولا وجـوه الشامتين ، حتى مجيد ، نعمة ربك ، يظهر انطلاقا وانسجاما غريبين ، هل تدخل ، صاحب الأمر فتغير الموقف رأسا على عقب.

- ماذا يريدون يا أولغا؟

همس في أذن فجرية. فتمتمت:

- ربما أتى بهم الإضراب.

"رولي يا الزرقة رولي"...

تحلقوا جماعات ، حول الموائد المنتظرة دائما ، والفناني التي اصطحبوها ، كل والمشروب الذي يفضـل ، إلى جانب اللحوم ، والأجبان ، والكوامخ ، المختلفة ، ومن حين لآخر يخرج واحد أو أكثر ، لاستحضار إناء أو ثلج أو كأس ، أو يذهب إلى الكنيف.

كان الحديث ، يدور في كل شيء ، ماعدا ، أحداث الصباح ، واليومين الأخـرين ، يحـاول بـوعلام ، أن ينطلق في تحليل معمق ، حول موضوع ما ، ، فتقطع عليه وداد حبل التفكير. كما يقول. طارحـة سـؤالا ، لا صلة له بالموضوع أو الجو أصلا ، كأن تسأله ، أيهما أسرع ، الحمار المصري أم الحمار الأسباني ، ثم تـروح تسرد، كيف كان جدها يحترف تهجين الأفراس بالحمير. عليوات ، ما يفتأ يورد النوادر التي صادفته في حياتـه ضمن الفرقة ، أما صالح ، فقد كان يتظاهر بالاستسلام لواقع بغيض ما ، دون أن يتمكن مع ذلك ، مـن إخفـاء تهديد ، يتراقص في نظرته ، واهتمام متستر بالرايس ، وبفجرية خاصة. كأنما يريد أن يسـألها ، أيـن بلغـت المركبة ، وفي أية حال هو الرايس؟ ولماذا هو يشرب هكذا دون هوادة على غير العادة، لقد تعود احتساء اللبن ، حتى آخر السهرة ، ثم يتناول كأس نبيذ أحمر ، يعينه على النوم ، الضابط والكاتب العام ، يحاولان باستمرار ، التأكيد ، على أن الشعب الجزائري بالذات والصفات ، شعب همجي ، تعود على مر التاريخ ، على كره "*البايلك*" وهو بالتالي لا يمكن أن يتذوق الديمقراطية ، ولا يمكن أن يسير بغير الانضـباط ، يكتفـي الضـابط بعبـارة الانضباط فيشرحها الكاتب العام بحركة تهديد من يده: العصا. مدير الثقافة ، يتوجه باستمرار إلى مجيد ، مركزا حديثه على ضرورة ، فهم ضرورات المراحل التاريخية. وعن عدد ترجمات أعماله الذي يتعدى العشـر ، أمـا بيان التأييد المتحمس ، الذي وجهه على أمواج الإذاعة ، باسم الكتاب والأدباء الجزائريين ، دون أن يستشيرهم ، أو يأخذ رأيهم غداة قلب الجمهورية - تعبير قلب الجمهورية. لم يجرؤ أحد على استعماله إنما كان مفهوما ، من لهجة بوعلام ، وهو يشدد على عبارة التاسع عشر جوان- فقد كان المقصود منه ، إنقاذ الجانـب الثقـافي مـن الثورة. كاتبة الوزير طلبت أن يخلى لها مقعد على يسار الرايس. وظلت تتردد على بيت الحمام ، لتضيف قليلا أو كثيرا من مواد التجميل ، على وجهها ، معتذرة في كل مرة عن حادثة البارحة. لقد سبب لي تهاوني، إحراجا كبيرا مع معاليه ، فلأول مرة أراه في مثل ذلكم الغضب. ساءه أن لا يخبر ، بوجود حضرتك ، حال عودته من الرئاسة. اللوم يقع علي. لقد رأيت على وجهه ملامح الضيق والاكتئاب ، فلم أشأ إزعاجه. في الحق ، لم يسألني ، فلم أجبه. لقد اتعظت بما حصل لي معه قبل اليوم ، في ظروف شبيهة تقريبا.. لا تتمم موضوعها. إذ يعن لها ، فجأة ، أن تغادر الجلسة ، وتتوجه إلى بيت الحمام وحالما تعود ، تستأنف موضوع معاليه. قد يأتي الليلة ، لـم يقل لي ذلك صراحة ، لكن لهجته ، وهو يستفسر عن عنوان منزلك ، جعلني أفهم ذلك.

تسللت فجرية. خلصت يدها التي ظل الرايس يتشبث بها ، يلثمها، تارة ، ويشمّها تارة أخرى ، معبرا عـن شوق عارم ، وفرحة خارقة ، لهذا اللقاء الفجائي. فعلت ذلك بلطف ، وتسللت ، لينطلق صوت فضيلة الجزائرية

من الحاكي "*مال حبيبي مالو ، هذي مدة وأنا نرجالو؟*" تجاوب الجميع ، مع الأغنية ، فارتفعت الحناجر ، تـردد اللازمة في كل مرة: مال حبيبي مالو.

وقف عليوات ، أمر الجميع بالسكوت ، وهتف:

- هذه الكأس أرفعها نخب فجرية.

- نخب فجرية.

هتف الجميع ، ماعدا الرايس ، الذي قال بإصرار ، وبصوت بلغ الجميع ، بما في ذلك فجرية:

- نخب أولغا الحبيبة.

بعد فضيلة مباشرة ، جاءت أغاني سياسية ، مثقلة بالتباريح ، وبالوجد ، عقبها *دي بيسي في نوكتيرن* ، ثـم *تشايكوفسكي* ، في السيمفونية السادسة.

"من أجلي. من أجل أولغا" ، هتف في سره ، ثم أغمض عينه ، مستسلما لإعصار من الذكريات المختلفـة ، يغمره. مطعم باكو ليلتها كان محتفلا بنا. لكأن الجورجي الكريم ، كان يقرأ في أعيننا ، ما يعتمل فـي قلوبنـا.. الحلبية ذات الجسد المرمري ، كانت تدرك أنني انبهرت وأنني أصبت بها إلى حد ، أن أدفع حياتي ، ثمنا لبسمة منها. لم تبخل علي بالبسمات. كانت تغافل خطيبها ، فتسترق إلي النظر ، وترسلها. لا يمكن أن تكون ماكرة إلى حد أن تبتسم ، لا رحمة بي ، وإنما نكاية ، وإضراما للنار في القلب. لا لقد احمرت وجنتاها أكثر من مرة. تلكم الحلبية ، هي التي وصفها امرؤ القيس ولا شك.. يروح الزمان. يجيء الزمان ، الزمن يأتي ويروح وكل شـيء على عهده. حتى البحار، "*موح التعبان*" في ميناء قورايا ، لا أحد يتصور ولا هو نفسه ، أنه لم يعد يركب البحر منذ سنوات ، وأن سمكة عفنة ، من يد بحار شاب تحدث السرور في نفسه ، لأن قططه ، تظـل تتـوهم ، أنـه يتناول من البحر ، ويطعمها. ضرير الهند، يضرب بحماسة خارقة على دربكته ، دون أن يكـون لـه الوقـت الكافي، ليسأل أحد أفراد أسرته ، ما إذا كان هناك أحد ، يسمعهم ، ما إذا كان يعزفون لأحد ، ومـا إذا كانـت البنيّة ، ترقص لأحدهم ، أم لنفسها ، وللإيقاعات الجريحة المنبثقة منهم... هاهو يجيء الحصان الأدهم. خطـوه بطيء ، ورأسه مطأطئ. ما بال فارسه ، لا يبين؟ ما هذه بالمشية الطبيعية ، للأدهم. هل انتهت المعركة علـى هذه الصورة؟ هذا الفارس يبين ، منبطحا على صدره متدلي الذراعين والرجلين. ولدي ، ولدي سقط في ميـدان الشرف. تجلجل زغرودة ، تملأ الفضاء.

أعادته إلى الجلسة ، قبلة على جبينه ، طبعتها فجرية ، يدها ، وأجلسها جنبه:

-اجلسي أولغا حبيبتي.

ابتسمت ، وجلست. كانت تتصرف ، كربة بيت ، كأولغا حقيقية، وكانت الغبطة تستبد بالرايس ، فيسـتزيد الشرب وينسى ، السبب الحقيقي ، الذي دفعه إلى الشرب ، نسي الوزارة ، والمسرح ، والقرار ، والنقابة ، كمـا نسي دوستويوفسكي ، وذكريات من منزل الأموات ، وجوزين ، وأشعيا وبتروف ، ولوقـا والميجـر ، بصـفة

خاصة. من حين لحين فقط ، تلسعه ، نظرة أو كلمة من هنا أو من هناك ، فتهب عليه ذكرى النهـار ، فيقـول لنفسه: "إنني أمثل دور الأم التي عاد حصان ابنها من ساحة القتال ، بجثته ممدودة على ظهره. أزغرد. أزغرد ، مؤجلا الإحساس ، بألم الجرح ، أطول فترة ممكنة."

افتقد فجرية. أولغا بالأصح. ألقى نظرة على القاعة ، فلم يتبين صالحا أيضا. احتار لحظات ، فـي ضـبط إحساسه ، تجاه لقاء اثنين من هذا النوع. أيكون ضده ، أم لصالحه؟ الثقة فيهما معا ، قوية ، لا يمكن أن تتزحزح ، والبنت قررت أن ترتبط به إلى الأبد ، على ما يبدو. لقد قبلت أن تسكنها أولغا. لم ترض أن تكـون ضـرة ، فأفسحت المجال لصاحبة البيت الحقيقية. لكن أينهما الآن؟

نهض مستأذنا ، قصد متمهلا الكنيف ، فسمعهما يتحدثان في بيت الحمام المجاور:

- له كتفا عسكري. شككت في أمره ، ما أن دخل يستظهر نظارته.
- يستحيل أن يتصلوا به بهذه الصفة. ثم إنهم على علم بكل شيء وهم الذين يتحكمون في الأمر.
- والإضراب؟
- ألغيناه. ينبغي أن لا يذهب للموعد
- لقد قرر ذلك من تلقاء نفسه ، حتى أنه صرفه بشكل يكاد يكون طردا.
- حسنا فعل.
- من تراه يكون؟
- كيف أعلم؟ الأمور مختلطة ، والأجهزة كثيرة. ربما من الجماعة التي يتعامل معها مجيد والوزير.
- أتركك. ينبغي أن أكون جنبه.
- لا تبتعدي عنه.

ضربت الساعة الروسية ، ثلاث ضربات. أحس الرايس بأنه بلغ حالة *جازين* ، وأنهـم كـي يهـدئوه ، أو يتمكنوا من السيطرة عليه ، ينبغي أن يباغته عشرة أو أكثر ، من الخلف ، يصرعونه ، ثم يمددونه في الفراش.

قال للوزير الذي كان حاضر منذ ساعة:

- لقد نشرت ذكريات من منزل الأموات في عهد القيصر الذي كان يقرؤها باكيا ، فهل يمكن أن ننشر مذكرات بشير حاج علي عن التعذيب في سجون الجزائر المستقلة؟

باغته الوزير ، وكأنما كان ينتظر هذا السؤال بعينه:

- هل تراه بريجنيف ، يسمح بنشر مثل هذا الكتاب الآن؟

كان يبتسم ، موحيا بأن الأمر كله ، لا يعدو أن يكون دعابات مثقفين.

تأمله الرايس ، وتأمل كل من في القاعة ، التي كانت غارقة في الصمت ، لم تمتم:

- حق يراد به باطل ، هيا يا حبيبتي. *جازين* سكر. اصرعيني.

تركهم جميعا في القاعة ، واتجه مباشرة إلى الغرفة ، واستغرق في نحيب مرير:

- لا شيء يثير موجدتي ، يا أولغا العزيزة.

الهامة

طنت الساعة الروسية ما طاب لها أن تطن ، ولا يدري بالضبط، ما فعل ، قبل أن يقرر مواصلة إملائـه ، على مسجلته ، هل ذهب إلى المطبخ ، وفتح الثلاجة ، واحتسى كأس اللبن ، الذي تعده فجرية ، كل مساء ، هل قصد غرفة النوم ، وأشعل النور ، ثم أطفأه بسرعة ، عندما فوجئ بالجسد الغسقي يملأ السرير ، متدثرا بقميص نوم أبيض سابري ، ثم تقدم بخطوات وئيدة ، حتى لا يوقظها ، أو بالأحرى ، لا يكون إيقاظها مزعجا ، وهـل حاول ككل مرة دون جدوى ، أن ينام معها. يقر العزم ، يستثار دمه ، تستيقظ رجولته ، يهزه الشوق والظمـأ ، يقترب منها ، فلا يجدها ، يبحث عنها في كل مكان ، فلا يجدها. فقط يسمع صراخها آت من بعيـد ، يصـرخ بدوره، يصرخ من أعماق أعماقه ، يلتقي صراخهما في الظلمة. يحس بأن كل شيء يتم هنالك ، حيـث تلتقـي الصرختان ، يمتني. تنتهي العجالة، يوقد النور فيجدها ، جنبه تتراقص على أسنانها البيضـاء ، بسـمة الحـب والرضا.

ربما فعل كل ذلك. ثم حاول أن ينام ، لكن هواجس ، وخواطر، حول المسرحية التي قرر هذه سـنوات أن يكتبها، أعادته إلى بيت الحكمة ، ليواصل انهماكه ، ولربما عزم أن ينهي ، أهم ما عنده قبل طلـوع النهـار ، ليتفرغ إلى المعشوق ، ويتأكد مما إذا كان عمال البريد أبروا بوعدهم ، مهما يكن ، هـاهي السـاعة الروسـية تطنطن ، دون أن يكون هناك أحد مهتم بعدد طناتها.

" ماذا أفعل ، حديثي طال. وأنا ما عزمت إلا على كتابة مسرحية؟

صحيح. قررت منذ أول ليلة ، أنني سأفكر ، أغتنم فرصة العودة إلى نفسي في الليل ، لا لأبحث عن قطرة الماء الأولى في البحر ، أو غير ذلك ، إنما أتمعن في البحر ذاته.

لم أقل ذلك في الأول ، لكن أعتقد أنني عبرت عنه ضمنيا ، أفهمت نفسي ، أنني سأنفخ في الصور بالتعبير الدقيق ، ليس ذلكم القرن الذي طوله من المشرق إلى المغرب. ثقوبه بعدد أنفاس الخلائق أجمعين ، يخرج منـه إسرافيل ، صوتاً يصعق منه كل شيء، إنما هذه الموجدة ، التي تحولت إلى غصة تخنق أنفاسـي ، وتـأبى أن تخرج.

أنفخ بصوت يصعق كل شيء ، يصعقني أيضا.

صوت مخ يولد كل ليلة ، ويؤكل كل يوم.

في الرابعة والربع ، وبينما انتهيت من التفكير في ليلة البارحة ، وفي أولغا ، التي نامت بجنبي بقية الليل ، وجزءا من نهار اليوم ، متسائلا عما إذا كانت ستعود هذه الليلة أيضا ، وانشغلت بعد أن نبهتني الساعة الروسية

إلى الوقت ، بحال الرفيق عضو المكتب السياسي مشغول اليد اليسرى بجريدة وطنية ، واليمنى بنظارات بيضاء الزجاج ، والذي قد يكون فعلا ، أمر بلقائي ، وهو الآن يقف عند محطة الأبيار بالقصبة ، رن جرس الباب.

استعدت انتباهي ، وتذكرت أن فجرية ، متغيبة ، حتى عن منزل أمها. فقد جاء قبل قيل أخوها يسأل عنها ، لم يكن من عادتها أن تخبرني بتحركاتها، لست أدري أين تكون قد ذهبت.

رن الجرس مرة أخرى ، كأنما الوافد ، يريد التأكد نهائيا من أنني لست هنا.

ما أن فتحت الباب ، حتى قابلني في المدخل ، يبتسم ملء شدقيه، صريع مشروب الفت الآسيوي. الـ والي. السيد الوالي...

قبّل. عانق. ملأ النزل الهادئ ضحكا وصخبا.

- من أين خرجت؟

- فاتتني أمسية البارحة ، لم أسمع بها إلا صباح اليوم.

- كانت سهرة على جنازة.

- لا تقل هذا الكلام يا رايس.

- كيف تركت ولايتك ، وجئت!

- لقد استدعتني الرئاسة ، لأكلف بمهمة جديدة.

- مبروك

- لا أقبل "مبروكك" هذا حتى توافق على ما جئت أعرضه عليك؟

نظر إلى ساعته ، نظرت بدوري إلى الساعة الروسية ، كانت الرابعة والربع.

- كنت أتوقع أن لا أجدك.

ذكرتني ملاحظته بالرفيق المنتظر ، وبرفيق الأمس ، وتأكد لي أن الخيوط مدبرة بإحكام ، وأن هذه الزيارة ، إن هي إلا تفقد ، لطيف.

- لقد جرت العادة أن أتواجد بالمنزل في هذا الوقت.

- ربما مواعيد طارئة ، أو أشغال ، وما أدراني.

- إنك لم تسأل عما دفعني إلى الاستقالة من المسرح الوطني! هل شرح لك أحدهم الأمر.

- حدثوني بعض الشيء هناك في الرئاسة.

- في الرئاسة؟!

- لماذا تستغرب؟ هل تظن أن شأنك أصغر من هذا؟ أنت دائما التواضع يا رايس.

- لقد قال لي سيادته بالحرف الواحد. لولا الظروف الحالية ، لعينته وزيرا.

- هكذا إذن؟

- اكتفى هذه المرة بتعييني أنا ، وقال لي بالحرف الواحد: خذه معك.

- هل ستعينني رئيس دائرة في ولايتك..؟

- منذ نهار الأمس ، لم أعد واليا. أنا أشغل منصب وزير التعليم العالي.

- مبروك. وتنتظر كل هذا الوقت ، لتقول لي هذا الكلام المهم!

- لا أقبل أي مباركة منك ، حتى نقول مبروك علينا ، كلنا ، إسمع يا رايس أنا في حاجة إليك. البلاد كلهـا في حاجة إليك ، من أجده مستشارا ، للشؤون الثقافية غيرك؟ إلى جانب ذلك ، تتكلف بمهمة التنشيط الثقـافي ، الجامعي ، بدل مسرح واحد ، يكون لك عدة مسارح ، تعمل ضمن الطلبة والطالبات على المسـتويين الـوطني والعالمي ، كل ما يخص النشاط الثقافي بالجامعات ، يكون من تخطيطك. ومن تحت إشرافك، نسحب استقالتك ، ونحولها إلى طلب انتداب ، أطلبه بنفسي ، وأسعى على إنجازه في ظرف قليل ، يكون تعيينك بقرار رئاسـي ، لقد طمأنوني في الرئاسة على موافقتهم، بل إن شئت الحق، أنت اقتُرحت من هنالك... صاحبنا يريد العمل ، في العمق ، في القاعدة ، ويقول إن الاشتراكية ، بدون أرضية وبدون خلفية جماهيرية شيء لا معنى لـه ، وغيـر قابل للتحقيق، وعلى هؤلاء يقصدنا نحن يا الرايس ، إن كانوا فعلا مخلصين للثورة ، التوجه إلى القاعدة ، ولقـد أعطاك قاعدة طليعية يا رايس ، الطلبة ، نعلم حق العلم ، أن موقعك هناك ، في المسرح الوطني. لكن. للظروف مقتضياتها.

نمسح الماضي تماماً ، ونبدأ من الصفر.

بينما كان يستظهر فصاحته عليّ ، كنت منهمكاً في التفكير بشأنه، لماذا جاء في هذا الموعد بالذات ، الرابعة والربع ، لماذا قال إنه يتوقع أن لا يجدني؟ هل كان قرار تعيينه ، في هذا الظرف بالذات ، مجـرد صـدفة ، أم داخلا ضمن تخطيط مسبق ، أم جاءت به المناسبة؟ لماذا هو بالذات؟

- أنا في حاجة إلى راحة عدة أشهر ، سأتجول بضعة أسابيع في أوروبا ، ثم أعود يومها نفكر في الأمـر بجدية.

- يستحيل ، يارايس.

- أنا في حاجة على الأقل إلى تروٍ ، وإلى استشارة نفسي ، فالمسألة كما ترى ، تتعلق بتغيير كامـل فـي برنامج حياتي.

- لا. يارايس. إنهم ينتظرون ، هناك فوق ، وعلي أن أتلفن من هنا من بيتك ، لأقول لهم انك موافق.

- لنتصارح.

- لنتصارح.

- إنهم منشغلون بمسألتي ، هناك فوق ، كما تقول؟

- أكثر مما تتصور ، كل ما يريدونه ، هو أن يطمئنوا إلى تعقلك ونضجك ، ووطنيتك غير المشكوك فيها.

- يخشون أن أخرج من الصف.
- ربما ذاك.
- يريدون أن يدفنوني حيا.
- لا تقل ذاك يارايس.
- لست أدري. كيف تم مجرى الحديث بعد ذاك ، ولم أنتبه إلا على موافقتي المبدئية ، وعليه يتلفن "كما قلت لكم حضرته موافق ، وأرجو التعجيل بإصدار المرسوم".

هاهو زيوس ، ينجح في وضع الأغلال في يدي ويقيدني نحو الصخرة.

عارضت فجرية بشدة ، بلغ بها الأمر أن هددت بمقاطعتي ، وبأن لا تكون أولغا مرة أخرى. قالت إنه تسليم في كل قيمتك ، في ماضيك في كل مستقبلك ، بدون أي مقابل. هدرا. هدرا يارايس ، يضيع الرايس ، وشرف الرايس. وهم لا يستحقون ذلك ، جميعهم لا يستحقون لا الشفقة ولا الرحمة. لقد كانوا يتآمرون على إدخالك السجن ، فموعد هذا المساء كان مؤامرة دبرها من دبرها ، ليلقى عليك القبض ، كانت هناك سيارات مخابرات كثيرة ، تحاصر المكان وقد حضر فعلا ، شخص يستجيب للأمارات التي أعطيت لك ، انتظر أكثر من ربع ساعة ثم انصرف. تبعته فقصد إحدى تلك السيارات ركبها وأعطى أوامر الانطلاق ، كانوا يريدون أن يوقعوك بكل صفة ، فوقعت لهم ، بأن وهبتهم نفسك ، مستشارا ، موظفا في وزارة التعليم العالي.

- ما كانوا يستطيعون إلقاء القبض علي ، إنهم يتحاشون الفضيحة.
- نعم. لكن يكونون لك ملفا ، يظلون يهددونك به.
- لا أرى ضرورة لذاك. هذه الثورات يا فجرية.
- لمعت عيناها ولاح منها شرر مرعب ، ثم عبرت شفتاها بحركة خاطفة ، عن سخرية لاذعة ، وهجرتني لبضعة أيام دون أن تتخلى عن رعايتي ، من بعيد.

بدأ التخاذل يدب في القاعة ، شيئا فشيئا ، وكلما طال الوقت ، استفحل كالسرطان ، مجيد ، لم يحضر ، منذ تعين خلفا لي ، لم يسأل حتى مجرد السؤال ، استراح الابن الأكبر ، بموت أبيه ، قلت في نفسي ، عليوات ، كلما حضر ، كان سكرانا يسألني باكيا ، لماذا يارايس. لماذا ، سلمت في سفينتك قبل الموت؟ البنات ، في كل مرة، يتلفن جماعيا ليعتذرن. صالح ، يأتي ليراني ، ويعمل على الاختلاء بفجرية لبعض الدقائق ، وما إن ينصرف حتى تظهر وثائق ممنوعة، أو أخبار عن إضرابات وقلاقل ، كنت في الأول أستغرب ، كيف تحصل عليها بمثل هذه السهولة.

لم تعد القاعة تعمر إلا بي وبفجرية ، وذلك في فترات متباعدة ، وكلما تقابلنا ساد الصمت بيننا ، وكأنما يخشى كلانا أن يطرق موضوع فقدان الابن الوحيد ، الذي كل ما في البيت يذكرنا به.

بدا لي ، في الأول ، أن التغيير خفيف ، وسطحي ، انتقالي من باخرة لأخرى ، مع تغيير خط الإبحار ،

ربما ، أو تغيير النواتي ، أو حتى الركاب ، فجرية وحدها أدركت ، ومن اللحظة الأولى ، أن الكارثـة أعمـق بكثير من الطابع الذي تجلت به.

"الانتقال ليس من باخرة إلى باخرة ، وإنما من البحر إلى البر ياراَيس...

تغيير كامل في الديكور. ممثل لا يعتلي الخشبة ، ومخرج ، لا يجول في الكواليس ، ومؤلـف ، لا تـرى نصوصه النور...

فطام فجائي ياراَيس...

سيظل بصرك ، يتحرق إلى أنوار مصابيح صالح ، الراقصة كالأحلام .

ستظل أذناك تصيخان السمع ، لهمسات عبد القادر ، يلفتك كلما شرد ذهنك ، وإلى تصفيقات معجبة ، تنطلق بدون مناسبة ، لتتبعها تصفيقات كل الجمهور .

يركب الصدأ روحك ، عندما تفقد هدير الأكف ، والقرنفلة الحمراء ، من يد غادة يتهيأ لك دائما أنها أولغا".

تظل ليالي طويلة ، وكأنها عرافة ، تقرأ في الكف ، تتحدث عما سيقع لي. أسألها:

- ما العمل يافجرية؟ الحصان الأبيض عاد من المعركة ، منفردا وعلى ظهره ينبطح الطعـين ، بـدل أن أندب زغردت ، والآن من الواجب دفنه.

- لكن يا رايس ، ليس بدون جنازة في مقام الفارس ، ليس بدون ثأر ، سبعة رؤوس لا تكفي.

- ستظل حرب البسوس قائمة.

- أشعلها بين جميع القبائل ، وليس بين قبلتين اثنين فقط.

- أنا أب الفارس الطعين يا حبيبتي ، أبوه الملك ، وليس أمه أو أخته ، بل لعلني ابنه الوحيد ، وارث تاجـه وعرشه ، زغردي يا فجرية بدل أن تعولي.

- وبعد أن ينصرف الموكب ، وتنفض الجنازة ، ويتفرق المعزون والمواسون ، هل تستطيع أن تظل تكابر ، في الليل الحالك ، وطلعته تعلن الحضور الدائم ، والغياب الأبدي. الجرح، جرح ياراَيس.

صدقت عرافتي السوداء الجميلة.

دام الموكب الجنائزي سنة برمتها. ثلاثة أشهر صراع في النهار، مع مدير العتاد والتجهيز ، حول تـوفير المكاتب، بعض مكاتب ، ولو مكتب واحد ، بعد لأي ، وبعد أن هددت بالاستقالة ، تم العثور على مكتب ، وهو عبارة ، عن غرفة مستطيلة تقع في نهاية رواق واسع ، احتسبنا جزءا من هذا الرواق ، وحولناه إلى مقر الكتابة والوثائق ، والانتظار في نفس الوقت ، بعدها ، نشبت معركة أخرى ، دامت شهرا كاملا ، محورهـا ، تأثيـث مكتبينا ، وما أن اطمأنينا ، بعض الاطمئنان ، إلى استعداداتنا ، وإلى إمكانية الشروع في العمـل حتـى نشـبت المعركة الطويلة ، أربعة أشهر كاملة ، وأنا أتردد ، عل سكرتارية الوزير ، وأتلفن:

- هذه مدة طويلة منذ طلبت مقابلة مع معالي الوزير.

- ما بوسعي أن أفعل ، مشغول ، اجتماع وراء اجتماع ، السنة الدراسية الجديدة ، ومشاكل الطلبة والأساتذة ، والأسفار هنا وهناك ، كل يوم أطلعه على طلبك ، فيطلب مني أن أترجاك بالانتظار ، يقول إنه سيستدعيك ، حالما يجد بعض متسع من الوقت.

- من يستشير إذا كان لا يقابلني أنا مستشاره.

- آه.. هذه قضية تتعداني يا أستاذ.

أخيرا انتصرنا ، واستقبلني ، احتضنني ، ملأ مكتبه ضحكا وصخبا ، أين كنت طوال هذا الوقت ، يا حضرة الرايس؟ كم أنا مشتاق إليك.

-قبل المخطط الذي قدمته ، دون دراسته ، أو حتى الإطلاع عليه ، وبقيت مسألة الميزانية معلقة. بل معقدة تمام التعقيد. لا يمكن أبدا ، تخصيص ميزانية ، لمديرية ، غير منصوص عليها ، في هيكلية الوزارة ، ذلك يتطلب أيضا ، تعيين محاسب ، وآمر بالصرف، ووظائف جديدة تكلف الدولة نفقات جديدة ، هذه قضية تتعدى اختصاصات الوزير ، والكاتب العام ، ومدير المالية ، ينبغي من أجل ذلك ، إعادة هيكلة الوزارة ، والموافقة على ميزانية الدولة للسنة القادمة.

- إذن لم يبقى لوجودي معكم أية ضرورة.

قلت لمعاليه ، أمام موظفيه السامين ، فابتسم مطمئنا:

- يمكن دائما أن نتحايل على البيروقراطية ، يعجبني المثل الذي يستعمله تلاميذ الثانويات "ما جعل النظام إلا ليخرق". لا نخرق بالمعنى الصريح للعبارة ، لكن ينبغي أن نتحايل ، حتى نتغلب على البيروقراطية.

تم الاتفاق ، على أن ننشط ، ونقدم فواتيرنا ، إلى المديرية العامة ، لتؤشرها ، ثم تحال على المصلحة المالية للصرف. تكونون بدون شخصية مالية.

واجهنا معركة أخرى ، استغرقت بدورها قرابة ثلاثة أشهر. معركة العثور على كاتبة مقتدرة.

لا يمكن إطلاقا ، توظيف كاتبة جديدة ، فجميع المناصب المالية مشغولة ، بل ، هناك فائض ، تسببت فيه التغييرات التي مست المديريات. تعلمون أنه في بلادنا ، كل ما تغير مسئول ، أتى بـ"طاقمه" الخاص.

- نحول إليكم واحدة من الإضافيات.

- ما معنى الإضافيات رجاء

- اللائي يشغلن مراكز وظيفية ، لكن لا يشغلن وظيفة معينة

هذه لا تحسن العربية. خذوها. هذه لا تستطيع الحضور كامل أيام الأسبوع. إليكموها. هذه لا مؤهل لها ، إلا قرابتها للمدير العام. أريحونا منها. من فضلكم. لسبب ما ، ولربما أن حالنا أضحت تثير الشفقة ، جادت الأقدرا أخيرا بنجاة.

كانت نجاة ، تحسن اللغتين ، العربية والفرنسية ، وبامكانها أن تفهم ما يقال حولها بالإنكليزية ، كما بامكانها

استعمال بعض عبارات منها. لا يمكن القول أبدا إنها ليست بالجميلة ، كما لا يمكن القول أيضـا إنهـا جميلـة. صحيح ، أنها ، ضخمة الجثة ، إلى حد يلفت الانتباه. ربما تبلغ مترا وثمانين سنتيمتر طولا ، وتزن ما لا يقـل عن التسعين كيلوغراما. يُكال خدها بالشبر ، عل حد تعبير بيرم التونسي. لقد كان بإمكانها أن تكتفي ، بكل هـذا ، إلا أنها ، تبالغ في شحن وجهها الكبير ، بالمساحيق ، والألوان. ومهما كان الأمر ، فلا يسع أحد أن ينكـر أن عينيها جميلتان جدا جدا. سودوان ، واسعتان ، لوزيتان ، تفرضان على باقي أجزاء وجهها ، وجسدها التناسـق والانسجام. كما أن صوتها ، خاصة من خلال الهاتف ، ساحر. إنه يتناقض ، كل التناقض ، مع ما يبدو عليهـا من خشونة ، وغلاظة. تنقلت بين صحف عديدة ، ومؤسسات ووزارات كثيرة ، آخرها وزارة الـدفاع الـوطني. خطبت لضابط صف ، تنتظر عودته من الشرق الأوسط ، وعثوره على سكن ، ولربما ترقيته إلى رتبة أعلـى، كي يتم كل شيء ، على ما يرام. لا تفضل شرابا على آخر ، ولا رجلا على آخر. لا تمانع في تقديم كأسـها ، للاستزادة ، ولا في مصاحبة أحدهم ، بعد منتصف الليل. ينتظر العالم اجمع أن يراها في حالة سكر ، أن يراها على الأقل تترنح قليلا ، أو تتعثر في كلماتها ، أو يرى عينيها الواسعتين ، مخدرتين ، لكن ، تسفه العالم أجمع ، وتظل هي هي ، تبحلق وتبتسم. تشرب وتأكل. توطدت علاقاتها بفجرية ، وبكل مـا فـي البيـت ، بسـرعة ، فصارت تملأ علينا القاعة ، والسرير أيضا ، وكثيرا ما وجدتها اصطحبت ، ابنة خالة لها ، بديعة الجمال رائعته ، لتعرضها علي ، أمام فجرية ، قائلة إنها تريد أن تشتغل في السينما. أقنعتنا جميعا ، وكان ذلك بسرعة خارقة ، أن نوم المرأة مع الرجل ، وفي جميع الحالات ، حسنة يجازي الله عليها. فقط ينبغي تفادي الحمل.

انتهت السنة. تفرق المعزون.. أصبح العمل رتيبا ، عاديا ، بدأت الهامة تخرج من قبر الفـارس الطعـين. هاهي تصدي كل ليلة: *الدم. الثأر. الثأر.*

تحققت نبوءة فجرية. الجرح يرد ، وأخذ يعلن عن نفسه. الصدمة مرت. الموقف الجماعي من التضـحية ، تم تجسيده. الرجل حافية ، تتعامل رأسا لرأس مع الجمرة التي تحتها. أولغا تتشبث بغرفتها. فجرية تولي أكبـر اهتمامها إلى امتحان الباكلوريا ، وإلى السياسة. ولا تثبت وجودها إلا في الاهتمام بشـؤون المنـزل ، أو تلبيـة حاجتها الجنسية بتلكم الطريقة الغريبة. حيث تتحول إلى نور لا يلمس، وإنما يسمع من بعيد. قالت لـي عجـوز جارة ، إن البنت ليست إنسية ، وإنما جنية ، ستقضي معنا فترة معلومة ، ثم تعود إلى عالمها، لكن لم أصـدقها. تفرح كثيرا عندما أقرر السهر في غرفة أولغا ، أو عندما تقدم نجاة ، سواء بمفردها أو صحبة ابنة خالتها. تعـد الخوان ، وتشعل البخور الهندي ، وتنسجم معنا لحظات ، ثم تتسلل ، لتختفي. لا يدري احد أهي في المطبخ ، أم في دار الحكمة ، أم عند أولغا ، أم مع أمها وأخيها ، أم عند إحدى صديقاتها. لكن ما أن أرفع صوتي سائلا عنها ، حتى تجيب، نعم ، وتظهر جنبي كاشفة عن أسنانها الناصعة البياض... أثبت هنا ، وهذا علـى هـامش هـذه الخطوط العريضة ، أن فجرية لها صديق واحد في العالم ، هو أنا. صحيح تربطها بصالح ، وعليـوات ، حـب من حب وكره من كره، من عروق التينة ، الممتد ، في العمق ، والمستعدة في كل لحظة ، لتجديـد الحيـاة...

هامش آخر. فجرية أم الطعين. أخت الدفين. البنت الصغرى التي يبلغها صدى القتيل. لا تركبها الأنانيـة ، ولا تعرف لحظة تخاذل. سألتها مرة ، ماذا أمثل بالنسبة إليك يا حبيبتي؟ ضحكت طويلا ، ثم قالت ، كنت أتوقـع أن تسألني ، ماذا تمثلين بالنسبة إليّ يا أولغا؟ قلت ، كلا. إنني جاد في سؤالي الذي لا أغير صيغته. فجرية طالبة ، وأنت أستاذ ياراليس. المأساة قاسم مشترك بيننا ، ولعل "ايوا" لم تمسخ بقرة ، إلا بفعل الحب. لعل أب أفوس ، لم يكن سوى تجسيد ، لمأساة زيوس. قد تكون الأسطورة أخطأت في التعبير ، فلم تجعلنا فـي مسـتوى تصـور المعاناة.

يعشقها. تنفيها ايزيس. يتعهد بمقاطعتها. تسترعي آرغيس ، ذا المائتي عين. تتحول إلى بقرة بين المـروج. تركبها الذبابة فتجن. تظل هاربة. يظل يلاحقها ، من سفوح الأوراس ، ربما. تقطع البحر الأبيض المتوسط. تمر على كل جزر أثينا. وعلى آسيا الصغرى ، تصل مصر. تطؤها يده. فقط يده. تلمسها النار العارمة. تحبل.

يولد البرهان الذي كانت هيرا في حاجة إليه ، والذي كان بروميثيوس. يعرفه.

نبوءة السر. قدر الحب الرباني.

أنا فجرية يا رايس. هامة هذا البلاد.

الغراب الأحمر

طراك.

تخبطت مسجلته ، تعلن عن انتهاء آخر شريط ، فارغ بين يديه، سره ذلك ، فقد كان التعب أخذ مأخذه منه ، وكان ريقه قد جف ، وأعصابه بصفة خاصة مستثارة ، بأجواء الجنازة التي عاشها ، والتي دبروا بدقـة، كـي تكون طويلة ، إلى أقصى حد ممكن ، حتى يتم فطامه بصفة جيدة ، كما قال الخبراء ، بالإضافة إلى التعب وإلى توتر الأعصاب ، هناك حنين واشتياق ، يهزانه إلى المعشوق.

لقد بذل مالا كثيرا ، كي يحتفظ له بلونه الطبيعي ، اللون الذي تبدّى به أول يوم والذي ينبغي أن يتبدّى بـه باستمرار ، ولاشك أن ذلك سره كثيرا ، صحيح هو يعرف أن العاشق ، في أقصى ذروة عشقه ، وأنه لن يتردد في أية لحظة بأية تضحية كانت ، هو يعلم كل شيء ، لكن ، المرء في حاجة دائمة ، إلى أن يطمئن نفسه إلـى إخلاصه ووفائه لمثله وقيمه. إلى البرهنة ، على إمكانياته وقدراته في الذهاب إلى أقصى حدود التضحية ، إلـى النظر في المرآة ، ليتعرف على وجهه من جديد ، و في كل مرة.

- انتهى جمع خيوط الموضوع. الليلة أشرع في الكتابة.

قال بصوت عال ، ثم غادر بيت الحكمة ، تسلل إلى غرفة النوم، دخل بدون أن يشعل النور ، كـان علـى وعي تام بأنها هنا ، فجرية بل ، إن طعم لحظات السعادة التي وهبتها له الليلة ، لم يغادره، وصدى رنين صوتها في الظلمة آت من الأعماق ، كي يلتقي بصوته ، ما يزال في أذنيه ، ويستطعمه كما يستطعم عسلا بريا.

ارتدى ثيابه ، تقدم منها بلطف ، انحنى وطبع قبلة على جبينها.

فتحت عينيها ، انفرجت شفتاها المكتنزتان ، عن بسمة في الظلمة ، مدت يدها وتناولت يده وراحت تلثمها.

- كم الساعة؟

- لا أدري. إنه الصباح على كل حال. واصلي نومك.

-إلى أين أنت ذاهب؟

- حيث تعودت أن أذهب كل يوم.

- سأنتظرك الليلة ، عندي لك مفاجأة ، لم تكن تتوقعها أبدا ستسر كثيرا الليلة.

- سأعود باكرا. نتعشى في مطعم ، أريد أن أتفرغ للكتابة.

قبّلها مرة أخرى ، ثم غادرها وغادر المنزل ، تاركا إياها ، تبحث عن الصيغة اللائقة للبشرى السـارة ... لقد وضع في بطنها جنينا ، في عمره ثلاثة أشهر . ينبغي أن يسرّ حقا ، هو الذي ما يفتأ يظن أنها عذراء، وأنه لم يتمكن من وطئها إلا عبر الصوت.

كان ينحدر ، مسرعا ، وقد نسيها ، ونسى ليلة البارحة كلها ، ونسي نفسه والعالم أجمع. ولن يتذكر إلا حين يراها في المساء. هاهو الصقر ، اختطف المخ دفعة واحدة ، بمجرد خروجه من البيت، وهاهو الآن ينهمك فـي نهش الكبد.

استدار ، قطع المجاز المعشوشب ، وهاهو يقترب من الجسر الحوال. رفع بصره إلى الأفق. الأعمدة كلهـا هنا ، في مكانها ، وكل شيء هاهنا ، في مكانه.

صعد. واجهه. كان في الموضع الذي تعود أن يواجهه منه. انتظر أن يحدث بينهما الاتصال كمـا جـرت العادة ، كلما واجهه.

- راح يتأمل جميع الأعمدة من بداية الطريق المزدوج ، إلى أن تختفي في الضباب.

- كلها مطلية ، ما عدا واحد. لكن ، أهوهو؟ أهو الذي اتفقنا عليه؟

- ربما غشوني.

أعاد النظر. انطلق صوت غراب: غاق. تأمله. كان في رأس العمود ، ينظف ريشه الأحمـر ، ويسـترق النظر إليه. التفت إلى الأعمدة الأخرى يتأمل رؤوسها. كان على كل واحد منها غراب أحمر. ربما نفس الغراب ، يتراءى له في كل مكان. ربما هي غربان عديدة لكنها من بلاستيك ، وضعوها في الليل ، لأمر مـا ، هـؤلاء المجانين الذين يطلون الأعمدة. حاول أن يتجاهل الأمر ، فراح يقترب من العمود غير المطلي. انتظر اتصـالا ما، لكن دون جدوى. التصق به ، فنعق الغراب: غاق ، تبع ذلك ، غاق كبيرة ، انبعثت من كامل الطريق.

- غشوني.

- قال ، وانصرف ، متذكرا ، كل ما لم يكن يتذكره في النهار. خاصة فجرية ومفاجأتها السارة ، والعـزم الذي أقره على كتابة مسرحية.

الطاهر وطار

الجزائر- 1988